# طلبـة و مظاهـرات

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت
ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات
الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
Email: may642003@yahoo.com

القاهـــــرة: ٢ شارع شريف عمـــارة اللـــواء ت : ٢٣٩٣٤١٢٧
الإسكندريـــة: ٧ شارع نوبـــار المنشيـــــــة ت : ٤٨٤٦٦٠٢

# طلبة و مظاهرات

## اعترافات طالب

## من تاريخ الحركة الطلابية

محمود حسين شفيق

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

شفيق، محود حسين محمد.

طلبة ومظاهرات / محمود حسين محمد شفيق. - ط ١. - القاهرة :
المكتب المصري الحديث، ٢٠١٢ ١٦٨ص،٢٤سم

تدمك X ٢١٤ ٢٠٩ ٩٧٧

١- الحركات الطلابية.
٢- الطلبة - نشاط سياسي
٣- المظاهرات
٤- الطلبة - اضطرابات

أ-العنوان

٣٧٨،١٩٨١

رقم الايداع ٤٢٣٧ / ٢٠١٢ بتاريخ ١٤/ ٢ /٢٠١٢

- إلى الله .
- إلى مصر .
- إلى شهداء مصر .
- إلى الحق والحقيقة .
- إلى العزة والكرامة .
- إلى من جادوا بأعز ما تجود به النفس ، لتحيا مصر .

المؤلف

# مقدمة

كنت قد تقدمت لنشر هذا الكتاب ، والذي يتناول الحركة الطلابية الرائدة لشباب مصر ، والتي تفجرت بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وذلك لأول مرة في نوفمبر ١٩٧٥ ، ولكن الرقابة في ذلك الوقت قد منعت نشره ، فأعاده الناشر إليَّ ، ونصحني أن أحتفظ به حتى يجيء اليوم الذي تتحطم فيه القيود والأغلال ، وتشرق شمس الحرية ، ويعلو صوت الأحرار . فعملت بنصيحته واحتفظت به ، وابتعدت منذ ذلك الوقت عن السياسة ، كل الابتعاد ، لخلوها من الشرف ، فهكذا كان نتاج تجربتي . إلا أنني لم أنس يومًا أو حتى لحظة واحدة ، أنني مصري . حتى جاء يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ ، هذا اليوم المشهود في تاريخ النضال المتواصل للشعب المصري . فقد خرجت الطليعة الثورية للشعب المصري ، ممثلة في شبابه تزأر في الطغاة ، وتنادي بالحرية والعزة والكرامة ، وقبل الغروب ، كان الشعب كله قد خرج يلتف حول شبابه الذين أصروا على تكسير القيود ، وتحطيم الأغلال ، واعتصموا في ميدان الحرية ، وصمدوا في ميدان المنشية ، وفي ميدان الأربعين ، وفي كل ميادين مصر وأحيائها ، صمود الأحرار وأصروا إصرار أحفاد بناة الأهرام ، ولم يعودوا إلى الديار إلا بعد أن سطعت شمس الحرية في ليل مصر ، فتنسمت نسيم الحرية ، وانتشيت بعبيره ، وشعرت أن شبابي قد عاد ، وهجرتني أمراضي ، فقد تجاوزت الستين من العمر ، وسئمت الحياة منذ الشباب ، ويبدو أنه ما كان إلا سأم الأحرار ، ورفض العبودية ، فاستيقظ العزم وشحذت الهمة ، وبحثت عن الكتاب الممنوع ، وتناولته بالإعادة ، بما يناسب العصر ، وبما لا يخل بفحواه ، فقد كنت أخاطب فيه أناسًا شهدوا ما يحوي من أحداث ووقائع ، أما الآن فإني أخاطب أجيالًا صاعدة لم تشهد هذه الأحداث ، وربما لم تكن قد ولدت بعد ، وإن كان سوف يقرأه أيضًا أناس قد عاصروا تلك الوقائع والأحداث ، فلا بأس من التحديث ، ولا أجامل فيه أحدًا من الناس أو طائفة ، أيًا كانت ، فلا أبتغي فيه إلا وجه الحق ، والبحث عن الحقيقة التي لابد أن نواجهها ، مهما كانت مرارتها إذا كنا حقًا نريد التغيير والإصلاح والتصحيح .

ومن المصادفات الغريبة ، أن تولد الحركة الطلابية ، التي نحن بصدد الحديث عنها ، والتي تفجرت بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، في يوم ٢٤ يناير ١٩٦٨ ، وقد اشتهرت بيننا بحركة ٢٤ يناير ، برغم تعتيم السلطة عليها ، وبرغم مرور أكثر من أربعين عام على هذه

الحركة الطلابية ، إلا أنها تلتقي مع ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ في مطلبها الأساسي ، وهو أعز مطلب في حياة الإنسان ، ألا وهو الحرية .

وبعد أن انتهيت من إعادة صياغة هذا الكتاب ، الذي مُنع من النشر من قبل ، رأيت أن أزوده بفصل قد كتبته حديثًا ، بعد أن تعديت الستين من العمر بقليل ، تواصلًا مع أحرار اليوم ، واستمرارًا لمسيرة الحرية والعزة والكرامة ، وشاء الله أن أنتهي من هذا العمل في ذكرى يوم عزيز رفعنا فيه رؤوسنا ألا وهو يوم العبور العظيم ، وما هو إلا عمل متواضع في حب مصر ، فتقبلي يا حبيبتي ، فتقبلي يا مصر .

**محمود حسين محمد شفيق**

**حلوان في الخميس**

**السادس من أكتوبر عام ٢٠١١**

# مقدمة الطبعة المنوعة

أخذت الجامعة المصرية وأحداثها التي تكررت بعد هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ تشد الأنظار إليها ، وتوليها الصحف وأجهزة الإعلام المختلفة كثيرًا من الاهتمام ، ولقد حاول الكثيرون من الصحفيين والمفكرين والساسة تحليل تلك الأحداث ، وإلقاء الضوء عليها ، وإن كان هؤلاء وأولئك قد اختلفوا في المنهاج البحثي والرأي ، إلا أنهم جميعًا قد اتفقوا في أمر واحد ، ألا وهو أنهم يكتبون وينظرون ويحللون جميعًا من خارج الأسوار ، ومنهم أيضًا من ينظرون من أبراج عاجية ، فلا يرون الحجم الحقيقي لتلك الأحداث ، ولعزلتهم أيضًا فلم يروا ، ولم يقفوا على مشاعر الشباب الحقيقية ، وعلى بركان الغضب الذي كان يعتمل في النفوس نتيجة خيبة الأمل والإحباط الذي منينا به بعد أن انكشفت أكذوبة نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وقد اقترب البعض من الجامعة وقت الأحداث وحاولوا أن يعايشوها ، ويقفوا على حجمها الحقيقي ، ولتلك الأسباب ، فقد خرجت تحليلاتهم ناقصة وقاصرة عن إدراك الحقيقة ، كما كانت خاضعة لأهواء أصحابها الفكرية والسياسية ، وقد حاول الكثيرون استغلال تلك الأحداث وركوب الموجة لتحقيق مآرب شخصية ومكاسب سياسية .

فرأيت أن أجمع ما عشته من أحداث ، وما كان يدور بين الشباب من حوارات ، وما كانت يدور بيننا وبين أساتذتنا ومن هم أكبر منَّا سنًا ، وتعامل السلطة مع تلك الأحداث ، وتعامل الناس أو المجتمع معها ومعنا ، بلا مواربة أو مجاملة وإني إذ أعطي صورة لما وقع داخل إحدى الجامعات ، وهي جامعة عين شمس ، وخاصة داخل إحدى كلياتها وهي كلية الهندسة التي قامت بدور رئيسي في أحداث جامعة عين شمس في الفترة ما بين ٥ يونيو ١٩٦٧ إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، أعتقد أن ذلك مثلًا أو نموذجًا للأحداث التي عمت الجامعات في تلك الحقبة من تاريخ مصر ، والله ولي التوفيق .

**محمود حسين محمد شفيق**

**القاهرة في ٥ نوفمبر ١٩٧٥**

# تمهيد

إذا كنت قد اشتركت في تلك الأحداث ومظاهرات الطلبة التي تفجرت بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فإني أعترف أنني لم أنضم إلى أي حزب سياسي ، أو أي تنظيم ، سواء كان علني أو سري ، وما زلت كذلك ، فقد كنت أتحرك بحس وطني نقي ، لا أبغي مصلحة حزب أو تنظيم وإذا كنت قد أعدت كتابة هذا الكتاب الذي منع من النشر عام ١٩٧٥ ، فقد حافظت على أحداثه وفحواه ، وتناولته برؤية أشمل وأوضح ، فقد كنت في تلك السنوات ما زلت في مقتبل العمر ، ولم يكن فكري قد تبلور بعد ، ولم أكن أتمتع بما أتمتع به الآن من استقرار فكري ، ولجسامة الحدث الذي هز كياني ، وكيان كل مصري ، وخاصة الشباب ، فقد اندفعت مع أقراني في البحث عن أسباب الهزيمة ، والقراءة في التاريخ والسياسة والدين ، والبحث في أسباب الضعف ، وأسباب القوة التي يجب علينا أن نأخذ بها ، ومع ذلك كله ، فلا أستطيع أن أدعي أن رؤية تلك الأحداث كانت واضحة ومتبلورة مثلما هي الآن ، وعلى سبيل المثال فقد كنت قرأت عن الصهيونية في المرحلة الثانوية ، ثم أعدت قراءة كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» بعد الهزيمة ، إلا أنني لم أكن أعرف شيئًا عن الماسونية العالمية .

ثم راعيت الاختصار ما استطعت ، خاصة وأنا أخاطب أجيال الحاسوب (الكمبيوتر) وشبكة الإنترنت ، الذين يجلسون الساعات الطوال أمام شاشته ، ولا يطيق غالبيتهم أن ينظر في كتاب ، وإذا كنت في الفصل الأخير قد عرضت باختصار لقضايا كبيرة لا يمكن مناقشتها باستفاضة في هذا الموضع ، فما هي إلا أمثلة لإعادة النظر والتمحيص في المنظومة الفكرية التي نعيش بها ، وبعد أن انتهيت من تدوين هذا الكتاب كما هو عليه الآن ، فقد أخذت أنظر فيه مرارًا ، وأحاول أن أقول أهم ما يمكن القول ، فربما يكون الكتاب الأخير الذي أنشره ، حتى مللت ووجدتني أقول : ليس في الإمكان أحسن مما كان .

# الفصل الأول

## مقدمات الهزيمة

قبل أن أجتر ذكريات ذلك اليوم الفاجع الأليم في تاريخ مصر ، والذي أهرب من تذكره وأبعده ، أو أبتعد عنه كلما عبر خاطري ، أراني مضطرًا أن أستعيد شريط الذكريات ، منذ التحاقي بكلية الهندسة – جامعة عين شمس – في أكتوبر ١٩٦٦ ، وأقف عند كل حدث له دلائله ، مهما كان صغيرًا ، أو إن بدا كذلك ، فكثيرًا ما تقع في حياتنا أحداث ، نستصغرها ، وتمر ولا نهتم بها ، وإن وقفنا عندها ، وتناولناها بالفحص والتحليل ، لوجدناها ذات دلائل عميقة وكبيرة ، وقد تكون من هذه الأحداث الصغيرة مثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وقد تكون أيضًا مثل جرثومة غزت جسم إنسان ، ومع صغرها المتناهي قد تكاثرت ، وانتشرت في الجسم كله ، حتى تهاو وانهار تحت وطأة ذلك الغزو الجرثومي ، الذي بدأ بجرثومة متناهية في الصغر ، إذن فعليَّ أن أسترجع شريط الذكريات منذ بدء دراستي الجامعية ، ولا أستثني حدثًا له دلائله ، مهما كان صغيرًا .

**في قاعة المحاضرات :**

بت ليلة بدء الدراسة بالجامعة ، وقد هجر النوم عيناي ، سابحًا في أحلام وآمال تراقصت أمامي ، وتساؤلات قد عبرت خيالي ، استجابة لاشتياقي ، كيف هي قاعة المحاضرات ، وكيف يعلم العلماء المريدين من طلبة العلم ، وهل تختلف المعامل بكلية الهندسة عن المعامل في المدرسة الثانوية ، سوف أتعلم وأبحث على أيدي العلماء الكبار ، سوف أتناقش وأذاكر مع أولئك الحواريين في محراب العلم وأتخذ منهم أصدقاء وسوف أعيش بينهم في مجتمع العلم والأخلاق ، والمثل العليا ، سوف أتعلم المثالية في كل شيء .

خرجت مع الصباح المبكر ، أقطع الطريق إلى الجامعة ، وعندما اقتربت منها ، أخذت ضربات قلبي تزداد وتشتد ، كم هذه الأماكن توحي بالقدسية والسمو ، حينما نراها عن بعد ، ودخلت من الباب الرئيسي للجامعة ، المطل على شارع ٢٣ يوليو – الخليفة المأمون سابقًا .

واتجهت إلى أحد مدرجات كلية الحقوق ، حيث تقرر أن يتلقى الطلاب بالفرقة الإعدادية بكلية الهندسة المحاضرات نظرًا لضيق مدرجات كلية الهندسة ، ولحين الانتهاء من تشييد

مدرجات جديدة تتسع لطلابها ، وتقع كلية الهندسة بميدان عبده باشا على بعد كيلومترين من حرم جامعة عين شمس والذي كان فيما سبق يعرف بقصر الزعفران ، وكانت الدفعة التي قبلتها كلية الهندسة في هذا العام كبيرة ، فقد وصلت إلى حوالي ألف ومائتين طالب ، قد قسموا إلى ثلاثة مجموعات ، كانت كل مجموعة منها حوالي أربعمائة طالب .

وكان حرم الجامعة يحتوي على ثلاثة كليات قد بنيت حديثًا بقصر الزعفران ، أو بحديقته ، وقد خصص القصر لمدير الجامعة والإدارة ، وهذه الكليات هي : الحقوق ، والعلوم ، والآداب ، ولم يكن قد مر على بناء تلك الكليات أكثر من خمسة أعوام أو ست على أقصى تقدير ، فوضعت نوتة محاضرات فوق أحد الأماكن بالمدرج ، وأخذت أتجول في المدرج ، وأنظر إلى سقفه العالي ، وجدرانه التي لا تسمح بنفاذ الصوت منه أو إليه ، وقد احتوتني الفرحة وأخذني الانبهار بهذا الصرح العظيم .

وفي مقدمة المدرج ، وأمام المنصة التي يعتليها الأستاذ المحاضر ، قد أقيمت بعض من الكراسي ، بنظام حديث ، في عدة صفوف ، وقد خصصت لجلوس الطالبات ، إلا أنه كان كثيرًا ما يجلس فيها الطلاب ، وكان بينهم كثير من المقاعد قد كسرت ظهورها ، ومنها أيضًا ما كسرت قلابته ، وهي عبارة عن لوح من الخشب سميك يتحرك على ذراع محوري حديد ، يمكن من دورانه ، ويثبت ويوضع عليه نوتة المحاضرات ، ووقعت عيني على بعض من تلك الكراسي ، وقد كسرت ظهورها ، أو اختفت قلابته ، فاحتواني الحزن والضيق والغضب ، فجلست على أحد المقاعد السليمة ، واستندت بقوة إلى ظهره حتى أستشعر متانته ، ولم يرد على ذهني أن يقوم طالب جامعي بكسر كرسي يجلس عليه ، أو اتلاف أي شيء مملوك للدولة أو للغير ، فقد تربينا في ظل الاشتراكية ، وتشبعنا بالفكر الاشتراكي ، ومن العسير قبول هذا المشهد .

ولا أنسى ذلك العالم الجليل الأستاذ الدكتور فارس ميناو ، رئيس قسم العلوم الرياضية والطبيعية بالكلية ، والذي كان من عادته ، بمجرد أن يدخل قاعة المحاضرات ، ويرتقي المنصة ، أن يمسك بأصبع طباشير ، ويكتب على السبورة كلمة باللغة العربية ، ويقوم بشرحها لمدة خمس دقائق ، قد تطول إلى ربع ساعة ، قبل أن يبدأ المحاضرة ، فيتناول بالشرح أحد الأقوال الفلسفية المأثورة ، وكان من المتيمين بسقراط ، رأس الفلسفة اليونانية ، وعلى سبيل المثال ، قد كتب ذات مرة : اعرف نفسك ، ومرة أخرى ، قد كتب ، وتناول بالشرح ذلك القول المأثور : رأس الحكمة مخافة الله ، وكنت أحرص على أن أذهب إلى محاضرته مبكرًا ،

حتى أستطيع أن أجلس في الصفوف الأمامية ، فأستمع إلى محاضرته وكلمته جيدًا ، وكنت أبتعد عن صفوف الكراسي الذين بينهم المكسورين حتى لا يقع بصري على أحد المقاعد المكسورة ، فقد ظل هذا المشهد يثير في نفسي مزيجًا من الحزن والغضب ، ويشغل تفكيري طوال العام ، وإن كان قد أحزنني وأغضبني كثيرًا من المشاهد والمواقف ، التي شاهدتها ، وعشتها طوال العام الدراسي ، إلا أنني أكتفي بذكر ذلك المشهد ، الذي كان له بقية في آخر العام ، وحتى لا نطيل ، فنبتعد عن المرمى أو المراد ، وهو تسجيل ما عشته في داخل الجامعة ، قبل هزيمة يونيو ١٩٧٦ ، وأثنائها ، وبعدها من أحداث .

ومرت الأيام والشهور ، حتى كان يومًا في أواخر أيام شهر إبريل عام ١٩٦٧ ، وقد أشرف العام الدراسي على الانتهاء ، وكنا نقف في مجموعات صغيرة بالمدرج أو خارجه في وقت الراحة ، نتجاذب أطراف الحديث ، وبينما كنت أقف مع ثلاثة من الزملاء ، انتابت أحد الطلبة نوبة من الهرج والمرج ، فضرب أحد المقاعد الأمامية بالمدرج بركبته في ظهره فقسمه نصفين ، وأخذ يضحك ، وذهلت لهذا الفعل ، وتوقف الكلام في حلقي ، وجعلت أنظر إلى من حولي ، وقد سيطرت عليهم الدهشة ، ثم سألته عن الأسباب التي دفعته لذلك الفعل أو الجرم الذي أتى به ، ولكن دون جدوى ، فقد حاولت أن أخبره أنه قد اعتدى على ملكية مصر ، التي لي فيها مثل ما له ، مثلما هو لكل مصري ، وتجمع حولنا عدد من الطلاب ، بين مندهش ، وغير مبالٍ ، وكأن ما أتى به هو أمر طبيعي ، ولا يستحق الالتفات إليه ، ولما يئست من إقناعه أنه عليه إصلاح ما أتلف ، رأيت أن لا أفرط في حقي في المقعد المعتدى عليه ، وفي حق الملكية العامة التي أوجبت لي هذا الحق وأن الحل الأمثل أن أذهب إلى القائمين على الأمن ، وحماية المنشأة العامة وسلامتها ، ولا أتستر على جريمته فأكون شريكًا معه ، فذهبت على الفور إلى حارس المدرج ، وأبلغته بما حدث فتحرك معي إلى حيث المقعد المعتدى عليه ، والذي كان الطلاب الذين رأوا ما حدث يجتمعون حوله وبينهم الطالب المعتدي .

واصطحبنا الشرطي إلى مكتب قائد الحرس الجامعي ، ووقف ثلاثتنا أمامه ، وقص عليه حارس المدرج ما حدث ، فتوجه إلى الجاني بالسؤال ، ولكنه بدلًا من أن يجيبه توجه إليَّ وسبني ، وعندئذٍ وقد كان قد فاض بي ، وما أدري إلا وقد هوى كفي على وجهه ، وعلى الفور نهره الضابط ، وطلب مني أن أنصرف ، وحرر محضرًا بالواقعة .

وبعد عدة أيام قابلني هذا الزميل الأثيم المعتدي ، وهو يضحك ، وكان معه زميلًا آخر ، وأخبرني أنه قد أعطى حارس المدرج ربع جنيه ، وأحضر له المحضر ومزقه ، وانتهى الموقف بالحل الاشتراكي .

وإن كان هذا الموقف ، أو تلك الجريمة قد انتهت ، إلا أن ظاهرة المقاعد المكسورة بمدرجات الجامعة ، والاعتداء على الملكية العامة لم تنته بالنسبة لي ، فقد كان لهذه الحادثة ، التي ذكرت ، أثر كبير في نفسي ، وأخذت تشد انتباهي أينما ذهبت في المدرجات ، وفكرت أن أناقش هذه الظاهرة مع اتحاد طلاب الجامعة ، خاصة وأنهم أعضاء في منظمة الشباب الاشتراكي ، وهم على علم بالاشتراكية ، ولكني وجدت أن هذا لا يدخل في نشاطه الاشتراكي الذي كان محددًا بتنظيم الرحلات وإقامة الحفلات والمباريات ، كما أن مدير الجامعة حتمًا كان لديه فكرة عن ذلك ، وكذلك أيضًا الأساتذة المحاضرين الذين يرون تلك المقاعد المخربة يوميًا أمامهم بالمدرجات ، ولم تكن هذه الظاهرة – أي ظاهرة تخريب الملكية العامة – بالجامعة وحدها بل هي ظاهرة عامة ترى في كل مكان ، وعلى سبيل المثال ، فنادرًا ما تركب أتوبيس من أتوبيسات النقل العام ، إلا وتجد عددًا من المقاعد قد شق وانتزع منه الإسفنج ، وليس هذا فحسب ، بل قد أصبح ذلك التخريب شيء للمباهاة والفخر ، فترى الرجل يحكي عن ابنه بفخر الذي ذهب إلى السينما وعاد بقطعة كبيرة من الإسفنج .

**أغاني وطنية وأناشيد حماسية :**

لما كانت تلك الواقعة التي ذكرت ، قد وقعت في شهر إبريل عام ١٩٦٧ ، فلم تشغلني أكثر مما قدمت ، فقد اختزنت في الذاكرة ، ومعها ظاهرة تخريب الملكية بصفة عامة ، فقد تلتها أحداث جسام ، فقد بلغت المخابرات السوفيتية الرئيس جمال عبد الناصر ، أن هناك حشودًا إسرائيلية على الحدود السورية ، وأن إسرائيل تنوي مهاجمة سوريا ، وعلى الفور أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارًا بإغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية ، وطلب من الأمم المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية من الأراضي المصرية ، التي كانت تقف على الحدود بين مصر وإسرائيل منذ أن انسحبت القوات المعتدية على مصر في حرب السويس عام ١٩٥٦ ، وأمر المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة بحشد القوات المصرية في سيناء ، والاستعداد للهجوم على إسرائيل ، وأخذت إذاعة القاهرة ، وصوت العرب ، وإذاعة الشعب ، في إذاعة الأناشيد الوطنية والحماسية ، والمارشات العسكرية ، التي تلهب حماس الجماهير ، وكان يتخلل ذلك التحليلات السياسية من الصحفيين ، والسياسيين ، والمفكرين ، والعسكريين ، والاستراتيجيين ، التي أجمعت على أن الوقت قد حان للقضاء على إسرائيل ، وتحرير فلسطين ، وأن الأمر بالنسبة للجيش المصري لن يكون سوى نزهة قصيرة ، سوف يعود بعدها الجيش المصري بالنصر الأكيد ، ولن تستغرق المعركة سوى

أيام قليلة ، وربما تكون عدة ساعات ، وأخذت الإذاعات ، وخاصة إذاعة صوت العرب ، تستنفر العروبة في الوطن العربي الكبير ، من المحيط إلى الخليج ، وقامت سوريا بحشد قواتها على الحدود الإسرائيلية ، وكذلك فعل الأردن الشقيق ، والذي أتى ملكه ، الملك حسين بن طلال إلى القاهرة ، يقود طائرة حربية بنفسه ، وقد ارتدى زي طيار ، ووضع طبنجته على جانبه الأيمن ، فالأمر جاد لا هزل ، كما عقدت عدة اجتماعات بدمشق لهيئة القيادة العربية المشتركة للقوات العربية ، بقيادة الفريق أول علي علي عامر ، وقد بدا الرئيس جمال عبد الناصر وأخوه الملك حسين ، ملك الأردن حينما استقبله في القاهرة في حالة من الثقة والاطمئنان ، وقد علا وجوههم البشر والحبور ، كذلك بدا في الصور التي نقلتها لنا الصحف والتلفزيون ، وقد عقد الرئيس عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًا عالميًا أعلن فيه أننا مستعدون لخوض المعركة المصيرية ، ولا تراجع ، وكان واضحًا أنه يتحدث بثقة عالية ، كما نشرت الصحف صورًا للحشود العسكرية المصرية في سيناء ، وقد أخذ الجيش المصري في تشكيله الهجومي شكل رأس حربة ، في الوقت الذي أخذ فيه رئيس دولة إسرائيل ، ووزير خارجيتها يهيبون بالمجتمع الدولي ، والدول الكبرى ، والعالم المتحضر أن يحموا دولة إسرائيل من ذلك الوحش المصري الكاسر الذي أصر على افتراس ذلك الحمل الوديع المسمى إسرائيل ، بل واستنفرت معها إخوانها العرب ، والذين اتفقوا جميعًا على أن يقضوا على الدولة الضعيفة المسالمة التي يعاديها جيرانها العرب بلا ذنب اقترفته .

وتوج ذلك كله حفل السيدة أم كلثوم الذي أقيم بنادي الضباط بالزمالك في يوم الخميس الأول من يونيو سنة ١٩٦٧ ، والذي حضره الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر ، وكبار قادة القوات المسلحة ، وكثير من ضباط الجيش ، وكبار المسئولين بالدولة ، والذي أخذ مظهر احتفالية بالنصر الذي هو آت ، بلا ريب ، ولقد ألقت فيه سيدة الغناء العربي أنشودة النصر التي قالت فيها :

راجعين بقوة السلاح  راجعين نحرر الحمى
راجعين كما رجع الصباح  من بعد ليلة مظلمة

وبات الناس في هذه الليلة فرحين ، مطمئنين أن فلسطين قد تحررت ، ولم يبقى سوى إعلان الخبر اليقيني ، وكان الرئيس جمال عبد الناصر قد عقد عدة اجتماعات لقادة الجيش ، وهيئة أركان القوات المسلحة ، برئاسته ، بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة ، بمبنى القيادة العامة للقوات المسلحة ، بكوبري القبة ، وكان آخر هذه الاجتماعات قد عقد يوم

السبت الموافق ٣ يونيو ، وأخذت صفارات الإنذار تنطلق يوميًّا عدة مرات للتجريب ، كما استمرت الإذاعات المصرية في إذاعة الأناشيد الوطنية والحماسية التى تتخللها التحليلات السياسية والتعليق على الأنباء لكبار المحللين السياسين والعسكريين والاستراتيجيين ، الذين أجمعوا على النصر الأكيد ، كما أخذت الصحافة أيضًا في هذه الأيام تخرج علينا حاملة صور قواتنا المسلحة بتشكيلاتها القتالية في سيناء ، واستعداداتها القتالية العالية ، كما خرج علينا الصحفي الكبير محمد حسنين هيكل رئيس مجلس إدارة جريدة الأهرام ورئيس التحرير ، الناطق بلسان الحاكم والمعبر عن آرائه ، في مقاله الأسبوعي الشهير بصراحة ، والذي كان يحرص على قراءاته أغلب القراء ، يشيد بقدراتنا العسكرية العالية ، واستعداد جيشنا للغزو والنصر الأكيد ، والذي نشر في يوم الجمعة الموافق الثاني من يونيو ، وباختصار فقد كان الكل يبشر بالفرحة التي عمت البلاد وانتشرت بالنصر الذي هو آتٍ عما قريب .

## وجاء يوم العار

وجاء يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، وقد كنت أبيت ليلتها في ضيافة أحد أقربائي بحي حلوان ، بعد أن انتهت الامتحانات ، وبدأت الإجازة الصيفية في أواخر شهر مايو ، وفي حوالي الساعة العاشرة صباحًا سمعنا أصوات انفجارات شديدة جدًا ، اهتزت لها الأبنية ، وأعقب ذلك صوت انفجارات أشد ، إلا أنه تبين أنها أصوات تحدثها الطائرات حينما تخترق سرعة الصوت ، والتي لم يكن لنا عهد بها ، وانضمت إذاعة القاهرة إلى إذاعة صوت العرب ، في إذاعة واحدة ، والتي أخذ الأستاذ أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب يذيع منها بيانات النصر الصادرة عن القيادة العامة للقوات المسلحة ، أولًا بأول ، والتي بدأها بالبيان الأول الذي أعلن فيه أن مدفعيتنا قد أسقطت عددًا من طائرات العدو ، ولا أتذكر حقيقة الرقم ، فقد استمعت إلى البيان الأول على عجل .

ونزلت مسرعًا ، فقد بدأت الحرب ، ولا يحق لشاب مثلي أن يجلس بالبيت يستمع إلى الراديو ، ويشاهد التليفزيون واتجهت إلى بيتنا بحي كوبري القبة لكي أرتدي الزي العسكري ، أو زي التربية العسكرية التي كانت مقررة على طلاب الثانوي والجامعة ، أرتديها ، وأذهب على الفور للتطوع في صفوف المقاومة الشعبية ، التي تحمي ظهر جيشنا الباسل الذي يخوض المعارك الآن لتحرير فلسطين .

ذهبت إلى المترو ، فوجدته قد توقف عن الحركة ، بعد أن دوت صفارة الإنذار الأولى ، فتوجهت إلى أتوبيس النقل العام فوجدته قد توقف عن الحركة أيضًا ، وأخذت أبحث عن أي وسيلة نقل تقلني ، ووجدت أحد الرجال ينظر حوله ، ويبدو أنه يبحث عن أي سيارة تنقله هو الآخر ، فوقفت معه ، وانضم إلينا شخص ثالث ، ووقفنا سويًا على الطريق نشير إلى أي سيارة تتجه إلى شمال القاهرة ، ولم تتوقف لنا سوى سيارة ، أو بمعنى أصح عربة نقل من تلك العربات التي تقوم بنقل الزلط والرمل ، ففرحنا بها ، وقفز ثلاثتنا في صندوق العربة ، التي انطلقت بنا بسرعة ، حيث كان الطريق خاليًا ومفتوحًا ، وانطلقت العربة تقطع طريق الكورنيش ، حتى وصلت إلى حي مصر القديمة ، فتوقفت ، ونزلت نظرًا لأن السائق كان ينوي أن يتجه غير ما أقصد ، وظلت هكذا ، أنتقل من عربة إلى أخرى حتى وصلت إلى البيت ، الذي انتشرت فيه الفرحة والتهليل .

وعلى عجل ارتديت زي التربية العسكرية ، أو أفرول الجندي ، وانطلقت أقطع الطريق إلى الجامعة ، وفي الطريق ، مررت بمجموعات من الناس ، قد تجمعوا حول مذياع بأحد المحلات ، يستمعون إلى البيانات العسكرية التي أخذت تتوالى ، وهم يهللون ، ويضحكون ، ويرقصون ، ويتبادلون التهاني والقبلات ، بالنصر الذي هو قادم ، بلا ريب ، وقد تعدت الطائرات التي أسقطناها للعدو السبعين طائرة ، حسب البيانات الصادرة من القيادة العامة للقوات المسلحة ، والذي تولى إذاعتها الأستاذ أحمد سعيد ، والذي أخذ يذيع منها بيانات النصر ، ومررت بمدرسة منشية الصدر الابتدائية المشتركة ، وعاد شريط الذكريات إلى عام ١٩٥٦ ، يوم ارتديت بدلة عسكرية لأول مرة في حياتي ، وقد كنت تلميذًا صغيرًا ، وكنت أقوم بدور في مسرحية في الحفل الذي أقامته المدرسة الصغيرة ، احتفالًا بمناسبة جلاء القوات الإنجليزية والفرنسية عن مدينة بورسعيد الباسلة ، بعد العدوان الثلاثي على مصر ، وكان دوري في هذه المسرحية ، أن أظهر مرتديًا بدلة ضابطًا ، وعليَّ أن أقول : سأكون جنديًا شجاعًا ارتدى ثوب الأسود ، ولا أنام عن الحمى ، وهائنذا أرتدي ثوب الأسود ، وكم أود أن أقاتل في سبيلك يا مصر ، ووجدتني أقف قليلًا عند مدرستي أجتر ذكريات الطفولة ، ثم واصلت السير إلى الجامعة .

وأخيرًا ، وصلت إلى الجامعة ، ورأيت مئات من الطلاب قد تجمعوا في حرم الجامعة أو الحديقة ، وكان الكثيرون منهم يرتدون الزي العسكري ، ووقفوا في مجموعات ، وكان بين كل مجموعة أحد الطلبة الذي يحمل جهاز راديو صغير ، وقد أخذوا يتابعون البيانات العسكرية ، ويهللون كلما أذيع نبأ جديد من بيانات النصر ، وقد ارتسمت البسمة على الوجوه ، وعلاها البشر والحبور ، وقد تعدى عدد الطائرات التي أسقطتها مدفعيتنا المضادة للطائرات ، سبعين طائرة من طائرات العدو في عدة ساعات منذ بدء المعارك ، وانتهزت فرصة إذاعة أحد المرشات العسكرية ، فسألتهم عن التطوع فأخبروني أنهم قد سألوا في مكتب التربية العسكرية ، فأخبروني أنهم لم يأت إليهم أوامر بعد ، فانتظرنا ريثما تأتي الأوامر حتى قرب الغروب ، ولكنها لم تأت ، فافترقنا على أن نعود في الصباح المبكر ، على أمل أن يفتح باب التطوع ، وقبل المساء كان عدد الطائرات التي أسقطناها للعدو حوالي المائة طائرة ، حسب البيانات العسكرية التي أذاعها مدير إذاعة صوت العرب ، بصوت كله ثقة وقوة وحماس ، وإن كان قد عزف عن ندائه للمقاتلين المصريين البواسل المتجهين صوب إذاعة تل أبيب ، ورجائه أن لا يدمروها ، حتى يستطيع أن يلقي منها بيان النصر .

وفي منتصف الليل تقريبًا ، قد بدأ ينتشر بيننا أخبار قد نقلها إلينا العواجيز الذين قبعوا بجوار الراديو ، يلتقطون الأخبار من الإذاعات الأجنبية ، والتي فحواها أن الجيش المصري قد انسحب إلى خط الدفاع الثاني ، أي إلى القنطرة شرق ، والإسماعيلية والسويس ، أي ترك سيناء للعدو ، وانسحب إلى الخلف ، وبذلك يكون قد هُزم ، إلا أننا لم نصدق ، واعتبرناها شائعات تطلقها الإذاعات الأجنبية المعادية لمصر والعروبة ، والتي تربينا على ألا نصدقها ، وعلينا ألا نثق ، وألا نصدق إلا إذاعتنا .

وفي صباح اليوم التالي ، أي السادس من يونيو ، ازداد عدد الطلاب الذين تجمعوا في ساحة الجامعة ، وأمام مكتب التربية العسكرية ، بغية التطوع في المقاومة الشعبية ، وكان أغلبنا يرتدي الزي العسكري وظللنا مجتمعين بساحة الجامعة طوال النهار في انتظار فتح باب التطوع ، ووقفنا في مجموعات صغيرة ، حول أجهزة الراديو الترانزستور ، نتابع الأخبار والبيانات العسكرية التي بدا عليها شيء من الفتور ، كما بدا على ضباط التربية العسكرية الوجوم ، والضيق ، وكنا نلاحقهم أينما رأيناهم ، ونسأل عن فتح باب التطوع ، وكانت إجاباتهم قليلة ومقتضبة ، وبدأت أخبار تنشر أن طائرات أمريكية قد هاجمتنا من الجهة الغربية ، أي من جهة ليبيا ، التي كانت بها قاعدة جوية أمريكية بمدينة طرابلس ، ولم نكن نتوقع أن يباغتنا العدو ، ويهاجمنا من جهة الغرب ، فقد كنا نتوقع أن يهاجمنا من جهة إسرائيل أو من جهة البحر الأبيض ، وأخذ حماس إذاعة صوت العرب في الهبوط ، حتى كاد أن يتلاشى ، وأخذت تسيطر على الناس حالة من التوجس والذهول ، ومع ذلك ، فلم يقل حماسنا الوطني ، بل أخذ يزداد ، واستمررنا في الذهاب إلى الجامعة يوميًا من الصباح المبكر ، نتجمع بساحتها ، وننتظر حتى الغروب ، على أمل أن يفتح باب التطوع ، حتى تشكل جيوشًا شعبية تحمي ظهر جيشنا ، وتدافع عن المدن ، ولا نستسلم مهما اتسعت الحرب ، واستمرت ، ومهما كان الثمن ، وظللنا كذلك حتى كان يوم التاسع من يونيو .

**حول التنحي والعودة :**

في حوالي الساعة الثامنة والنصف تقريبًا من مساء يوم التاسع من يونيو ، ألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطابه الشهير الذي أعلن فيه تنحيه عن منصب رئيس الجمهورية ، وعن أي منصب رسمي في الدولة ، وأنه اختار أن يكون بين صفوف الجماهير ، وأنه كنا نتوقع أن يهاجمنا العدو من الشرق أو الشمال ، أي من إسرائيل ، أو من جهة البحر الأبيض المتوسط ،

ولكنه قد هاجمنا من جهة الغرب ، من حيث لم نتوقع ، وأن الاستعمار قد أراد بهذه الحرب القضاء على عبد الناصر ، وإذا كان هو المطلوب والمقصود من هذه الحرب ، فإنه يعلن تنحيه وابتعاده عن الحكم ، حتى لا تضار مصر أكثر من ذلك ، كما أعلن مسئوليته الكاملة عما حدث ، وقد عهد بحكم البلاد إلى أخيه السيد زكريا محي الدين عضو مجلس قيادة الثورة ، ونائب رئيس الجمهورية .

ولم يكد الرئيس جمال عبد الناصر ينتهي من كلمته ، حتى خرجت الجماهير إلى الشوارع ، دون تفكير ، وقد استولى علينا حالة من خيبة الأمل ، وقد استشعر كل من استمع إلى خطابه أنه قد ألمت بمصر كارثة كبرى ، فهو رمز الكفاح والنضال ، وهو أمل مصر ، وكم عاشت معه مصر محنًا وتحديات ، ولم يهتز يومًا ، مثلما اهتز اليوم ، فقد بدا الحزن والألم واضحًا في صوته ، وبدا الانكسار في عيني الصقر ، فخرجنا إلى الشوارع نرفض الهزيمة ، ونرفض أن يستسلم عبد الناصر ، واتجهت الجماهير إلى بيت عبد الناصر بمنشية البكري ترفض أن يستسلم عبد الناصر ، وترفض الاستسلام ، وتناديه ألا يتنحى ، وأن يبقى في مكانه ، وكلنا وراءك يا جمال ، يا رمز الكفاح والنضال ، وإذا كان عبد الناصر قد وقف فوق منبر الجامع الأزهر في أول نوفمبر ١٩٥٦ ليعلن على العالم كله باسم شعب مصر أنه قبل القتال الذي فرض علينا ، وأنه لن يوجد من يفرض علينا الاستسلام ، فإن الشعب المصري اليوم يعلن للعالم أجمع باسمه واسم عبد الناصر أنه لن يقبل الاستسلام ، ولن يفرط في عبد الناصر ، وظلت الجماهير في تجمعها حول بيت الرئيس تناديه ألا يتنحى ، وأن يبقى في مكانه ، طوال الليل ، حتى الصباح ، وكنت أرى أعداد الناس في تزايد مستمر ، حتى الصباح .

## مع أشقاء من ليبيا :

وفي صباح اليوم التالي ، أي يوم العاشر من يونيو ، أخذت أشق طريقي بين الزحام المتزايد إلى الجامعة ، كما تعودت ، منذ ٥ يونيو بغية التطوع في صفوف المقاومة الشعبية ، وفي ساحة الجامعة وقفنا في مجموعات صغيرة ، وقد اختفت الراديوهات ، التي كانت تتجمع حولها كل مجموعة ، وكنا نقف صامتين ، وقد علت الكآبة الوجوه ، وسيطر الوجوم ، وبدا عليها الحزن الشديد ، وكأننا في مأتم كبير ، وبينما كنت أنظر فيمن حولي ، وإذ بشاب قد ألقى علينا السلام ، ثم وقف بجانبي صامتًا ، ثم سألني عن التطوع في المقاومة الشعبية ، وإن كان مسموحًا للعرب من غير المصريين أن ينضموا إلى صفوف المقاومة الشعبية ، ثم أخبرني أنه ليبي ،

وأنه يأتي هنا يوميًا منذ السادس من يونيو ، بغية التطوع في صفوف المقاومة الشعبية ، ولم يجد من يرد عليه ، فنكست رأسي ونظرت إلى الأرض ، ولم أدر كيف أجيب ، ثم نظر إلى مكتب التربية العسكرية ، وكان بابه مغلقًا ، ثم عاد وأخذ يحدثني ويخبرني أنه قد رأى شبابًا عربًا من سوريا ، ولبنان ، وفلسطين والسودان ، والأردن ، قد جاءوا هم أيضًا بغية التطوع في صفوف المقاومة الشعبية ، فأجبته وأنا أشير إلى أخوة سوريين ، أنني أراهم معنا منذ يوم ٥ يونيو ، ثم أخذ ذلك الأخ الليبي ينظر إلى ساعته من آن لآخر ، وكنت أفعل كذلك أيضًا ، حتى تعدت الساعة الثانية عشر ظهرًا ، فأخبرني أنه يسكن بشقة مفروشة بحي روكسي ، بمصر الجديدة ، ويسكن معه ثلاثة من زملائه الليبيين ، وكانوا يأتون سويًا إلى الجامعة يوميًا حتى يئسوا ، فجاء وحده اليوم ، ثم عرض عليَّ أن أذهب معه إلى حيث يعيش هو وزملاؤه ، لكي أتعرف عليهم ، فوافقت ومضينا سويًا نقطع طريق شارع الخليفة المأمون ، إلى ميدان روكسي ، وكان الشارع مكتظًا بالناس الذين اصطفوا على الجانبين في انتظار مرور موكب الرئيس كما أذيع أنه سوف يلقي خطابًا في مجلس الأمة الذي كان مجتمعًا في انتظار قدوم الرئيس ، وشارع الخليفة المأمون هو الطريق الذي سوف يقطعه ، ويمر به ، وكان الناس يرددون في مجموعات نداءات لجمال أن يعود ، ولا أنسى مشهدًا لمجموعة من الراهبات قد وقفن أمام الكلية الفنية العسكرية في زيهن الأبيض الملائكي ، وأخذن يرددن نداءً إلى السيد أنور السادات ، رئيس مجلس الأمة : اسمع ، اسمع يا سادات ، إحنا اخترنا جمال بالذات .

وبالقرب من المستشفى العسكري بكوبري القبة ، أخذ الناس يصيحون ويهللون ، فوقفنا سويًا نستطلع الأمر ، وعلمنا أن رئيس مجلس الأمة ، قد أعلن اعتذار الرئيس عن الحضور نظرًا لازدحام الناس الشديد في الشوارع ، وأنه نزولًا عن رغبة الشعب فقد عدل عن قرار التنحي ، فحمدنا الله ، وواصلنا المسير .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ألتقي بها مع أحد الأخوة العرب الدارسين بالجامعة ، وإن كانت المرة الأولى التي أتعرف فيها على طلبة من ليبيا الدارسين بكلية الآداب ، حيث كان يدرس هو وزملاؤه ، ووصلنا سويًا إلى عمارة بمنطقة روكسي بحي مصر الجديدة ، وفي الدور الثاني فتح باب شقته ، ودخلنا سويًا ، وكان بالباب أحد زملائه ، الذي عرَّفني به ، ثم اتجهنا سويًا إلى غرفة الاستقبال ، وكان بها اثنان أيضًا يستمعان إلى الراديو ، فعرفني بهما ، وكان أحدهما قد احمرت عيناه ، وتورمت جفونه من كثرة البكاء فخرج من الحجرة وتركنا ، وجلسنا سويًا نتجاذب أطراف الحديث وفي الحقيقة ، لم يكن سوى صمت ووجوم .

## الليبيون والقاعدة الأمريكية :

عاد صاحبنا بعد قليل يحمل صينية الشاي ، فوضعها ، وقدم لي كوبًا فشكرته ، وجلس أمامي ، وكنت أنظر إلى الأرض ، وأفكر فيما حدث ، وفجأة انفجر في البكاء ، وقد خبأ وجهه بكفيه ، ثم توجه إلى الأخ عبد الله الذي رافقني ، وتعرفت عليه أولًا وسألني إن كنت قد بكيت ، فلم أرفع بصري عن الأرض ، وهززت رأسي بالنفي ، وإن كانت العيون لم تذرف دمعًا ، فقد كنت أشعر أن القلب يذرف دمًا ، ولم لا وأنا المصري ، ومصر قلب الأمة العربية ، وكأن الأخوة الليبيين كانوا يشعرون بوخز الضمير ، أو التقصير ، فقد أخبرني : أنهم حينما علموا أن الطائرات التي هاجمت المطارات المصرية ، والمواقع العسكرية ، قد جاءت من الغرب أي من ليبيا ، وبالتحديد ، فقد أقلعت من قاعدة «هوبلس» الأمريكية بطرابلس ، قاموا بالاتصال بالحكومة المصرية ، وطلبوا منها أن تمدهم بالسلاح والمتفجرات لكي يقوموا بنسف القاعدة الأمريكية ببلدهم ، ولكن الحكومة المصرية قد رفضت ، ومن وقتها وهم في حزن لا يدرون ماذا يفعلون ، وكان يتحدث منكسًا الرأس ، وهو ينظر إلى الأرض ، وكأنه يشعر بالخزي والعار ، ويعتقد أن الليبيين هم المسؤولون عن هزيمة مصر ، ثم أردف في إصرار أنهم لن يستسلموا ، وأنهم لابد أن يحصلوا على المتفجرات والسلاح من أي جهة ، ولابد أن يقوموا بالانتقام ، ثم أضاف أحد الزملاء : أن القضية ليست قضية مصر وحدها . إنما هي قضية العرب جميعًا ، ولابد أن يشترك العرب جميعًا من أجل تحرير الأرض العربية . وأخذت أستمع إليهم وأنظر إلى زي التربية العسكرية الذي أرتديه منذ يوم ٥ يونيو وم أفعل شيئًا ، وكأني ارتديته للنزهة ، فعرضت عليهم أن أشترك معهم في نسف القاعدة الأمريكية بطرابلس ، والتي أغارت منها الطائرات الأمريكية على مطاراتنا ومواقعنا العسكرية ، وإذا كانت الحكومة المصرية قد رفضت أن تمدهم بالمتفجرات اليوم ، فسوف توافق في الغد ، وإذا لم توافق ، فسوف نحصل عليها بأي وسيلة ، ومن أي جهة ، مثلما فعلت الشعوب التي حررت أراضيها من الاحتلال ، وطهرتها من القواعد العسكرية الأجنبية ، فعرضت عليهم أن أنضم إليهم ، وأن أشترك معهم في نسف القاعدة الأمريكية ، فرحبوا ووافقوا على الفور ، ولما سألتهم عن العدد اللازم للقيام بهذه المهمة وأخبرتهم أن عددنا لا يكفي للقيام بهذه العملية ، أخبروني أن العدد لا يشغلهم ، فهم في أيام قليلة يمكنهم أن يجمعوا عشرات من الشباب الليبي ، وربما المئات ، وأن هذا أمرًا لا يشغلهم ، وأن ما يشغلهم هو الحصول على

السلاح والمتفجرات أولًا ، فوعدتهم أنني سوف أسعى من جانبي في هذا الأمر ، وسوف أسعى أيضًا في البحث عمن يريد من الزملاء الاشتراك في هذه العملية القومية ، وأن علينا أيضًا أن نفكر في عمليات أخرى في الوطن العربي ، نشعر من خلالها باسترداد الكرامة العربية ، ولابد أن نتحرك كشعب عربي واحد بعيدًا عن الحكومات ، وأن نجعلها حربًا قومية ضد إسرائيل ، وضد كل من يساعدها ، ويساندها ، ووعدتهم على أن نلتقي بعد ثلاثة أيام ، لكي أقف على ما وصلوا إليه ، وأخبرهم بما جد .

وفي الطريق إلى البيت ، بعد العصر بقليل ، كانت الشوارع خالية من المارة ، وقد خيم على القاهرة التي لا تنام السكون ، والتفت بليل مبكر ، وقد أخذت أفكر فيما دار بيني وبين الأخوة الليبيين ، وقد شعرت بشيء من الأمل أن وجدت طريقًا لاسترداد الكرامة ، فلم يعد للحياة معنى في ظل الهزيمة ، فقد عشت أفخر بأني مصري ، أما الآن فلم يعد في الإمكان أن أرفع رأسي ، وأخذت أستعرض في ذهني ، وأبحث عن الأصدقاء الذين يصلحوا للانضمام لهذه المجموعة ، وكيف الحصول على الأسلحة والمتفجرات اللازمة ، وقد وجدت في الانشغال بهذه العملية تسرية وأمل في الثأر واسترداد الكرامة ، وأن مصر لن تعيش المحنة وحدها ، فهي محنة العروبة كلها ، من المغرب العربي حتى العراق ، ومن سوريا حتى السودان ، ولن يستكين الشعب العربي حتى يأخذ بالثأر وتسترد العروبة كرامتها ، وما زال بيننا عبد الناصر ، ولن نتركه يستكين ، مهما كانت التضحيات ، وخلال الأيام الثلاثة التالية أخذت أتنقل بين الأصدقاء ، ولم أجد خلال تلك الأيام غير اثنين من الأصدقاء الذين التمست فيهم الثقة والإقدام والتضحية ، والرغبة ، والاشتراك في عمل نشعر من خلاله بالثأر ، واسترداد الكرامة ، فقد بدأنا نشعر بالضياع ، وكلما استمعنا للأخبار ، أو السماع لقصص العائدين سيرًا على الأقدام من سيناء ، وهم يقصون ما رأوا ، وما حدث ازداد الغم والشعور بالضياع ، ولم يعد للحياة معنى ، وقد ركزت على انضمام أعضاء ، ولم أطرق باب الحصول على متفجرات ، وسلاح ، لما رأيت فيه من الصعوبة ، ومهما كانت صعوبته ، فالرجال أولًا ، وإذا توفر الرجال ، فهم يستطيعون أن يوفروا كل شيء ، ويزللوا كل صعب .

وفي الموعد المحدد بيننا ، ذهبت إلى الأخوة الليبيين ، وهناك قابلني البواب ، وسألني عن وجهتي قبل أن أصعد السلم فأخبرته ، فأخبرني على الفور أنهم قد سافروا ليلة أمس فأصبت بشيء من الدهشة أو الذهول ، لا أتذكر بالضبط ، ولكني أتذكر جيدًا أن وقفت أمام العمارة وقتًا ليس بالقليل ، وكأن تفكيري قد توقف ، ثم أخذت أضرب أخماسًا في أسداس ، فقد

أخبروني ، أنهم يذهبون إلى ليبيا سنويًا في إجازة الصيف لقضائها بين أهليهم ، ولكنهم هذا العام لن يسافروا إلا بعد أن يحلوا مشكلة الحصول على المتفجرات اللازمة لتنفيذ العملية ، وأنهم لن ييئسوا ، فسوف يكررون الاتصال بالحكومة ، حتى وإن وصل الأمر لمقابلة الرئيس جمال ، وهل تم ذلك في يومين ، وحل المشكل ، أم رجعوا عن العملية ؟! ولم أكن أعرف عنوانهم في ليبيا ، كما أنهم أيضًا لا يعرفون لي عنوان ، فقد نسينا لما كنا سويًا أن نتبادل العناوين ولم يخرجني من حيرتي سوى بواب العمارة الذي أبصرته يقف بالباب ، وأخذت أسير في الشوارع دون وجهة محددة لمدة لا تقل عن ساعتين ، حتى تذكرت أن أحد الأخوة الذين طلبوا الانضمام إلى المجموعة العربية الفدائية ، في انتظار عودتي ، فذهبت على الفور إليه ، ولما أخبرته بما حدث ، تغير لون وجهه ، وشعرت أنه قد صُدم ، إلا أننا جلسنا سويًا نتناقش طوال الليل ، ونستمع إلى الأخبار ، حتى أذان الفجر .

# الفصل الثاني

## حركة ٢٤ يناير

مهما حكيت ، فلا أستطيع أن أصف ما كنت أشعر به من ذل ومهانة ، وانكسار ، وفقدان للكرامة ، وإحساس بالضياع ، ولا أعتقد أن هذا كان إحساسي وحدي ، إنما كان شعور كل مصري حر ، يعتز بمصريته ، وعروبته ، ويفخر بالانتماء لمصر ، وأخذت أبحث عن عمل مع أصدقائي وزملاء الدراسة ، نسترد فيه كرامتنا ، وكان شغلنا الشاغل أثناء الإجازة الصيفية ، هو البحث عن الأسباب الحقيقية للهزيمة ، وحجمها ، بعيدًا عن أجهزة الإعلام المملوكة للدولة ، سواء كانت مقروءة أو مرئية أو مسموعة ، بعد أن سقطت في مزبلة الكذب ، وافتضح زيفها ، وسقطت عنها الثقة ، وضاعت مع فقدان الثقة في نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، هزيمة نكراء ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ ، فكيف تهزم دولة تعدادها ٢٤ مليون نسمة أمام دولة لا يزيد تعدادها عن ٢,٦ مليون نسمة ، فهكذا كان تعداد مصر وقتها ، وتعداد إسرائيل .

ولم تحارب مصر وحدها إسرائيل ، بل قد اشترك معها في ذات الوقت كل من الأردن وسوريا ، أي أن تعداد سكان الدول التي حاربت إسرائيل لا يقل عن ٣٠ مليون نسمة ، حتى أنه قد خرج علينا من المصريين من يعلن بإعجابه بدولة إسرائيل ، كما اهتزت الثقة أيضًا في عبد الناصر ، وقراراته ، وحدود زعامته ، وفي قدرات الجيوش العربية جميعًا ، فقد تبين أنه لم تهاجمنا طائرات من جهة الغرب ، أي من ليبيا ، كما ادعى عبد الناصر ، في تبرير الهزيمة ، كما أننا لم نسقط طائرة واحدة للعدو ، كما خرجت علينا بيانات القيادة العامة للقوات المسلحة ، التي كان يذيعها أولًا بأول الأستاذ أحمد سعيد مدير إذاعة صوت العرب ، فقد دُمر سلاحنا الجوي على الأرض ، كما هي العادة ، وكما حدث من قبل في معركة السويس ، أو العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ على مصر .

وقد أخذ يعود إلينا الجنود الفارين من سيناء التي حولها العدو إلى جحيم ، وعاد أولئك الفارين ، المولين دبرهم ، سيرًا على الأقدام من عمق سيناء إلى الضفة الشرقية للقناة ، التي عبروها ، عبر معديات ، وقد عانوا من الجوع والعطش ، وقد تورمت أرجلهم ، ومنهم من

مات في الطريق ، أولئك الذين نجوا من حصد الطائرات الإسرائيلية ، ودبابات العدو ، وبالطبع كانوا في أسوأ حالة صحية ، وأخبرونا عن الأهوال والمجازر التي تعرض لها جنود مصر في سيناء ، وأنهم لم يحاربوا ، وأنه لم تحدث معركة واحدة بين الجيش المصري والعدو ، وأنه بمجرد الهجمة الأولى لطائرات العدو على قواتنا ، والتي هاجمتنا من مطارات إسرائيل ، ولم تأت من الغرب ، قد تم للعدو تدمير محطات الاتصال بين قيادة الجيش في سيناء ، والقيادة العامة للقوات المسلحة بالقاهرة ، وقد فقدت القيادة العامة الاتصال بقيادات الجيش في سيناء ، وترك القواد مواقعهم وفروا هاربين ، وتركوا الجنود وراءهم وصغار الضباط ، وقودًا لنار حامية ، ومنهم من نجا ومنهم من حصدته طائرات العدو ، ودباباته .

وكنت مع الذين رأوا أنه من المحال أن نكون مسلمين ، فالمسلمون لا يفرون أمام عدوهم ، ولا يولون الأدبار ، إلا متحيزين إلى فئة أو متحرفين لقتال ، ومهما هزموا ، فلم تقع لهم أو تحيط بهم هزيمة مثلما وقع في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، فلابد أن يكون قد أصاب الخلل والانحراف إيمانهم ، وبدأت رحلة البحث عن الإسلام ، ولم أعد أثق في الإسلام المنتشر والشائع في هذه الأيام ، وكنت أيضًا مع الذين فقدوا الثقة في علماء السلطة المنتشرين في البلاد ، والدعاة والهداة ، والذين هم أحق بمن يأخذ بأيديهم إلى دين الله الحق ، ولم يشغلني البحث عن الإسلام ، عن البحث عن حقيقة الهزيمة ، والبحث عن عمل أشعر وأرى من خلاله بالثأر واسترداد الكرامة ، ولم يكن هذا هو حال المصريين داخل وطنهم وحسب ، بل كان كذلك أيضًا هو حال المصريين في الخارج ، فهكذا كان يخبرنا كل مصري يعود إلينا من الخارج ، ويحدثنا عن نظرة الشعوب إلى المصريين التي تغيرت بعد هزيمة ٥ يونيو إلى تهكم وسخرية ، بعد أن كانت إكبارًا واحترامًا .

وبرغم ذلك كله ، فلم يعرف المصري الاستسلام مهما مرت به من محن ومن صعاب ، وللمصريين أسلحة خاصة يتغلبون بها على كل محنة ، وكل أمر صعب ، أو خطب جلل ، فسرعان ما تتفتح ديار المصريين ، وأبوابهم لكل المصريين ، ويتشجعون على الصبر بتجمعهم ، والذي لا يخلو من نكات ساخرة ، وطرائف ، يفرجون عن أنفسهم ، ويتقوون بها على مصائب الزمن ، فانتشرت بين الناس ، النكات والطرف ، على نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وعلى قواد الهزيمة ، وأبطالها ، وكعادتنا ، نتبادل النكات ، والقفشات ، ونضحك ، ثم نختم ضحكاتنا بقولنا شر البلية ما يضحك ، ويبدو أن كل ما انتشر بين الناس من نكات حول الهزيمة ، قد وصل إلى سمع الرئيس ، فقد خرج علينا في خطابه المعتاد في شهر يوليو من

كل عام في احتفالات الثورة ، فحذر الناس في خطابه من التمادي في النكات أكثر من ذلك ، ثم استدر العطف ، وهو يعلن أنه قد خسر في هذه المعركة أعز أصدقائه «يقصد المشير عامر» ، ثم أضاف أيضًا أن هذه الحرب هي من المعارك النادرة في التاريخ ، فقد استشهد فيها عشرة آلاف ضابط ، وثلاثين ألف جندي ، أي بنسبة ضابط لكل ثلاثة جنود ، وهي نسبة عالية جدًا في تاريخ الحروب ، واستدل على ذلك ببسالة الضابط المصري ، وشجاعة الجندي ، والحقيقة أن أعداد الشهداء كانت أعلى بكثير ، ولم يحارب لا الضابط ، ولا الجندي المصري ، ولم يتسن لهم قتالًا ، ولم يُخطط ويُجهز لقتال ، بل سيقوا جميعًا للذبح المهين بسيناء ، ولم يكن الأمر بالأمر الهين أو المقبول ، الذي يمكن التسامح الشعبي معه .

**أحداث بعد الهزيمة :**

وبعد عدول الرئيس عن التنحي ، وقبوله البقاء في منصبه ، قام السيد أنور السادات رئيس مجلس الأمة بجمع استقالات أعضاء مجلس قيادة الثورة ، واستقالات الوزراء ، وقد بدأ بنفسه ، وجمع الاستقالات ووضعها بين يدي الرئيس ، حتى يكون في حل من الأمر ، ولكي يعيد ترتيب أمور البلاد ، وشئون العباد من جديد ، بعيدًا عن الحرج والمجاملات ، فيكون مجمل الأمر في يده ، وحتى يعيد بناء القوات المسلحة ، وينظم هياكل الدولة بما يناسب المرحلة التي نعيشها بعد الهزيمة ، فشكل الرئيس وزارة رأسها بنفسه ، وأقال المشير عامر ، وكثير من ضباط الجيش والقادة ، وعين الفريق أول محمد فوزي قائدًا عامًا للقوات المسلحة ، الفريق عبد المنعم رياض رئيسًا لهيئة أركان حرب القوات المسلحة ، كما ألقى القبض على أربعة وخمسين ضابطًا من القواد ، وكبار القادة ، وأحيلوا إلى محكمة عسكرية بتهمة المسئولية عما وقع من هزيمة نكراء ، وعن الذبح الذي وقع للجيش المصري بسيناء ، واختفى المشير عامر من مسرح السياسة ، وبدأت الشائعات تنتشر حول المشير وكبار الضباط الذين أرادوا أن يلصقوا إليهم المسئولية عن الهزيمة ، واستطاعت أبواق الإعلام المملوكة لنظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وأذيال السلطة من أعضاء الاتحاد الاشتراكي العربي ، أن تؤكد تلك الشائعات ، وتعمل على نشرها بين الناس .

وكان لنظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وحزبه الأوحد الحاكم وأجهزة إعلامه مقدرة فائقة على تزييف الحقائق ، وإلباس الباطل وتزيينه في زي الحق ، وقذف الحق بالباطل ، ولم يكن الشعب المصري غبيًا كما يظن حكامه ، وكما يتعاملون معه ، وهو صاحب المثل الشهير : الكذب خيبة ، فقد كان على رأس القادة الذين تم إلقاء القبض عليهم وإحالتهم إلى

المحكمة العسكرية ، الفريق صدقي محمود قائد القوات الجوية ، والفريق سليمان عزت قائد القوات البحرية ، واللواء عبد الرحيم الغول ، قائد القوات البرية بسيناء .

وبرغم دخول تلك الأكاذيب التي لفقوها ، وبرروا بها الهزيمة على بسطاء الناس ، والذين كان حبهم وثقتهم في عبد الناصر ، تتعدى كل حد ، إلا أن الكل أخذ يتساءل : أين المشير عامر ، ولماذا لم يقدم للمحاكمة ؟ والحقيقة أن الوقوف على الحقيقة في أي موقف سياسي في حينه ، أمر صعب للغاية ، وربما يكون من المحال بمكان الوقوف على الحقائق في حينها ، ومن السهل في أي موقف سياسي ، أن تفترض الفرض ، وتدلل على صحته ، وتفترض عكسه ، وتدلل على صحته أيضًا ، فالسياسة تقوم على الكذب والغش ، والمكر والخديعة ، والغدر والخيانة ، ولا شرف في السياسة ، وباختصار شديد : فالسياسي الذي يصدق فهو في عرف السياسة ، ليس بسياسي ، وما هي إلا المفاهيم الأساسية للسياسة العالمية ، ومن الصعوبة أن يوفق السياسي بين تعامله مع السياسة العالمية ، وأن يكون في نفس الوقت صادقًا مع شعبه في سياسته الداخلية ، فالأمر إذن يلزم أن يكون السياسي ذا شخصيتين ، شخصية كاذبة يتعامل بها مع السياسة العالمية ، وشخصية أخرى صادقة يتعامل بها مع شعبه .

**حقائق عن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ :**

بعد أن فقدنا الثقة في أجهزة إعلام الحكومة الكاذبة ، والخادعة ، والغشاشة ، كان لابد أن نبحث عن الحقيقة بعيدًا عن أي مصدر يرتبط بنظام الحكم القائم ، فكان مصدرنا الأول في هذا الصدد ، هم الضباط ، وضباط الصف والجنود ، الذين كُتب لهم النجاة ، وعادوا سالمين ، وإن كان أغلبهم لم يمكثوا في بيوتهم كثيرًا ، وعادوا إلى وحداتهم في تشكيلاتها الجديدة ، أما الضباط الذين أحيلوا إلى التقاعد لمجرد شبهة حبهم للمشير عامر ، وقد كان رجلًا محبوبًا بين رجاله ، فقد كانوا كثيرين ، وكان لابد أن نبحث عنهم ، ونستمع إليهم ، في بحثنا عن الحقيقة ، ولابد من تمحيص كلامهم ، ولا نأخذه على علاته ، وأما المصدر الثاني في بحثنا فهو الإذاعات الأجنبية التي تتميز بالصدق ، حتى وإن كانت معادية ، وعلى كل فلا نقيم رأيًا ، ولا نخرج بنتيجة إلا إذا كانت قائمة على وقائع ثابتة ، يتفق عليها الكل ، ولا يجادل فيها أحد .

ومن الوقائع الثابتة ، أن الرئيس جمال عبد الناصر ، بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة ، قد أمر المشير عامر القائد العام للقوات المسلحة بحشد القوات في سيناء ، والاستعداد للهجوم بعد أن نقلت المخابرات السوفيتية معلومات ، مفاداها أن إسرائيل قد حشدت قوات على

الحدود السورية ، وأنها تنوي مهاجمتها ، وعلى الفور طلب الرئيس من الأمم المتحدة أن تسحب قوات الطوارئ الدولية ، من الأراضي المصرية .

وفي أول شهر يونيو ، قد جاءت إليه تعليمات من موسكو ، أن لا يبدأ بالضربة الأولى ، حتى يستطع السوفيت أن يقفوا بجانبه في الحرب ، وقد أبلغه السفير السوفيتي في القاهرة بذلك ، فعقد الرئيس اجتماعًا في مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة برئاسته وبحضور المشير ورئيس أركان حرب القوات المسلحة ، وقادة القوات الجوية والبرية والبحرية ، وكبار قادة الجيش ، وأبلغهم بتعليمات موسكو ، وطلب منهم ألا يبدأوا بالضربة الأولى ، وأن ينتظروا حتى يتلقوا الضربة الأولى من العدو ، وفي عرف العسكرية ، أن الذي يبدأ بالضربة الأولى فالنصر حليفه بنسبة تتراوح من (٧٠ – ٨٠٪) ، وقد كان الجيش قد أخذ مواقعه وتشكيلاته للهجوم ، وكان من العسير بل ومن المحال أن يتحول الجيش في خلال ثمانية وأربعين ساعة من تشكيلات الهجوم ، إلى تشكيلات للدفاع ، وهذه مبادئ عسكرية أولية ، وأقرب إلى البدهيات ، ولا يعرف أحد كيف قبل الرئيس ذلك ، وحينما سأل الفريق صدقي محمود قائد القوات الجوية عن احتمال خسائره ، إذا تلقى الضربة الأولى ، فأجاب : أن الخسائر في السلاح الجوي ، لن تقل عن ٩٠٪ وحينما سأل اللواء عبد الرحيم الغول قائد القوات البرية بسيناء ، أجاب أيضًا أن الخسائر في القوات البرية لن تقل عن ٨٠٪ ، وكذلك أجاب الفريق سليمان عزت قائد القوات البحرية ، أجاب أيضًا أن الخسائر في القوات البحرية لن تقل عن ٨٠٪ ، ومع ذلك قد أمرهم الرئيس أن يتلقوا الضربة الأولى ، ويقاوموا بما لديهم ، حتى يأتي المدد من السوفيت .

وفي مساء الأحد الرابع من يونيو اتصل الرئيس تليفونيًا بالمشير عامر ، وأمره ألا يجلس في القاهرة ، ويترك قواته في سيناء ، وأنه لابد أن يكون بين قواته من التاسعة صباحًا ، ونفذ المشير أمر القائد الأعلى للقوات المسلحة ، وبالفعل كانت طائرة المشير في الجو ، في التاسعة من ٥ يونيو ، وكانت المدفعية المضادة للطائرات مقيدة ، أي لا يجب أن تطلق طلقة واحدة ، طالما أن طائرة المشير في الجو .

فشنت الطائرات الإسرائيلية هجومًا شاملًا ، فتلقى الجيش الضربة الأولى ، كما أمر الرئيس ، أو كما أمر السوفيت ، وكانت الضربة قاضية ، وانتهى الأمر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ومهما كشفت الأسباب في المواقف السياسية والمصيرية الكبيرة ، فلابد أن تظل هناك أسباب خفية وراء الأسباب ، وربما لا تكشف إلا بعد وقوعها بعشرات السنين ، وربما تظل الأسباب الحقيقية مدفونة في صدور الساسة ، إلى

يوم يبعثون ، وعلى كل إذا كنا بدأنا بالقتال ، أو بالضربة الأولى ، فلا شك أننا كنا سوف نهزم ، فلم تكن أمريكا تسمح بأي حال من الأحوال ، أن تُهزم إسرائيل ، ولكن مهما كان سوف يقع بنا في النهاية ، فلن تكون بأي حال من الأحوال مثل الهزيمة الساحقة التي وقعت في ٥ يونيو حينما تلقينا الضربة الأولى ، التي كانت قاتلة ، كان الجيش سوف يحارب فيكسب في معارك ، ويخسر في آخر ، وهو أمر طبيعي ، وهذا حال الحرب ، وأما أن يُكتف الجيش ، ويُشل بأمر من القائد الأعلى ، ومن الأصدقاء المخلصين ، فهذا أمر لا يقبله عقل .

**أمـن الـعـدل أن تطلق الأ  سـد منهم وأن تُـقـيـد أُسـد**

وعلى كل ، فمهما كانت الأسباب ، وأيًا كانت وأيًا كان المتسبب ، والمسؤول عن الهزيمة ، فلابد من تحرير الأرض المغتصبة ، والثأر للشهداء ، واسترداد الكرامة مهما كان الثمن .

**كبش الفداء ، ولغز الهزيمة :**

أخذت الروائح الكريهة عن صراعات قديمة بين عبد الناصر ، وعامر تنتشر ، وهي صراعات قديمة منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ، وقد يكون من قبلها ، وأخذت الشائعات الخبيثة ، والتجريح بالمشير عامر وإهماله ، هو وقادة الجيش ، وعدم الاستعداد لتلقي الضربة الأولى واتهامه أنه هو المسؤول الأول عن الهزيمة وحسب ، بل الأوحد .

وقد جندت وسائل الإعلام المملوكة للاتحاد الاشتراكي ، وخاصة التنظيم الطليعي ، يشوهون صورة المشير وسيرته ، واختلاق القصص حوله وفساد أخلاقه ، وافتراء الأكاذيب عليه ، وقد اختفى المشير تمامًا من المسرح السياسي والعسكري ، أو أُخفي ، وكتم صوته ، وقد استطاعت أجهزة الإعلام الكاذبة ، واتحاد المرجفين في المدينة ، أن يقنعوا الناس أنه المسؤول الوحيد عن الهزيمة بسلوكه البطال ، وأخلاقياته الفاسدة ، وذات مرة كنت في زيارة لأحد الأصدقاء وكان معي صديق ثالث ، وكنا نعلم أن أخاه ضابطًا بمكتب المشير ، وقد أحيل إلى التقاعد من بين الضباط الكثيرين المقربين إلى المشير ، والذين أُحيلوا إلى التقاعد ، وبالطبع فقد أثير موضوع الهزيمة ، والمشير عامر ، وكانا أصدقائي الاثنين متحاملين على المشير ، فسألته عن تقصيره في ترك الطائرات مكشوفة على الأرض ، ولم يستفد من تجربة حرب السويس ، التي دمرت فيها الطائرات وهي في مطاراتها جاثمة فوق الأرض ، فأجاب في هدوء ، وأقسم مرارًا أن المشير قد تقدم أكثر من مرة لاعتماد ميزانية لبناء «دشم» أو مخابئ للطائرات في ميزانية القوات المسلحة التي تُقدم إلى رئيس الجمهورية ، ولا يطلع عليها غيره ، وكان الرئيس يشطب هذا البند لعدم سماح الميزانية ، ولا يعتمده ، ولما سألته ذلك السؤال الذي كان شائعًا بين

الناس ، فلماذا لم يهرب الطائرات إلى السودان ؟ فأجب الرجل بهدوء : أن الاتصال بالدول ، هو شأن الرؤساء ، ولا يقوم قادة القوات المسلحة في البلدين بالتشاور إلا بعد تشاور بين الرؤساء ، واتفاقهم ، واستطرد الرجل قائلًا : أن مطارات السودان ، لا تكفي طائراتنا ، وإذا وافق السودان على استعمال مطاراته ، فمعنى ذلك أنه قد تدخل معنا في الحرب ضد إسرائيل ، وفي هذا الوقت ما كان صعبًا على إسرائيل تدمير الطائرات المصرية ، والسودانية أيضًا ، وهي جاثمة على الأرض ، وإذا كانت غير قادرة على ذلك فسوف تنطلق الطائرات الأمريكية من أقرب قاعدة جوية أمريكية ، أو من حاملة الطائرات الأمريكية وتقوم بالمهمة ، وكنت أود أن أتحدث إليه في موضوع القاعدة الأمريكية بطرابلس بليبيا ، والأخوة الليبيين ، والحصول على المتفجرات ، ولكني لم أجد الفرصة مواتية ، وتركنا الرجل بعد أن دعانا أن نكرر زيارتنا ، ووجدت أن صاحباي قد اقتنعوا بكلام الرجل ، وخف تحاملهم على المشير عامر .

وبعد هذه المقابلة بعدة أيام ، وأتذكر أنها كانت في أواخر شهر يوليو ١٩٦٧ ، قد تم القبض على مجموعة من الضباط الموالين للمشير عامر ، بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم ، وتم تقديمهم ، أو إحالتهم إلى محكمة عسكرية ، قد تشكلت خصوصًا لمحاكمتهم برئاسة السيد حسين الشافعي ، عضو مجلس قيادة الثورة ، ونائب رئيس الجمهورية ، وبعد أيام قليلة ، وبالتحديد في يوم ١٤ أغسطس من عام ١٩٦٧ ، افتتحت نشرة أخبار الثامنة والنصف التي يذيعها راديو القاهرة ، بنبأ وفاة المشير عبد الحكيم عامر ، ومات الرجل رحمه الله دون أن يقدم إلى محاكمة ، بعد أن كالوا له التهم ، ولم يتسن له الدفاع عن نفسه ، وقد كتموا صوته ، فلم يسمع له صوتًا ، منذ ٥ يونيو ٦٧ ، ولم يكتفوا بتشويه سيرة الرجل في حياته ، بل خرج علينا تقرير الطبيب الشرعي في اليوم التالي ، ليشوه صورة الرجل ميتًا ، فقد قالوا : أنه قد مات منتحرًا بعادة «السيانيد» ، الذي كان دائمًا محتفظًا بها بلصقها فوق العانة ، وهذا الخبر لم يصدقه إلا القليل ، فلم يعد الزور والبهتان ينطلي على الشعب ، ولو أنهم قالوا أنه انتحر مثل أي قائد انهزم في معركة ، وأراد أن يتخلص من حياته ، فأطلق رصاصة على رأسه ، فربما كنا نصدق ، ومن الوقائع الثابتة التي لا جدال فيها ، أن المشير عامر رحمه الله قد ذهب إلى السفارة السوفيتية مرتين ، أو إحداهما بمكتب المشير ، والأخرى بمكتب السفير بالسفارة ، وقد رفع عليه الجزمة مرتين ، وربما يكون قد ضربه ، وإن كنت لا أستطيع أن أجزم بالضرب ، وباختصار شديد ، فقد كان الرئيس جمال عبد الناصر في مأزق صعب للغاية ، فلو أعلن على الشعب الأسباب الحقيقية للهزيمة ، لأغضب السوفيت ، وقد كانوا هم المصدر الوحيد للسلاح ومعهم الكتلة

الشرقية ، وقد فقد الجيش سلاحه في ٥ يونيو ، ولابد من إعادة التسليح ، فكان لابد أن يكون في هذه العملية السياسية كبش فداء ، فكان المشير رحمه الله ، وليس هذا بغريب على السياسة التي لا تعرف الشرف ، والحقيقة أنه لا يمكن لدولة أن تتمتع بحريتها كاملة ، إلا إذا تحقق لها أمرين :

أن تنتج قوتها الذي يكفيها .

وأن تصنع سلاحها الذي يكفي لحماية أرضها ، فوق أرضها ، أما إذا مدت يديها لكي تحصل على قوتها ، أو السلاح فحينئذٍ لابد أن تدفع الثمن من حريتها .

**مؤتمر القمة العربي بالخرطوم :**

سافر الرئيس جمال عبد الناصر مساء يوم ١٤ أغسطس لحضور مؤتمر القمة العربية التي دعت إليه الجامعة العربية ، لمساندة دول المواجهة التي أضيرت في حرب يونيو ، وهي مصر ، وسوريا ، والأردن ، واعتماد المساعدات الممكنة لها وكان قد صدر عن الأمم المتحدة القرار رقم (٢٤٢) ، الذي يقضي بانسحاب القوات الإسرائيلية إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، ولكن إسرائيل قد رفضت تنفيذه ، واشترطت المفاوضات بينها ، وبين العرب أولًا .

وخرج مؤتمر القمة العربية بلائته المشهورة ، وهي لا اعتراف بإسرائيل ، لا مفاوضات مع إسرائيل ، لا تفريط في حقوق شعب فلسطين .

كما تم الصلح بين الملك فيصل عاهل السعودية ، والرئيس جمال عبد الناصر ، وقد اتفقا على أن تقوم مصر بسحب قواتها من اليمن ، وتتعهد المملكة العربية السعودية بعدم الاعتداء على ثورة اليمن ، وقد استقبل الشعب السوداني الرئيس عبد الناصر بحفاوة بالغة ، وبحب ليس له مثيل ، فقد حملوا سيارته على الأعناق ، في شوارع الخرطوم ، واستطاع عبد الناصر بأكذوبة أن الأمريكان والإنجليز قد ساعدوا إسرائيل في حرب ٥ يونيو أن يجمع العرب من جديد ، واستمر في مهاجمته للاستعمار ، ومن وراء إسرائيل ، والإمبريالية – أي الاستعمار الحديث ، وهو الاستعمار الاقتصادي ، والسيطرة على الشعوب دون احتلال عسكري – ولم تتأثر شعبيته القومية في الوطن العربي ، وإن كانت قد تأثرت شعبيته واهتزت في مصر .

لم يمر شهر على الهزيمة ، إلا وقد اكتشفت الصفوة من الشعب حجمها الحقيقي ، والذي لم يصب مصر وحدها ، بل أصابت الأمة العربية كلها ، وباتت واضحة أسبابها الحقيقية ، لذي حاول عبد الناصر حجبها عن الشعب العربي ، وساعده في ذلك أجهزة الإعلام المتمرسة في الكذب ، حتى صارت حاذقة فنونه ، ومع ذلك كله ، فلم يكن من السهل

التفريط في عبد الناصر ، برغم من أنه قد تسبب في هزيمة ، ليس لها مثيل في التاريخ ، فقد استطاعت دولة إسرائيل الصغيرة ، والتي عمرها لا يتعدى العشرين عامًا ، وتعدادها الذي لا يزيد عن ٢,٦ مليون نسمة ، أن تقوم بضربات خاطفة متلاحقة ، وقد استطاعت أن تهزم ثلاث دول عربية ، وهي مصر وسوريا والأردن ، وأن تحتل سيناء المصرية ، والجولان السورية ، وسيناء المصرية تمثل سدس مساحة أرض مصر ، وهي ليست البوابة الشرقية لمصر وحسب ، إنما هي غنية بالمعادن والبترول أيضًا ، كما أن هضبة الجولان السورية تمثل أهمية استراتيجية لسوريا ، فبعد أن احتلت إسرائيل هذه المرتفعات ، قد صارت دمشق تحت طائلة المدفعية الإسرائيلية وقد احتلت إسرائيل أيضًا الضفة الشرقية لنهر الأردن ، وهي جزء من الأراضي الفلسطينية ، التي ضمت إلى الأردن بعد حرب ١٩٤٨ ، وأصبحت تحت الحكم الهاشمي بالأردن ، كما ضاع قطاع غزة أيضًا ، والذي كان تحت الإشراف المصري ، وبذلك أصبحت الأراضي الفلسطينية كلها في أيد الصهاينة ، وفوق ذلك كله الأعداد الهائلة للشهداء الذين سقطوا على أرض سيناء المصرية ، ومرتفعات الجولان السورية ، وفي الضفة الشرقية لنهر الأردن ، ويكفي هذا للتعبير عن مدى الإحساس بالذل والمهانة الذي لم يصب المصريين وحدهم ، بل قد أصاب أبناء العروبة جميعًا .

ومهما كان الحب لعبد الناصر ، فهو حب نابع أساسًا من حب مصر والانتماء للأمة العربية ، فهو الزعيم الناطق بوجدان الأمة العربية ، والمعبر عن آمالها ، وطموحاتها ، فهو الزعيم القوي الصلب ، صاحب القرارات الصعبة ، والتحديات والانتصارات ، فهو قائد الثورة ، وقد تم جلاء القوات الإنجليزية على يديه ، بعد احتلال دام سبعين عامًا ، وهو صاحب قرار تأميم قناة السويس الشهير ، الذي ترتب عليه العدوان الثلاثي ، الذي خرجنا معه منتصرين ، وأخذنا بعدها في إقامة السد العالي الذي خضنا المعركة من أجل بنائه ، ولم يكن لعبد الناصر دوره المصري وحسب ، بل تعداه إلى دور رائد ، فقد أصبح رائد القومية العربية ، وزعيم الوحدة العربية ، الذي نادى بها ، وعمل من أجلها ، وقد فجر كثيرًا من الثورات في العالم العربي ، من أجل الاستقلال ، ومن أجل حرية العرب وعزتهم وكرامتهم ، ولم يقف دوره عند العالم العربي ، بل تعداه ليشمل القارة السمراء كلها ، حتى اتخذته القارة الإفريقية أبًا روحيًا لها ، فقد كان عبد الناصر زعيمًا عالميًا ، ورمزًا من رموز الحرية والاستقلال ، وكان من العسير علينا خذلانه ، أو التفريط فيه .

**فكر الصفوة ومواجهة الهزيمة :**

إذا كان الكذب والغش من الأدوات الأساسية في السياسة ولا يمكن للسياسي الاستغناء عنهم ، وإذا كان للسياسيين طرق ومناهج في تسييس الشعوب ، فإن الصفوة من الأحرار والمخلصين من أهل الفكر والرأي لهم أيضًا طرق ومناهج في كشف الكذب والتزييف والزور والبهتان ، وكان لابد من كشف حقيقة الهزيمة وحجمها ، وأسبابها الحقيقية ، حتى يمكن مواجهتها بصدق ، المواجهة اللازمة والقائمة على تقييم حقيقي ، وكان الشعراء الذين ينطقون بوجدان الأمة ويعبرون عن أحلامها ، وأمانيها ، هم أسرع الناس الذين تحركوا لكشف الحقيقة للناس ، والتقيت في هذه الأيام بالشاعر الكبير الأستاذ أحمد فؤاد نجم ، في إحدى الندوات الثقافية المحدودة ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي التقيت به ، وقد ألقى علينا أول قصيدة كتبها بعد الهزيمة ، والتي يقول في مطلعها :

**الحمد لله .... صقفنا تحت بططنا يا محلى رجعة ضباطنا من خط النار**

كما أذكر منها أيضًا ما جاء فيها :

**حتقولي سينا ، وما سينا شي ما تدوشناشي**
**ما ستماية أتوبيس ماشي شايل أنفار**

كما أتى إلينا الأخوة العرب الدارسين ، من سوريا ولبنان وفلسطين بالقصائد التي كتبها الشعراء العرب عن الهزيمة ، والتي كنا ننقلها بخط اليد ونتناقلها بيننا بسرعة ، وفي السر ، وأذكر أيضًا أول قصيدة كتبها الشاعر السوري الكبير نزار قباني عن الهزيمة ، والتي جاء بها أحد الأخوة اللبنانيين ، وهي بعنوان : هوامش على دفتر النكسة والتي كان مطلعها يقول :

**أنعي لكم يا أصدقائي اللغة القديمة والكتب القديمة**
**أنعي لكم كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة ونفايات العهد الذي أدى بنا إلى الهزيمة**

وكما نشر الصفوة من أهل الرأي والفكر بين الناس حقيقة الهزيمة ، فقد انتشر أيضًا أعضاء الاتحاد الاشتراكي ، والتنظيم الطليعي التابع له ، ينشرون الأكاذيب والافتراءات حول المشير عامر بعد وفاته وقادة القوات المسلحة المعتقلين ، ويلصقون بهم المسئولية عن الهزيمة ، ويشيعون حولهم السخرية والنكات ، بأساليب غبية ووضعية ، كما أخذوا ينشرون الخوف بين الناس ، ويلهوهم ، ويبعدوا أنظارهم عن حجم الهزيمة ، وأسبابها الحقيقية ، فأشاعوا بين الناس أن اليهود قادمون إلى القاهرة ، وطلبوا من الناس البسطاء أن يجمعوا

الزجاجات الفارغة ويحضروها إلى المسئولين الاشتراكيين لكل حي ، حتى يملؤوها بالمواد السريعة الاشتعال ، وأن يستعدوا لمواجهة اليهود القادمين ، وسوف يوزعون عليهم قنابل «المولوتوف» بعد ملأ الزجاجات ، وحتى يصل السلاح الذي سوف يوزعونه على الشعب حتى يواجه اليهود القادمين ، وكان مصير تلك الزجاجات الفارغة بعد تجميعها ، هو بيعها لمصانع الزجاج ، كما كانت صفارات الإنذار تنطلق كذا مرة في اليوم الواحد ، وكان أعضاء الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي يشرفون على الالتزام بالقواعد التي تتبع أثناء ذلك ، ويراقبون إطفاء الأنوار ليلًا ، كلما انطلقت صفارات الإنذار ، وقامت المجالس المحلية ببناء سواتر من الطوب الأحمر أمام مداخل العمارات السكنية ، وأمام مداخل الشركات ، والبنوك ، والهيئات والمصالح الحكومية ، وذلك حتى يتخذها المدافعون عن تلك المنشآت سواتر يدافعون من خلفها ، كما قاموا ببناء الخنادق في الحدائق العامة والميادين ، الذي يجب على المارة ، أن يهرعوا إليها كلما سمعوا صفارات الإنذار ، وكان أعضاء التنظيم يشرفون على هذه المسرحيات ببراعة .

وما قدمنا إلا بعض حقائق هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وتبقى الحقيقة كاملة برمتها في ذمة التاريخ ، وأيًا كانت الحقيقة ، ومهما كانت الأسباب ، فلابد من تحرير الأرض المغتصبة ، والثأر ، واسترداد الكرامة .

**عودة إلى الدراسة :**

في شهر أكتوبر ١٩٦٧ ، بدأت الدراسة بالجامعة كالمعتاد ، والحقيقة أن الدراسة لم تعد تشغلني ، كما لم تعد تشغل الكثيرين من الزملاء ، فلم تعد للحياة معنى مع الإحساس بالذل والمهانة ، وتنكيس الرؤوس ، فذهبت إلى الكلية ، ولكني لم أستطع أن أستمر حتى آخر النهار ، فقد كنت ما زلت مشغولًا في البحث عن عمل وطني ، وقومي أشترك فيه ، وأشعر من خلاله باسترداد الكرامة ، فذهبت في وسط النهار مع أحد الزملاء للبحث عن الأخوة الليبيين ، ولكني لم أجدهم ، فظللت أعاود الكرة ، والبحث عنهم مرارًا ، حتى وجدت من بين طلبة كلية الآداب من يعرفهم ، وقد أخبرني أن الحكومة المصرية ألغت منحتهم الدراسية ، ورحلتهم إلى بلادهم ، وكم شعرت بخيبة الأمل ، ورجعت كاسفًا حزينًا ، ولكني لم أيأس ، فلابد من بحث عن طريق آخر ، وكنت أجلس في المحاضرة بنصف عقل فقط ، أما النصف الآخر فكان يدور فيه ما سمعته من الجنود وضباط الصف الذين عادوا من سيناء سيرًا على الأقدام ، وما عانوا ، وما رأوا من فظائع وأهوال ، وكيف ومتى الانتقام .

وفي خلال شهرين بعد الهزيمة استطاعت قواتنا المسلحة أن تحقق انتصارات على قوات العدو في معارك صغيرة ومحدودة ، ولكن كان لها دلائل كبيرة ، فقد ظهرت فيها شجاعة المقاتل المصري ، وبسالته ، ومهارة قياداته ، وشجاعتها ، حينما تواتيه الفرصة للقتال والحرب ، وحينما يتحرر من القيود ، وتكون لقيادته حرية اتخاذ القرار ، فكانت معركة رأس العش ، ومعركة جزيرة شدوان ، كما قامت قواتنا البحرية بتدمير المدمرة الإسرائيلية «إيلات» ، وكانت لهذه المعارك ، برغم من صغر حجمها ، دلائل كبيرة فقد أظهرت للعالم أجمع أن مصر ما زال بها رجال ، وإن هُزمت القيادة مرة بالخديعة ، فلن يُهزم الرجال ، كما عادت في آخر العام قواتنا المسلحة ، التي ظلت في اليمن حوالي أربعة أعوام ، من أجل تأمين ثورته ، بناء على طلب الثورة اليمنية ، وكانت قوات كبيرة ربما تعادل نصف قواتنا المسلحة ، وبمجرد عودتها أخذت مواقعها في جبهة القتال ، وقد بدت الجبهة متماسكة وقوية . وبدأت الحياة العسكرية تنتظم ، واستمرت عملية بناء القوات المسلحة ، وإعدادها ، وإن كانت سماء مصر ما زالت مكشوفة ، ومفتوحة ، تعربد فيها طائرات العدو من آن لآخر .

## في يوم ٢٤ يناير ١٩٦٨

في يوم ٢٣ يناير ١٩٦٨، صدرت الأحكام ضد حوالي أربعة وخمسين ضابطًا من كبار قادة القوات المسلحة ، الذين قدموا إلى المحكمة العسكرية بتهمة الإهمال الجسيم ، والتراخي ، الذي أدى بنا إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

والحقيقة أننا رأينا في ذلك ظلمًا ، واتهامات باطلة ، وخشينا أن يكون هذا هو الفصل الأخير للهزيمة ، الذي حبكها وأخرجها ، نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، والذي أراد أن يتنصل ويهرب من المسئولية السياسية للهزيمة ، والتي لم يكن لها أسباب ، ومسؤولية عسكرية ، فالعسكريون لا يتحركون إلا بأوامر سياسية تصدر من رئيس الجمهورية بوصفه القائد الأعلى للقوات المسلحة ، والذي أمر بحشد القوات في سيناء استعدادًا للهجوم ، فنفذت القيادة العامة للقوات المسلحة أمر القائد الأعلى ، والذي ما لبث أن أصدر أوامره ، بتكتيف الجيش ، حتى يتلقى الضربة الأولى ، كما جاءت الأوامر من موسكو .

وحينما عرض على قواد الأسلحة ، وهيئة الأركان العامة للقوات المسلحة في الاجتماع الذي عقد في مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة قبل الحرب بثمانية وأربعين ساعة ، بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، وحضره المشير عامر رحمه الله ، أخبره القادة جميعًا أن الجيش إذا تحمل الضربة الأولى ، ولم يبدأ بالهجوم ، فسوف تكون قاضية ، ومع ذلك فقد أصر القائد الأعلى للقوات المسلحة على رأيه بأن يتحمل الجيش الضربة طاعة لأوامر السوفيت ، إذن فالمسؤولية هي مسؤولية سياسية فقط ، ولقد أعلن الرئيس في خطاب التنحي أنه يتحمل المسئولية كاملة عن الهزيمة ، وعفا عنه الشعب ، صاحب السلطة العليا ، وطلب منه أن يبقى في مكانه ، أما أن تنتهي الهزيمة بلعبة سياسية ، فلا ، ولابد من وقفة مع عبد الناصر ، ومع نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة .

برغم من أنه لم يكن بي رغبة في الدراسة وحضور المحاضرات في هذا اليوم ، إلا أنني ذهبت مبكرًا إلى الكلية ، ولا أتذكر بالضبط إن كنت قد نمت ليلتها أم لا ؟ فقد اعتراني القلق والأرق ، منذ ٥ يونيو ١٩٦٧ .

وقد كان بي في هذا اليوم رغبة جارفة في الحديث إلى الزملاء ، ومناقشة ما جد من أخبار ، وهل ينتهي أمر الهزيمة عند إصدار الحكم على عدد من كبار القادة ؟!

ذهبت إلى الكلية في الصباح المبكر ، ووجدت أنها مزدحمة بالطلبة ، على غير العادة ، في هذا الوقت ، ووقفنا في مجموعات صغيرة ، ولم يكن ما أشعر به من غليان يعتمل في صدري هو شعوري وحدي ، بل كان شعور كل الطلبة الذين تجمعوا في فناء الكلية ، وهجروا المدرجات ، ولم يكن لأحد رغبة في الدراسة في هذا اليوم ، فالكل كان يتحدث عن الأحكام التي صدرت ضد قادة القوات المسلحة ، وقد انتهى موعد المحاضرة الأولى ، وكانت المدرجات خالية ، وها هو موعد المحاضرة الثانية قد حان ، ولم يتحرك أحد إلى المدرجات ، وكانت أعدادنا في تزايد مستمر ، وأخذنا نتشاور فيما يجب أن نفعله لرفض هذا الفصل من مسرحية الهزيمة ، الذي يريد به نظام الحكم المهزوم ، أن يكون الفصل الأخير ، ويسدل الستار .

واتفقنا على أن نخرج في مسيرة صامتة إلى الجامعة ، وهناك نعقد مؤتمرًا موسعًا لبحث الهزيمة ، وأسبابها السياسية ، فذهبنا إلى مكتب اتحاد الطلاب ، وكان رئيسه قد حضر ، ويجلس مع بعض من أعضاء الاتحاد ، فعرضنا عليهم ما انتهينا إليه واتفقنا عليه أن نخرج في مسيرة صامتة إلى الجامعة ، وهناك نعقد مؤتمرًا موسعًا نناقش فيه الأسباب السياسية للهزيمة ، ولكنهم رفضوا ، واحتجوا بأننا في حالة حرب ، وممنوع التظاهر كما هي الأوامر التي لديهم .

وكانوا جميعًا أعضاء في التنظيم الطليعي ، أحد منظمات الاتحاد الاشتراكي العربي ، الحزب الأوحد الحاكم ، وبعد طول حوار معهم ، بلا جدوى ، قررنا أن نخرج في مسيرة إلى الجامعة ، دون اصطحاب أعضاء اتحاد الطلاب معنا ، ووقفنا وتهيأنا للخروج ، ولكن البعض قد أشار أننا لابد أن نحمل علم الجمهورية نتقدم به المسيرة ، حتى تتسم بالطابع الرسمي والسلمي ، فعدنا إلى رئيس الاتحاد ، والذي كان مشغولًا بمكالمة تليفونية ، ويبدو أنه كان يتحدث إلى شخصية كبيرة ، فقد سمعناه يقول بصوت منخفض : حاضر يا فندم ، وقد كررها مرارًا ، ولما انتهى من مكالمته ، طلبنا منه العلم ، ولكنه رفض في بادئ الأمر ، إلا أنه بعد إلحاح قد وافق أخيرًا بشرط أن يتقدم المسيرة اثنان من أعضاء الاتحاد يتبادلان حمل العلم ، ولم يكن لنا زعامة تنظمنا ، أو حزب يجمعنا ، فقد جمعنا جميعًا ونظمنا نداء مصر ، وشعورنا المشترك النابع من وجدان واحد ، فقد انصهر كل في بوتقة الوطنية ، وخرجنا جميعًا في أنا واحد ، أنا مصر ، وخرجنا جميعًا في صفوف متراصة ، يتقدمنا علم الجمهورية ، وسرنا في شارع العباسية ، نحو الميدان إلى الجامعة ، في صمت وهدوء .

وبينما نحن سائرون في مسيرتنا ، مر بذاكرتي أول مظاهرة اشتركت فيها ، وقد كانت مظاهرة نادرة ، إذ أنها كانت مظاهرة أطفال ، وحدث ذلك في يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، فقد

خرجت من البيت في صباح ذلك اليوم حزينًا مكتئبًا ، إلى مدرسة منشية الصدر الابتدائية المشتركة ، حيث كنت بالسنة الثالثة الابتدائية ، بعد أن علمت من نشرة الأخبار ، ومن أهلي في الساعة السابعة صباحًا أن إسرائيل قد اعتدت على سيناء ، وقد تصدى لها جيشنا بالدفاع ، وصد الهجوم ، وأن المعارك ما زالت مستمرة ، وكنت أقف في طابور الصباح تحت علم مصر الأخضر ذي الهلال والثلاثة نجوم ، أرفعه إلى أعلى ، ثم أرفع يدي بالسلام ، وأحيي مصر ثلاث مرات ، ولكني في هذا اليوم لم أستطع أن أحيي مصر سوى مرة واحدة ، وانفجرت بعدها في البكاء فأسرعت إليَّ أبلة ماري ، مدرسة الفصل ، وأمسكت بيدي ، واصطحبتني إلى مكتب الأستاذة الناظرة ، أبلة إميليا ، والذي كان قريبًا بفناء المدرسة ، وسألتني عن سبب بكائي ، فأخبرتها بما علمت ، فطمأنتني وهدأت من روعي ، وأخبرتني أننا أصحاب حق ، وسوف ينصرنا الله الذي اسمه الحق ، وسوف يرد عنا كيد المعتدي ، ثم أعطتني علمًا صغيرًا ، أخضرًا جميلًا ، في وسطه هلال أبيض ، يحتضن ثلاث نجوم ، وطلبت مني أن أمسك العلم الصغير ، وأعود فأقف تحت العلم الكبير ، وأحيي مصر ثلاث مرات ، وحذرتني أن أبكي ثانية ، وكانت السيدة الناظرة قد أمرت بدخول طوابير التلاميذ إلى الفصول دون استكمال تحية مصر ، فأسرعت إليها ، وهمست في أذنها ، وعلى الفور أمرت الست الناظرة بعودة طوابير التلاميذ ، فعادوا واصطفوا من جديد ، ووقفت تحت علم مصر الكبير ممسكًا بعلمي الصغير ، وحييت مصر ثلاثًا ، وردد جمع الأطفال تحية مصر ، وقبل أن تأمر السيدة الناظرة بتحويل الطوابير إلى الفصول ، جرت إليها أبلة ماري ، وهمست في أذنها ثانية ، وعلى الفور قالت الست الناظرة : أن اليوم يوم مصر ، وأن المدرسة كلها سوف تخرج تهتف لمصر ، وأمرتني أن أحيي مصر ، وطلبت من الأطفال أن يرددوا ورائي ، تحيا مصر ، وخرجت أتقدم المدرسة ، وأحمل في يدي علم مصر الأخضر ، وقد سارت مجموعة المدرسات والسيدة الناظرة خلف التلاميذ ، ويردد الجميع ورائي : تحيا مصر ، وقد طفنا بالشوارع المحيطة بالمدرسة ، وانضم إلينا بعض الناس ، يرددون معنا : تحيا مصر .

مرت هذه الواقعة بذاكرتي ، بينما كنت أسير في مسيرتنا في حب مصر ، في شارع العباسية متجهين إلى جامعة عين شمس ، ووجدت عيناي قد اغرورقت بالدموع ، وقد أحببت هذا العلم الأخضر حبًا شديدًا ، وكثيرًا ما كانت عيناي تدمع كلما وقع بصري عليه في إحدى الصور ، أو المشاهد ، فوجدت شفتاي تهمس بهذه الكلمات ، التي قمت بتسجيلها آخر الليل :

أين العلم ؟!
أين علم مصر الجميل ؟!
أين رقة النسيم وخضرة وادي النيل
وشاعرية السماء أين الهلال والنجوم ؟
غيروه .... غيروه واستبدلوه بآخر
وماذا هو الآخر ؟!
بدم الأحرار ملوث بالأسود الحزين مذيل
أين علم مصر الجميل ؟!
يا علمًا أنت للمصريين فخرًا
للكفاح والنضال عشت رمزًا
وتهفو النفس تناجي سعدًا
أين علم مصر الجميل ؟!
وتعود كطائر جريح
تحط بين القبور
تذرف الدمع الثخين
تحي الشهيد .... تواسي الجريح
أين علم مصر الجميل ؟!
نادى شاهد القبور
صاح من في القبور
كل القبور
هتفت معهم
أين علم مصر الجميل ؟!

**المصيدة :**

وصلنا بمسيرتنا السلمية الصامتة ، يتقدمنا أحد أعضاء اتحاد الطلاب يحمل علم الجمهورية إلى ميدان العباسية ، وكان به موقف لأتوبيس هيئة النقل العام ، ولكننا فوجئنا أنه قد أخلى تمامًا من الأتوبيسات والسيارات ، وقد أحاط به من جميع الجوانب قوات من بلوك

النظام – كان ذلك قبل تشكيل قوات الأمن المركزي – وتركوا جانبًا واحدًا ، لم يشغلوه ، وهو جانب شارع العباسية الذي نمر فيه ، وحينما وصلنا إلى الميدان ، وأردنا أن نواصل المسير لتعبر نفق العباسية متجهين إلى الجامعة ، منعتنا قوات الأمن ، وحاولنا أن نقنع الضباط أننا مسيرة سلمية صامتة ، في اتجاهنا إلى الجامعة ، ولكنهم رفضوا ، وأخبرونا بمنع التظاهر ، فقررنا الجلوس على الأرض والاعتصام بالميدان .

وما كدنا نجلس حتى هجمت علينا قوات الشرطة بالخرازانات الغليظة ، فقمنا على الفور ، وأخذنا نتراجع إلى الوراء ، فقد كانت مفاجأة لنا ، وظللنا بين كرّ وفر ، حتى أطلقوا علينا القنابل المسيلة للدموع ، والتي كنا نتناولها ونعيد قذفها عليهم ، وانطلقت الألسن تنادي بذلك النداء الذي يعيش في الوجدان : بلادي .... بلادي ... لك حبي وفؤادي ، البلد دي بلدنا ، لم كلابك يا شعراوي [١] ، لا صدقي ولا الغول [٢] ، عبد الناصر هو المسؤول .

وتفرقنا في حواري الوايلية ، والشوارع الجانبية لشارع العباسية ، وأخذنا نبحث عن طوب وحجارة نرجم بها جنود الشيطان ، ونتجمع ونهجم في إصرار لكسر حصار كلاب شعراوي ، والوصول إلى الجامعة ، وكان نصيبي في هذه المواجهة خرزانة من أحد الجنود نزلت على ساقي اليسرى ، ولكنني لم أشعر بآلامها إلا في آخر الليل ، وكان الناس يسألون عن أسباب هذه التظاهرة ، وكنا نجيبهم ، وسرعان ما كانوا ينضمون إلينا ، فقد كان الكل في حالة غليان وغضب على نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، ولم تكن تجمعنا أحزاب أو ساسة ، فقد انصهر الكل في بوتقة الوطنية ، وذاب في حب مصر ، وبينما كنت أقف في أحد الشوارع الجانبية ألتقط أنفاسي ، مع مجموعة من الزملاء ، اتفقنا سويًا على أن نتسلل سويًا إلى الجامعة من بابها الخلفي ، ونخرج جميع الطلبة من مختلف الكليات ، ونتجمع ونهاجم جنود الشيطان من الخلف ، ونكسر الحصار المضروب حول طلبة كلية الهندسة ، بميدان العباسية ، حتى يتسنى لهم أن يدخلوا الجامعة ، ونعقد مؤتمرنا الموسع داخل الجامعة لمناقشة الأسباب السياسية للهزيمة ، ورفع مطالبنا بمحاكمة المسئولين السياسيين عن الهزيمة ، فلابد من فرض إرادتنا فوق أرضنا قبل مواجهة عدونا وتحرير أرضنا المغتصبة ، والثأر ، واسترداد الكرامة ، فالشعب الذي لا يستطيع أن يفرض إرادته فوق أرضه لا يأتي بنصر على عدوه ، ويعيش أبد الدهر مهلهل العزيمة ، فاقد الإرادة ، ويبقى دومًا نسيًا منسيًا بين الشعوب .

(١) شعراوي : اللواء شعراوي جمعة وزير الداخلية .

(٢) صدقي ، والغول : الفريق صدقي محمود قائد القوات الجوية في ٥ يونيو ، واللواء عبد الرحيم الغول ، قائد القوات البرية بسيناء .

**نداء الحرية :**

استطعت مع أربعة من الزملاء أن نصل إلى الجامعة من بابها الخلفي بالشارع الجانبي المطل على المدينة الجامعية ، وهناك في الجامعة كانت المحاضرات منتظمة في سكون ، والطلاب ليس لديهم فكرة عما يدور خارج الجامعة بين طلاب كلية الهندسة وقوات الأمن بميدان العباسية ، وفي فناء الجامعة وجدنا مجموعات كثيرة من الزملاء بكلية الهندسة قد اهتدوا إلى ما اهتدينا إليه ، وسبقونا إلى الجامعة أيضًا من بابها الخلفي ، وقد وقفوا في حديقة الجامعة يتحدثون مع الطلاب من مختلف الكليات ، ويشرحون لهم الموقف ، وكذلك فعلت مجموعتنا ، ثم اتفقنا على أن تدخل كل مجموعة إلى أحد المدرجات ، فتخرج الطلاب ، لعقد مؤتمر عام للجامعة بحضره سيادة الأستاذ الدكتور حلمي مراد مدير الجامعة والسادة أساتذة الجامعة لمناقشة الأسباب السياسية لهزيمة ٥ يونيو ، ومحاكمة المسئولين السياسيين عن الهزيمة ، واتجهت مع مجموعتي المكونة من أربعة من الزملاء غيري ، إلى أحد المدرجات بكلية العلوم ، وكان يتلقى محاضرة به طلبة السنة الإعدادية بكلية الطب في مادة الكيمياء الحيوية ، نظرًا لضيق مدرجات كلية الطب ، ولكبر أعداد الدفعة ، وكانت تقوم بإلقاء المحاضرة الدكتورة ابتسام ، وحينما اقتربنا من باب المدرج أخبرنا ساعي المدرج الذي كان يقف بالباب أن المحاضرة شغالة ، إلا أننا لم نبال ، فقد فتحت الباب ، ودخلت إلى المدرج ومعي الزملاء ، وما أن رآنا بعض الطلاب الجالسين في المدرج ، وكانوا من أعضاء التنظيم الطليعي بالاتحاد الاشتراكي العربي ، حتى أخذوا يصيحون : أن المظاهرات ممنوعة ، وأخذوا يطلبون منا أن نخرج ، كما حذرت الدكتورة المحاضرة أن هذه المحاضرة لن تعاد عبر مكبر الصوت ، وكان المكرفون بيدها ، فصعدت إلى المنصة مسرعًا ، وطلبت منها الميكرفون ، فرفضت ، وطلبت من ساعي المدرج أن يغلق الإذاعة ، وكان صياح أبناء التنظيم الطليعي قد زاد ، فصحت بأعلى صوت : ضحايا الهندسة ينادوكم ، الحرية ولو بالدم ، ورددت مع الزملاء : بلادي ... بلادي ... لك حبي وفؤادي ، وعلى الفور قام كل من كان بالمدرج ، وأخذ يردد معنا : بلادي ... بلادي ... لك حبي وفؤادي ، وخرج الجمع إلى فناء الجامعة ينادي : الحرية ولو بالدم .

وفي دقائق قليلة ، كان كل الطلبة الذين كانوا يتلقون محاضراتهم بالمدرجات قد خرجوا جميعًا ، وتجمعوا في حديقة الجامعة التي ضاقت بهم ، وكانت أعدادهم تزيد عن خمسة عشر ألف ، يرددون جميعًا : بلادي ... بلادي ... لك حبي وفؤادي ، الحرية ولو بالدم . البلد دي بلدنا لم كلابك يا شعراوي ، لا صدقي ولا الغول ، عبد الناصر هو المسؤول .

وصعدت مع بعض الزملاء ، إلى الدور الثاني بقصر الزعفران ، حيث اتخذته إدارة الجامعة مقرًا لها ، ودخلنا مكتب الأستاذ الدكتور حلمي مراد مدير الجامعة ، وقصصنا عليه ما حدث من أول النهار ، وطلبنا من سيادته أن يحضر هو وأساتذة الجامعة المؤتمر العام لمناقشة الأسباب السياسية للهزيمة ، والمطالبة بمحاكمة المسئولين السياسيين عن الهزيمة ، فوافق ، وطلب منا أن نتجمع بالمدرج الكبير بكلية الآداب ، فأخبرناه أنه لا يكفي لاستيعاب طلاب الجامعة الذين يريدون أن يحضروا المؤتمر جميعًا ، وأخبرناه أننا سوف نقوم بتركيب مكبرًا للصوت فوق الفراندة أو المنصة التي هي بالدور الثاني ، وأن يقف به هو والسادة أساتذة الجامعة بها ويلقي كلمته ، فوافق .

قام على الفور بعض من الأخوة بقسم الكهرباء بتركيب مكبر الصوت ، وجاء سيادته ، وتحدث بالميكرفون ، ولكن الأيادي الخبيثة لم تترك مكبر الصوت يعمل بكفاءة ، فطلب منا الأستاذ الدكتور مدير الجامعة أن نذهب إلى المدرج الكبير ، فعلمنا أنها محاولة لاحتواء الموقف ، وتمييعه ، فرفضنا ، وعادت الهتافات من جديد ، تنادي : بلادي ... بلادي ، والحقيقة أننا كنا قد فقدنا الثقة في نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وفي كل من ينتمي إليه ، حتى وإن كان مدير الجامعة .

**مطالب حركة ٢٤ يناير وعبد الناصر :**

ما زلنا متجمعين في حديقة الجامعة ، وقد وصل إلينا عدد من الطلاب من كلية الطب ، وأخبرونا أن بعضًا من طلبة كلية الهندسة قد وصلوا إلى كلية الطب ، وأخبروا الطلبة بما حدث من أول النهار ، وقد خرج طلبة كلية الطب وتجمعوا أمام الكلية ، والتي لا تبعد عن الجامعة بأكثر من كيلومتر واحد ، وأرادوا أن يسيروا في مسيرة إلى الجامعة ، ولكن كلاب السلطة قد أحاطوا بهم ومنعوهم ، وما زالت الاشتباكات تدور بينهم ، وبين قوات الشرطة ، كما هو الحال بين طلاب الهندسة ، وقوات السلطة على بعد خطوات من الجامعة ، فقررنا أن نخرج من الجامعة ، ونضغط على قوات الشرطة من الخلف لفك الحصار عن طلبة كلية الهندسة المحاصرين بميدان العباسية ، ثم نتجه جميعًا لفك الحصار عن طلبة كلية الطب ، ونتجمع في مسيرة ضخمة إلى منزل الرئيس بحي منشية البكري لرفع مطالبنا لسيادته ، وكانت مطالبنا تنحصر في أربعة مطالب وهي :

١ - رفضنا أن تكون محاكمة القادة الذين حملوهم مسؤولية الهزيمة ، هو الفصل الأخير في مسرحية الهزيمة ، بعد أن انكشف كذب نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة .

٢- محاكمة المسؤولين السياسيين عن الهزيمة أمام محكمة شعبية .

٣- فتح باب الحريات ، وإطلاق حرية التعبير عن الرأي .

٤- التعجيل بالثأر ، واسترداد الكرامة ، والانتقام للشهداء ، وتحرير الأرض المغتصبة ، حتى وإن أدى ذلك إلى إيقاف الدراسة بالجامعات ، وتجنيد شبابها .

وما أن خرجنا من الباب الرئيسي للجامعة المطل على شارع ٢٣ يوليو «الخليفة المأمون» ، حتى أطبقت علينا قوات الأمن التي كانت تحاصر الجامعة من الجهتين ، وانهالوا علينا ضربًا بما كان في أيديهم من هروات ولكننا لم نتراجع ، بل ازداد تدفقنا ، والضغط من الخلف من ناحية النفق لفك الحصار عن طلبة كلية الهندسة المحاصرين بالميدان ، حتى يستطيعوا أن ينضموا إلينا ، ونكون مسيرة ضخمة ، ونتجه إلى بيت الرئيس ، بمنشية البكري ، وتراجعت قوات الأمن قليلًا من الجهتين ، وما كان تراجعهم إلا خدعة ، حتى يقذفوا علينا القنابل المسيلة للدموع ، فيكونوا في منأى وابتعاد عن تأثيرها وغازاتها ، التي أصابتنا باختناقات ، وجعلت الدموع تسيل ، وتلتهب الأنوف ، فتراجعنا تلقائيًا داخل الجامعة ، فواصلوا قذف القنابل المسيلة للدموع داخل الجامعة ، ولم يستحوا ، حتى تأثر بها كل من كان داخل الجامعة من أساتذة ومعيدين ، وإداريين ، فانضموا إلينا جميعًا وأخذوا يهتفون معنا : الحرية ولو بالدم ، لبلد دي بلدنا ، لم كلابك يا شعراوي ، لا صدقي ولا الغول ، عبد الناصر هو المسؤول ، بلادي ... بلادي ... لك حبي وفؤادي .

وبعد أن التقطنا أنفاسنا ، وصفا الجو من الغازات المسيلة للدموع بعض الشيء ، قررنا أن نهجم هجمة واحدة في اتجاهين ، من الباب الرئيسي للجامعة ، ومن الباب الجانبي المطل على المدينة الجامعية ، وكنت هذه المرة مع الذين خرجوا من الباب الجانبي ، ولكننا فوجئنا أن عدد القوات قد أخذ في التضاعف ، وأخذوا يهجمون علينا من كل جانب ، وعبر كل اتجاه ، وقد ازدادت القنابل المسيلة للدموع التي تساقطت علينا ، حتى غطت سماء المنطقة سحابة خانقة ، تأثر بها كل من كان في المكان ، ولم يكن لدينا من وسيلة نرد بها عليهم سوى قذفهم بالحجارة ، وأخذنا نبتعد إلى النفق الذي كان تحت خط السكة الحديد ، ونختلط بالناس ، الذين كانوا يسألوننا عن سبب تظاهرنا ، فكنا نشرح لهم الأسباب التي دعتنا لذلك ، والتي هي مدعاة لكل مصري أن يثور على نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وسرعان ما كان أهالي المنطقة ينضمون إلينا ويشاركوننا في رجم جنود الشيطان بالحجارة .

وبينما كنت أجري مع أهالي الحي الذين انضموا إلينا في الشارع الجانبي ، بين المدينة الجامعية والجامعة ، بعد أن ضغطت علينا قوات الأمن ، وبأيديهم العصي الغليظة ، جذبتني من ملابسي من الخلف قبضة قوية ، ولكن هذا لم يدم غير لحظة ، فلم أكد ألتفت إليه ، حتى تركني بعد أن أصابه حجر في ظهره فتركني ، والتفت إلى مصدر الحجر ، فقد كان أحد الشرطة السريين في زي مدني ، وجريت على الفور نحو الأهالي الذين أحاطوا بي ، وظللت أجري نحو النفق حتى عبرته جهة المساكن مع الناس ، ووقفت مع مجموعة منهم ألتقط أنفاسي فنصحني أحد الناس أن أبتعد بعد أن أصبحت العيون عليَّ ، وأنه قد رأى شخصًا يحمل كاميرا تصوير في يده ، وقد التقط لي أكثر من صورة ، وكنا قد قبضنا على اثنين داخل الجامعة يحملون كاميرات ، فأخذناها منهم واستخرجنا منهم الأفلام ، وفتشناهم ، وأخذنا ما كان في حوذتهم من أفلام ، ونصحني أحد الرجال ألا أذهب إلى بيتي ، وعرض عليَّ أن أختفي عنده ، وأقسم رجل من أهل الصعيد ، أنني إذا وافقت فإنه يستطيع أن يخفيني في بلده بأسيوط ، ولن يستطيع أن يقبض عليَّ أحد فشكرتهم جميعًا ، وأخبرتهم أنني لن أعود إلى البيت ، فطلبوا مني أن أبتعد عن المكان ، وألا أعود للمواجهة ، أما هم فسوف يظلون في مواجهة جنود سلطات الهزيمة ، ولن يتركوا أبناءهم وحدهم في المواجهة ، بعد أن عرفوا الأسباب التي دعتنا للثورة على نظام الحكم المهزوم .

لم أعد إلى البيت ، فقد شعرت بالخطر ، وأنه عليَّ أن أختفي بعيدًا عن عيون السلطة ، وأنه ليس من العقل أو الشجاعة أن أمكن كلاب شعراوي جمعة من القبض عليَّ ، حتى أستطيع أن أستمر في مقاومة نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وقد ناديت بالحرية ولو بالدم ، وعليَّ ، وعلى كل من يريد الحرية أن يدفع الثمن أولًا ، وثمن الشيء مرتبط بقيمته ، وبما أن الحرية هي أغلى مطلب في حياة الإنسان ، فلابد أن يكون ثمنها غالي ، وثمن الحرية الوحيد ، هو الكفاح ، والدماء والأرواح ، وقد تبلورت الآن قضية تحرير الأرض المغتصبة ، والثأر للشهداء ، واسترداد الكرامة ، ولابد من فرض إرادتنا فوق أرضنا أولًا ، وتحطيم القيود والأغلال ، فالشعب الذي لا يستطيع أن يفرض إرادته فوق أرضه ، لا يأتي بنصر على عدوه ، ويعيش أبد الدهر فاقد الإرادة ، مهلهل العزيمة ، ويبقى دومًا نسيًا منسيًا بين الشعوب .

ذهبت إلى حي شبرا في آخر النهار ، حيث قضيت فترة الدراسة الثانوية ، وتكونت لي صداقات عديدة ، وقد رحب الأصدقاء وأهاليهم بي ، وقد جعلت أبيت عند كل صديق ليلة ، أذهب إليه آخر الليل ، ثم أخرج في الصباح المبكر ، قبل أن تعلم بمكاني مباحث أمن الدولة ، التي

كانت تطاردني ، وأقضي يومي أتجول بين الناس ، أستمع إلى ما لديهم ، وأنفث فيهم روح الثورة ضد نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، ولقد تعرفت في هذه الفترة على كثير من الناس ، لم أكن أعرفهم من قبل ، وقد بت ليال كثيرة في استضافة أناس ، لم أكن أعرفهم من قبل ، فقد جمعني بهم حب مصر ، والتي فيها ذاب الكل .

وذات يوم كنت أبيت عند أحد الأصدقاء ، وخرجت مبكرًا ، كما هي العادة ، وجاء في إثري رجال المباحث ، وكان والد صديقي هذا يعمل أمينًا لأحد المكاتب التنفيذية بالاتحاد الاشتراكي العربي ، فقابل رجال المباحث ، وأخبرهم بعمله ، وأظهر لهم ما يثبت ذلك ، كما أخبرهم أنني عضو معهم في التنظيم ، وما كان ذلك في الحقيقة إلا موقفًا قدريًا قد حماني الله به من قبضة أعداء الحرية ، وكلاب السلطة ، فلم أكن يومًا عضوًا بالاتحاد الاشتراكي العربي ، وكنت دومًا على خلاف مع من ينتمون إليه لجهلهم بالاشتراكية ، أو لنهجهم غير الاشتراكي ، وليس لعداء للاشتراكية ، وقد سجلت منذ ذلك اليوم لدى مباحث أمن الدولة باعتبار أنني عضو بالتنظيم الطليعي للاتحاد الاشتراكي ، وقد ابتعدت عيون المباحث عني ، وإن كنت لم أقدر ذلك إلا بعد أعوام ، وقد ظللت في اختفائي بعيدًا عن بيتي ، الذي لم أعد إليه إلا بعد مرور أكثر من شهرين ، وذلك بعد صدور بيان ٣٠ مارس ، والعفو والإفراج عن الطلبة الذين اعتقلوا في المظاهرات وعودة الدراسة مع بداية شهر إبريل عام ١٩٦٨ .

**نتائج حركة ٢٤ يناير الطلابية :**

صدر قرار بوقف الدراسة بالجامعات ابتداء من يوم ٢٥ يناير ، وكانت أعداد كبيرة من طلبة جامعة عين شمس قد اعتصموا بالجامعة ، ورفضوا أن يغادروها إلا بعد أن تتحقق المطالب ، ولكن قوات الأمن قد هجمت على الجامعة في الفجر ، وفضت الاعتصام ، واعتقلت أعدادًا كبيرة من الطلبة ، ولم تكن الحركة الطلابية قد وقعت بجامعة عين شمس وحدها ، إنما ما وقع بجامعة عين شمس من أحداث قد وقع في سائر جامعات الجمهورية ، فقد خرجت جامعة القاهرة في مظاهرة ضخمة ، وحدثت مصادمات بين الطلبة وقوات الأمن طوال النهار ، وحاول الطلبة في تظاهراتهم أن يصلوا إلى مجلس الأمة لرفع مطالبهم ، والتي هي مطالبنا ، ومطالب كل الحركة الطلابية ، ولكن قوات أمن نظام الحكم المهزوم قد منعتهم ، وتصدت لهم بالعصي والهروات ، والقنابل المسيلة للدموع ، ومنعتهم من الوصول إلى مجلس الأمة .

وقد وقعت بجامعة الإسكندرية أيضًا نفس الأحداث التي وقعت بالقاهرة ، فقد هبت رياح الثورة والوطنية على كل الوطن ، ونادت مصر على أبنائها ، فقاموا جميعًا ، ولبوا نداء

الأم الكبرى ، دون أي تنسيق بينهم ، وبلا زعامة تجمعهم ، وترتب شأنهم إنما هو نداء مصر ، ونداء الحرية ، فالحرية قبل التحرير ، ولابد من دفع ثمن الحرية ، وفرض إرادتنا فوق أرضنا قبل مواجهة عدونا ، وليست هذه دعوة فرد أو جماعة ، إنما هو منطق الحرية .

وبكى جمال عبد الناصر ، حينما رأى شعبه يثور عليه لأول مرة ، وجاء إليه السفير السوفيتي في القاهرة ، وأخبره أن الرفاق الحمر ، الذين تسببوا في الهزيمة ، ونصحوا الرفيق ناصر ، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا سوى أن يجهزوا له طائرة ، تنقله إلى موسكو ، ورد عليه الرئيس أنه لولا أنه في مكتبه لطرده .

وقد علم العالم كله أن الشعب المصري قد خرج يرفض الهزيمة ، ويزأر في نظام الحكم الذي أدى به إلى الهزيمة ، وأنه لن يستسلم للهزيمة مهما كان الثمن ، وأنه يريد أن يفرض إرادته فوق أرضه ، وأنه ينادي بحريته أولًا ، وقام عبد الناصر بإقالة الوزارة التي شكلها بعد الهزيمة ، ولم يكن قد مر عليها سبعة أشهر وشكل وزارة جديدة من أساتذة الجامعات ، وأصدر بيان ٣٠ مارس ، الذي كتبه له مهندس الهزيمة الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام ، وهو الذي دلع الهزيمة ، وسماها نكسة وكان فحوى هذا البيان لا صوت يعلو فوق صوت المعركة ، كل البنود ، كل الجهود للمعركة ، كما سقط شعار الدولة : حرية ، اشتراكية ، وحدة ، بعد أن تمخضت عبقرية الكاهن الأعظم في معبد الناصرية ، الأستاذ هيكل ، فولد شعار : العلم ، والتكنولوجيا ، ولم يكن هذا الشعار سوى مصدرًا للسخرية والهزل ، وخاصة من طلبة الهندسة الذين يدرسون التطبيق العلمي للخامات ، والمواد وتطبيقاتها العلمية وهي التكنولوجيا .

وهل كان يعمل شعب في ظل شعار لا يفهمه؟! ثم إن شعار أي دولة لابد أن يحمل قيمة أو قيم إنسانية رفيعة ، يفهمها كل الشعب ويعمل في ظلها ، ومن أجل رفعها ،و السمو بها ، ويبدو أن الذي أتى بهذا الشعار قد تجرد من مصريته وإنسانيته ، ورحم الله شاعر النيل المرحوم الأستاذ حافظ إبراهيم الذي تحدثت مصر بقلمه فقالت :

**وارفعوا دولتي على العلم والأخـ ـلاق فالعلم وحده ليس يجدي**

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي إذ يقول :

**إنما الأمم الأخـلاق ما بقيت وإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا**

وهكذا قد عبر الساسة بصدق عن أنفسهم ، وعلى رأسهم كاهن السياسة الأعظم ، أن لا قيمة للأخلاق لديهم ، فالسياسة طريق للوصولية والنفعية ، وأن الأخلاق لا ترد عليها ، أو

على من يشتغل بها ، وقد خرجت علينا الصحافة والصحافيون ، والإذاعيون ، والتلفزيونجية ، في الأيام التالية ليوم ٢٤ يناير يتبارون في قذف الحركة الطلابية الشريفة النقية ، التي خرجت تعبر عن مصر كلها ، وتعلو بصوتها المكبوت المقهور ، فقد تبارت أقلام الكذابين والغشاشين ، في الصحافة ، وأصوات الكذب والغش في الإذاعة والتليفزيون ، في وصف الحركة الطلابية بأن الذي حركها مثيري الشغب ، وقلة منحرفة ، ومندسة ، وعناصر خارجية ، وغيره من التهم التي لا حصر لها ، ثم الدفاع والدعاء لنظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة كما نشطت أيضًا الشائعات الكريهة حول المشير عامر بعد وفاته ، لتذكير الناس بأنه هو المسؤول الوحيد عن الهزيمة ، وقد زوروا وبدلوا ببجاحة هتافات الطلبة التي تحمل معها مطالب مصر كلها .

وعقد الرئيس جمال عبد الناصر اجتماعًا لرؤساء اتحادات طلاب الجامعات ، حضره عبد الحميد حسن رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة ، والطالب بكلية الطب ، وحلمي نهنوش رئيس اتحاد طلاب جامعة عين شمس ، والطالب بكلية الطب ، وحضره أيضًا عاطف الشاطر رئيس اتحاد طلاب جامعة الإسكندرية ، والطالب بكلية الهندسة ، وبدأ الرئيس بسؤال عاطف الشاطر : أنت كنت عايز تحاكمني يا عاطف ؟ فرد قائلًا : القيادة العسكرية ، لا تتحرك إلا بأوامر من القيادة السياسية يا ريس ، وهز الرئيس رأسه ، والتفت إلى حلمي نهنوش رئيس اتحاد طلاب جامعة عين شمس ، وقال : وأنت يا حلمي ؟ فأصابه الحجل ، ونكس رأسه ، ولم يرد ، ولما توجه الرئيس بنفس السؤال إلى عبد الحميد حسن رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة ، أنكر على الفور كما أنكر أن يوجد في مصر من يجرؤ على أن ينفوه بمثل ذلك الكلام ، ثم أخذ في الإطراء ، والمديح على الرئيس ، فقد كان من الأعضاء البارزين في التنظيم الطليعي بالاتحاد الاشتراكي وتخرج بعد عام ، ولكنه لم يعين طبيبًا ، وإنما عين وزير للشباب ، فقد أنشئت وزارة للنفاق خصيصًا له تحت اسم وزارة الشباب والرياضة .

وتخرج حلمي نهنوش من كلية الطب ، ولكنه لم يكلف بوزارة الصحة للعمل بها ، كما هو متبع ، وظل مضطهدًا ، وقد سدت في وجهه أبواب العمل ، وأما عاطف الشاطر رئيس اتحاد طلاب جامعة الإسكندرية ، فقد اضطهد أيضًا ، ولم يهتز ، وفي العام التالي ظل رئيسًا لاتحاد الطلاب ، وازداد دوره الوطني ، وازداد فناؤه في حب الوطن ، كما سوف نرى في الفصل القادم ، حتى صار رمزًا من رموز الوطنية في مصر .

ويعتبر الدكتور عبد الحميد حسن بحق أحد الأمثلة المرموقة للاشتراكيين المصريين ، الذين اتخذوا الاشتراكية وسيلة للوصولية والنفعية ، والتزم بتأليه الحاكم الذي رفعه لكي

ينتهي بعد حين إلى مزبلة التاريخ ، وكان من الأمثلة المرموقة أيضًا للاشتراكيين ، في هذه الحقبة العصيبة من تاريخ مصر ، الأستاذ أحمد فهيم رئيس اتحاد عمال مصر ، الذي ظهر في يوم ١٠ يونيو ١٩٦٧ ، في مجلس الأمة ، وهو ممسكًا بدورق به شربات ، وبيده اليسرى كوب وأخذ يوزع الشربات على أعضاء المجلس ، بمناسبة عدول الرئيس عن التنحي ، ولم يكن دم الشهداء الذين سيقوا إلى الذبح بسيناء قد جف بعد .

**بعث الحركة الفكرية :**

لم تكن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ بالحدث الذي ينتهي عند محاكمة حفنة أو عدد من قادة وكبار ضباط الجيش ، إنما كانت واقعة ، اهتز لها الكيان المصري بأكمله ، وكان لابد من مراجعة شاملة لكل أمر يتعلق بالحركة الحياتية للمجتمع بأثره ، ووقفة مع ثورة ٢٣ يوليو ، وتقييمها بعد خمسة عشر سنة من قيام الثورة ، والنظر إلى ما حققته من أهدافها التي ارتضاها الشعب ، وفي المبادئ التي اعتنقتها الثورة مثل الحرية ، والعدالة ، والمساواة ، ثم الحرية ، والاشتراكية ، والوحدة ، ثم ماذا حققت من أهدافها الأساسية بعد خمسة عشرة سنة من قيامها .

أما الهدف الأول : وهو القضاء على الاستعمار ، فقط سقط باحتلال إسرائيل ، وسقط معه الهدف الخامس ، وهو إقامة جيش وطني قوي ، بصرف النظر عن أسباب الهزيمة .

وأما الهدف الثاني : وهو القضاء على الإقطاع ، فقد نجحت الثورة في تحقيقه .

وأما الهدف الثالث : وهو القضاء على الاحتكار ، وسيطرة رأس المال على الحكم ، فقد احتكرت الحكم طائفة جديدة من كهنة المعبد الذين أحاطوا بالرئيس ، وعزلوه عن الشعب باسم الاشتراكية ، كما سيطر السوفيت على صنع القرار ، وكان استجابة القيادة السياسية في مصر لأوامر السوفيت بتحمل الضربة الأولى ، وهو أكبر دليل على ذلك ، وكأن مصر قد أصبحت فاقدة الإرادة ، إنما إرادتها هي إرادة السوفيت ، وبينما كان الرئيس يلقي خطاب التنحي ، قدمت إليه ورقة ، نظر إليها مسرعًا ، ثم أكمل خطابه ، وقد تبين فيما بعد أنها من القيادة السوفيتية ، تطلب منه عدم التنحي مع وعد أنهم سوف يمدون مصر بالسلاح لإعادة تسليح الجيش المصري ، وهكذا قد أصبح السوفيت يتدخلون في صنع أخطر القرارات في الدولة ، ويعلمون بالقرار قبل أن يعلمه الشعب ، وسقطت سيطرة رأس المال على الحكم ، وتحولت إلى سيطرة مورد السلاح على الحكم ، وأما عن مبدأ العدالة الاجتماعية ، فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه تحقق منه الكثير ، مثل مجانية التعليم ، والتزام الدولة بتعيين الخريجين ،

والتأمين الصحي ، وتحديد ساعات العمل ، وتحديد السن الأدنى للعمل ، وعدم الفصل التعسفي ، وتمثيل العمال في مجالس الإدارات للشركات ، وحقوقهم في الأرباح ، وغيره من المكاسب الشعبية التي تحققت في طريق العدالة الاجتماعية .

وأما الهدف السادس من أهداف ثورة ٢٣ يوليو ، وهو إقامة حياة نيابية سليمة ، فلم يتحقق خلال الخمسة عشر عامًا التي هي عمر الثورة .

ومن أعظم نتائج حركة يناير أن أخذ حاجز الخوف يتحطم أمام شباب الجامعة الذين ثاروا ضد نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، ثم أخذ طلاب الجامعة ينشرون بين الناس حرية التعبير عن الرأي ، وإطلاق الفكر من إساره الذي كان مقيدًا بتأليه الحاكم ، وبدأ يظهر على الساحة الدعاة والمفكرون من أصحاب الفكر القومي الحضاري الأصيل ، وأخذت مظهر العودة إلى قيمنا الحضارية الموروثة ، وإلى ديننا الحنيف الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولابد من إعداد المواطن والمقاتل قبل مواجهة العدو ، فالعتاد بالرجال ، وليس الرجال بالعتاد ، وأن القوة الحقيقية تكمن في قوة العقيدة قبل أن تكون قوة عتاد ، وان علينا الاستعداد بقوة العقيدة مع الاستعداد بقوة السلاح .

والحقيقة أن حقبة الستينيات ، قد شهدت انهيار في أخلاقيات المجتمع بعد تهميش دور الدين الذي هو عصب الأخلاقيات في المجتمع المصري ، ونقد ذكرنا مثلًا في بدايات اعترافات هذه بطالب الهندسة الذي كسر كرسيًا متعمدا في قاعة المحاضرات ، وهذا سلوك يفعل يستحي الأمي الذي هو على خُلق أن يأتي بمثله ، وقد انفصلت الثقافة عن الأخلاق انفصالا بينًا ، حتى أنه قد أصبح في فكر المثقفين أن المثقف لا يكون مثقفًا بحق إلا إذا كان سكيرًا وزير نساء ، وكثيرًا ما ترى إنسانًا على معرفة واسعة بالروايات العالمية ، والروائيين ، والمسرحيين ، ولا يعرف شيئًا عن أعلام الحضارة العربية والإسلامية ، وفي سلوكياته لا تراه يستحي عن الكذب والغش ، والنصب ، والغيبة ، والنميمة ، وغيره من مساوئ الأخلاق ، وقد أخذ من يسمون بالمثقفين ينظرون إلى من يصل ، أو يتمسك بدينه ، وبمكارم الأخلاق ، باعتبار أنه جاهل ومتخلف ، وعمت البلاد موجة من الإلحاد ، وانتشر العري في الشوارع ، وفقدت الشخصية المصرية ملامحها ، وأصبحت شخصية مهتزة ، وراقصة بين الشرق والغرب ، ولا طانت شرقًا ، ولا غربًا ، وكل ذلك قد حدث بدعوة التطور والرقي ، وأخذ سؤال يطرح نفسه بشدة ، وينتشر على الألسن : إذا كنا بمنطق التطور نأبى أن نعيش بأفكار عصور خلت ، فكيف بالمنطق نفسه نقبل أن نعيش بأفكار مستعارة ؟! أليس ثم فرق بين التطور والتجديد ،

والهدم والتبديد ؟! فالتطور هو الإبقاء على القديم ، أو الموروث الحضاري مع التحديث والتجديد ، ولقد تبلورت أهداف الحركة الطلابية التي تفجرت في ٢٤ يناير ١٩٦٨ في الحرية قبل التحرير ، وأخذنا نعمل من أجل نيل حريتنا وفرض إرادتنا فوق أرضنا .

فلم يكن مسموحًا لأحد أن يعبر عن رأيه بحرية ، إلا إذا كان يكتب أو يتحدث عن التطور الحتمي الاشتراكي ، والمديح في الاشتراكية ، وأنه الطريق الوحيد لتطورنا وتقدمنا ، ولا مانع من تناول ألوان الاشتراكيات المختلفة التي أتى بها الغرب . فالاشتراكية في موسكو التي قامت بها طبقة العمال ، غير الاشتراكية في بكين التي قامت بها طبقة الفلاحين ، غير الاشتراكية في فرنسا وإيطاليا ، وهكذا . وكانت الثقافة الاشتراكية هي ثقافة العصر . ومن لا يرتدي زي الموضة ، فهو جاهل أو رجعي . وكان الاشتراكيون يتناولون أحاديثهم السياسية وحواراتهم ومقالاتهم ، وكأننا قوم غُر أو حديثي الولادة ، أو كأن ليس لنا ماضي أو تاريخ . أو كأننا من سكان الغابات ، وقد خرجنا حديثًا نبحث عن مدينة نذوب فيها .

ولا شك أن الحرية هي أغلى وأعز مطلب في حياة الإنسان . ولا يشعر بني آدم أنه إنسان إذا كان مكبلًا بالقيود والأغلال . وتكميم الأفواه ، وحجب الآراء ، ومصادرة الفكر ، وفرض فكر بعينه ، هو لون من ألوان الاستعباد ، لا يشعر به إلا الأحرار ، وكلما علت قيمة الحرية وا رتفعت عند المرء ، كلما شعر بالاستبداد ، وضاق بتكميم الأفواه . وإذا كان فولتير ، وهو أحد فلاسفة الثورة الفرنسية ، قد عبر عن قيمة الرأي لدى الإنسان وأهميته حينما قال ، وهو يشير بسبابته إلى المقصلة : قد اختلفت معك في الرأي ، ولكن ادفع حياتي ثمنا لكي تقول رأيك . فهو يعبر عن قيمةرأي الإنسان في الحضارة الغربية ، الذي لم يحصل على حريته إلا بعد أن قدم الثمن من دماء الآلاف والأرواح ، حتى تتحطم القيود والأغلال ويسقط الاستبداد وتحصل الشعوب على حرياتها .

وقبل ذلك بقرون قد جاءت في حضاراتنا الإسلامية والعربية أقوال هادئة وحكيمة تعبر عن قيمة الرأي للإنسان واحترام الرأي الآخر . إذ اشتهر الإمام أبو حنيفة النعمان بقول كثيرا ما كان يردده في نهاية فتواه أو قوله : قولنا هذا رأي ، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه . وقول الإمام الشافعي رحمه الله : قولك صواب يحتمل الخطأ ، وقولي خطأ يحتمل الصواب . وفوق ذلك ، ومن قبل ألم يقل الحاكم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قوله المشهور وهو يوبخ عامله : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا .

ومما قدمنا يتبين أن الحرية قيمة أساسية في كل حضارة ، وهي ضرورية ولازمة لتحقيق أي نهضة أو تقدم . كما أن قول فيلسوف الثورة الفرنسية يدل على قيمة الحرية عند قوم مسلوبة حريتهم ويناضلون من أجل نيلها ، أما الأقوال التي ذكرنا في الحضارة العربية ، فهي تدل على حكم قد قام على إقرار مبدأ الحرية أساسًا للحكم ، وعلماء الأمة يدعون لممارستها بحكمة وهدوء ، فالغاية ليس رأيك أو رأيي ، وإنما الغاية هي الوصول إلى الأصلح . ومن ثم فليس ما يدعو لكي تدفع حياتك أو أدفع حياتي ثمنًا لرأيي أو لرأيك . وأما إذا سلبت الحرية وقيدت ، فلا مناص من مواجهة الاستبداد والقهر منادين بأعلى صوت : الحرية ولو بالدم .

# الفصل الثالث

## استمرارية حركة ٢٤ يناير

عادت الدراسة بالجامعات مع بداية شهر إبريل سنة ١٩٦٨ ، بعد أن توقفت أكثر من شهرين إثر مظاهرات الطلبة التي تفجرت في يوم ٢٤ يناير ، وقد صدر قرار من الرئيس بالعفو عن جميع الطلبة الذين اعتقلوا في المظاهرات أو بعدها ، وقد شكل الرئيس جمال عبد الناصر وزارة جديدة من أساتذة الجامعات ، وعين نفسه رئيسًا لها ، كما صدر قرار جمهوري بتجنيد كل دفعات الجامعات ، والمعاهد العليا والمتوسطة من خريجي عام ١٩٦٧ ، بالقوات المسلحة لمقدرتهم على استيعاب الأسلحة الحديثة التي تم تسليح الجيش بها استعداد لحرب التحرير ، على أن تظل هذه الدفعات ، والدفعات التي تليها من الخريجين مجندة لحين الانتهاء من المعركة ، وكانت أجهزة إعلام الكذب والغش والتدليس ، قد زيفت الحقائق كعادتها ، وصوروا للناس أن طلبة الجامعة قد خرجوا في مظاهراتهم التي وقعت في ٢٤ يناير ، يطالبون بتشديد الأحكام على قادة الجيش الذين أتهموا بالمسئولية عن الهزيمة ، وبالطبع كانت الحقيقة غير ذلك تمامًا ، ولكنها مؤسسات قد نمت وترعرت على الكذب ، وأتقنت فنونه ، ولا تعرف غير ممارسته ، وتزييف الحقائق ، كما ازداد نشاط الاتحاد الاشتراكي العربي في تحميل المشير عامر رحمه الله ، وقيادات الجيش مسئولية الهزيمة ، وإقناع الناس بذلك ، وكان علينا أن نقاوم هذه الأكاذيب ، وأن نبين للناس الحقيقة ، وكان ذلك أمرًا صعبًا للغاية ، وهل كان الرئيس يعلم بمطالب الحركة الطلابية التي عبرت عنها هتافات الطلبة يوم ٢٤ يناير ؟ أم قد وصلته تقارير خاطئة وكاذبة ؟ فقد قال في أحد خطاباته وبالتحديد في أول خطاب له بعد حركة ٢٤ يناير : أن الطلبة خرجوا في مظاهراتهم يطالبون بتشديد الأحكام على القادة المتهمين بالمسئولية عن الهزيمة ، ولا يعلم أحد من أين أتى الرئيس بهذا الكلام ؟ وهل معنى هتافنا الشهير الذي ردده عشرات الآلاف من الطلبة ، وسمعه الملايين من المصريين : لا صدقي ولا الغول ، عبد الناصر هو المسؤول ، فهل في معنى ذلك ، أو في طياته ، تشديد الأحكام على القادة الذين حملوهم مسئولية الهزيمة ، وقد نقلت وكالات الأنباء العالمية هذا الهتاف ، ووضحت معناه ، بينما لم تنقله أي صحيفة مصرية ، وتبارت كل صحيفة في الكذب والتزوير ، وعلى كل فنكتفي بهذا الدليل المعلن الواضح ، وإن كانت هناك أدلة أخرى ،

ونلتمس للرئيس العذر ، فالكذب أداة من أدوات سياسة القهر والأغلال وتكميم الأفواه ، أما إذا الشعب نال حريته ، فحينئذٍ يصير كذب الحاكم عليه جريمة شنعاء ، ولا تغتفر .

ومع ذلك كله ، فصراحة كنا ممزقين بين حب عبد الناصر ، وحب مصر ، وما حب عبد الناصر إلا نابعًا من حب مصر ، ولولا انتصارات عبد الناصر ، وإنجازاته وإخلاصه وحبه لمصر ، لما أحبه مصري ، وإذا كان عبد الناصر قد ساسنا من قبل إلى الانتصارات والإنجازات ، فعلينا الآن أن نسوسه حتى لا يتخاذل ، ولا يسدل الستار عند محاكمة قادة الجيش وتنتهي مسرحية الهزيمة ، وكنا نتناول هذه الأمور ببساطة وضحك ، وإن كنا نتجرع المرارة ، وما لبث الرئيس إلا قليلًا ، فأعلن عن مبدئه الشجاع ، ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ، وأعلن عن بدء حرب الاستنزاف .

ومع بداية عام ١٩٦٩ ، بدأت حركة المقاومة الفلسطينية فتح ، تقوم بأعمال فدائية من الجبهة الأردنية ضد العدو الصهيوني داخل الأراضي الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧ ، كما بدأت القوات المسلحة السورية أيضًا حرب الاستنزاف ضد العدو الإسرائيلي ، وأخذت المدفعية المصرية تطلق قذائفها على العدو الصهيوني من القناة ، وتتجاوب معها المدفعية السورية من الجبهة السورية ، وتؤازرهم عملية فدائية للفلسطينيين داخل الأراضي المحتلة ، وأخذ العالم كله يدرك أن العرب لن يستكينوا ، ولن يستسلموا ، وبرغم الهزيمة التي أحاطت بالعرب فلم يعلنوا عن استسلامهم ، وبعد وقف إطلاق النار بعدة أيام أخذ الجيش المصري في خوض عدة معارك محدودة ضد قوات العدو ، ويحقق انتصارات في كل معركة يخوضها فقد وقعت معركة رأس العش في أواخر شهر يونيو ١٩٦٧ ، وتلتها معركة جزيرة شدوان ، وقيام البحرية المصرية بإغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات ، وقد بدأت القوات المسلحة المصرية حرب الاستنزاف قبل أن يعلنها الرئيس ، وربما يكون ذلك هو السبب الذي شجع الرئيس ، الذي لم يكن ينقصه الشجاعة ، أن يعلن حرب الاستنزاف ، وبعد عودة القوات المصرية من اليمن ، والتي أخذت على الفور ، مواقعها على الجبهة ، وأخذت المعارك تسخن وتشتد أخذ العدو الصهيوني يبني حصونًا في سيناء ، يختبئ وراءها كعادته ، فهم لا يقاتلون إلا من وراء جدر أو حصون مشيدة ، فأخذ في إقامة خط بارليف الشهير ، وأخذ في تحصينه ، وظن أنه سوف يختبئ وراءه بعيدًا عن القوات المصرية التي أخذت تدكه يوميًا ، وتدمر مواقعه خلف حصونه ، كما أخذت طائراتنا تطهر في سماء مصر وتشتبك مع طائرات العدو ، وتقوم بعمليات الإبرار الجوي ليلًا خلف خطوط

العدو المختبئ في حصونه وخلف الجدر ، فتقوم بحمل أبطال من رجال القوات المسلحة ، حملوا أرواحهم فوق أيديهم وتقدموا للاستشهاد ، من أجل عزة مصر وكرامتها ، في عمليات احتمال الشهادة فيها تفوق بكثير احتمال العودة ، وليس ذلك بغريب أو عجيب فهم شباب مصر ورجالها ، وإني إذ أخط هذه السطور ، لا أستطيع أن أحبس دموعي ، حينما أعود بالذاكرة إلى تلك الأيام ، وأتذكر أصدقائي من الجنود ، وصف الضباط ، والضباط ، والذين حينما كنا نعلم أن أحدهم قد نزل في أجازة فكنا نسرع إليه ، ونلتف حوله ، ونستمع إلى أخبار المعارك ، وحال قواتنا على الجبهة ، وربما تكون هي المرة الأخيرة التي نراه فيها ، فيعود إلينا في نعش ، أو يبلغنا خبر استشهاده خلف خطوط العدو ، ثم أراني أواسي نفسي فأقول : يا ليتنا كنا معهم ، فنفوز فوزًا عظيمًا .

وبرغم ذلك فقد كنا نخشى أن ما يحدث على الجبهة ، إن هو إلا لعبة سياسية ، يمتص بها الساسة غضب الشعب الذي خرج يزأر في نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، والذي فقدنا الثقة فيه ، ويظن الساسة أن غضب الشعب ، سوف يهدأ ويهدأ حتى يتلاشى، ثم يبقى الوضع على ما هو عليه ، وتأخذ قضية الأراضي العربية المغتصبة في يونيو ١٩٦٧ نفس مسار ، ومصير القضية الفلسطينية ، والتي اتخذها الحكام العرب لعبة كقميص عثمان ، من أجل تحقيق مآرب أخرى ، ومن أجل البقاء في الحكم ، وقد أخذ الساسة والعسكريون والحكام في العالم العربي كله قضية فلسطين لعبة من أجل الوصول إلى الحكم ، أو الاستيلاء عليه ، والبقاء فيه حتى يحرروا فلسطين .

**نداء الحرية والعزة والكرامة :**

وأخذنا نتهامس ، ونتشاور فيما بيننا في وقت الراحة بين المحاضرات والتي كانت نصف ساعة فخفضت إلى ربع ساعة ، منذ بدء العام الدراسي ، وكانت تتعقب الثلاث محاضرات الأول في أول النهار راحة كبيرة تمتد إلى ثلثي ساعة فخفضت هي الأخرى إلى الثلث ، وعلى كل فقد سرى الاتفاق بيننا على وجوب الاحتفال بالذكرى الأولى لحركة ٢٤ يناير ، وتجديد العهد ، ورفع مطالبنا التي تنحصر في الحرية ، وسرعة الانتقام والثأر لشهداء يونيو ١٩٦٧ ، وتطهير الأرض المغتصبة من دنس العدو ، مهما كان الثمن حتى وإن أدى ذلك إلى وقف الدراسة بالجامعات وتجنيد طلبة الجامعة ، وحتى يتذكر الحكام أن حركة ٢٤ يناير لم تنته .

وفي أحد الأيام من شهر يناير ، ألقت السلطة القبض على عدد من الطلبة في مختلف الجامعات ، وقد نشط الاتحاد الاشتراكي العربي بأعضائه وتنظيمه الطليعي في التجسس على

الناس وأخذت الروائح الكريهة تفوح منه ، وقد انحصر دوره في التجسس ، ونشر الشائعات الكاذبة ، وبث روح الاستسلام بين الناس ، وضرب فئات المجتمع ببعض ، وخاصة العمال والطلبة ، فقد أخذ العمال ، الذين سمعتهم بأذني أكثر من مرة يرددون أغاني تتهكم على الطلبة في مترو حلوان ، وهو المواصلة الرئيسية لعمال المصانع المنتشرة بحي حلوان ، وقد بدا واضحًا أنه من تدبير الحزب الحاكم والذي ينتمي للحاكم ، ولا يدين بالولاء لمصر ، ومهما كان حبنا لعبد الناصر ، فلن يكون فوق حب مصر ، والولاء لها فوق كل ولاء ، وحرية مصر وعزتها وكرامتها فوق كل اعتبار ، وكان الرئيس قد وعد في بيان ٣٠ مارس بفتح باب الحريات ، والتعبير عن الرأي ، وهو ما عبر عنه بالديمقراطية ، ولم نر من تلك الوعود غير الاعتقالات ، وتكميم الأفواه .

وفي صباح اليوم التالي تجمعنا في فناء الكلية والحديقة الأمامية ، وأخذنا نخبر الطلبة القادمين الذين لم يعلموا بخبر اعتقال زملائنا ، وأما الذين علموا فكانوا يرفضون حضور المحاضرات ، أو الذهاب إلى المدرجات ، ويتجمعون معنا على الفور وحينما ازداد عددنا ، وامتلأت حديقة الكلية بالطلبة والفناء ، قررنا الخروج في مسيرة إلى الجامعة ، وجاء رئيس اتحاد الطلاب ، والأعضاء في صحبة الأستاذ الدكتور مصطفى حسن عميد الكلية ، والذي أصبح وزيرًا لوزارة الإسكان ، في الوزارة التي شكلها الرئيس من أساتذة الجامعات . والتي كان يرأسها بنفسه ، وطلب منا سيادته أن نجتمع في مدرج فلسطين ، وهو أكبر مدرجات الكلية ، لكي نتدارس الأمر أولًا ، فاستجبنا ، وذهبنا إلى المدرج ، الذي ضاق بنا ، وحضر سيادته في صحبة عدد من الأساتذة ، ولم يستمر الاجتماع دقائق محدودة ، فقد خشي الأساتذة من انهيار المدرج ، وبالتحديد الجزء العلوي منه فقد كانت سعته أو قدرته لا تتحمل أكثر من ألف وخمسمائة شخص ، بينما كان عددنا يربو على أربعة آلاف ، ولم تكن مطالبنا هي مطالب طلبة الهندسة وحدهم ، ولم يكن الطلبة الذين تم اعتقالهم من طلبة كلية الهندسة وحدها ، وإنما كانوا من مختلف كليات الجامعة ، إذن لابد من خروجنا في مسيرة إلى الجامعة ، وعقد مؤتمرنا بها ، ولابد من انتزاع حريتنا وفرض إرادتنا فوق أرضنا ، وخرجنا رغم معارضة اتحاد الطلاب ، ورفضه المشاركة في المسيرة ، ورفضه إعطائنا العلم .

وما أن خرجنا من الباب الرئيسي للكلية المطل على شارع السرايات ، حتى فوجئنا بقوات ضخمة من قوات الأمن المركزي ، الذي استحدثها السيد شعراوي جمعة هذا العام بعد مظاهرات العام الماضي ، أو بمعنى أصح بعد حركة ٢٤ يناير ، التي تفجرت بعد هزيمة يونيو

٦٧ ، وقد انتشرت حول الكلية ، وقطعت الطريق إلى الجامعة ، ولم تكن تبعد سوى خمسين مترًا في الاتجاهين من البوابة الرئيسية كما قاموا أيضًا بقطع طريق جانبي يؤدي إلى شارع العباسية ، فقطعت بذلك علينا كل الطرق المؤدية إلى الجامعة ولم يعد أمامنا من مفر سوى التقدم ، وإما أن يفسحوا لنا الطريق ، وإما يحدث ما يحدث فلن نتراجع ، وإذا كان عبد الناصر قد رفع شعار الشجعان : ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ، فلابد أن ننتزع حريتنا ، ولن نستسلم لقوة تسلب حريتنا ، فتقدمنا في طريقنا في صمت حتى سرنا على بعد خطوات من قوات الأمن المركزي التي بدت في زي أسود كالشياطين ، ويضعون فوق رؤوسهم خوذات سوداء ويمسكون في أيديهم الخرزانات الغليظة ، وباليد الأخرى مصدات حديدية لصد الحجارة ، كما كان يمسك البعض منهم ، ببنادق لإطلاق قنابل الغازات المسيلة للدموع .

أخذنا نتقدم نحو صفوف الأمن المركزي ، ثم وقفنا على بعد عدة خطوات ، وأشرنا إلى أحد الضباط الكبار ، وناديا عليه ، فتقدم إلينا ، وتقدم إليه ثلاثة منا ، أخبروه : أننا مسيرة سلمية صامتة في طريقنا إلى الجامعة ، وهذا من حقنا ، فلا يحق لأحد أن يقطع علينا الطريق ، فأخبرنا على الفور : أن المظاهرات والمسيرات ممنوعة بأمر السيد شعراوي جمعة ، وزير الداخلية ، وهو يقوم بتنفيذ الأوامر ، ويؤدي عمله ، ثم عاد إلى حيث كان ، وعندئذٍ تقدمنا على الفور ، وانطلقنا ننادي : بلادي ... بلادي .. لك حبي وفؤادي ، الحرية ... الحرية ، الكرامة ... الكرامة ، الحرب ... الحرب ، الثأر ... الثأر ، لم كلابك يا شعراوي ، البلد دي بلدنا ، لا اعتقال للأحرار ، الحرية ... الحرية ، الحرية ، ولو بالدم .

وانهالت علينا عصا الأمن المركزي من كل جانب ، فقد هجموا علينا وأحاطوا بنا ، فتراجعنا قليلًا ، وقد استطعنا أسر أحد الضباط ، الذي أحطنا به وأدخلناه إلى الكلية ، ولم يمسه أحد بسوء ، وكان برتبة ملازم أول ، ولا أخفي أنني ، برغم ما كنت أرى ، مع الذين رأوا وجوب عقد محاكمة شعبيه له ، إلا أنني كنت أشعر بالشفقة عليه ، بعد وقوعه في الأسر ، أو في أيدينا ، في معركة فرض الإرادة الشعبية ، وفي أثناء ذلك ، وبسرعة شديدة كانت قوات السلطة قد كثفت الهجوم علينا وانهالت علينا القنابل المسيلة للدموع ، بغية تحرير الضابط الذي وقع أسيرًا ، وقد سقطت عدة قنابل داخل حرم الكلية ، وهو ما يشكل عارًا على دولة العلم والتكنولوجيا ، وقد أتى الأخ رئيس اتحاد الطلبة في صحبة عدد من الأعضاء ، واصطحبوا الضابط الأسير إلى مكتب اتحاد الطلبة لحين عقد محاكمة شعبية له ، ولكن اتحاد الطلاب ، أو بعض أعضائه استطاعوا أن يهربوا الضابط الأسير بعد ذلك ، وعاد إلى موقعه بين قوات القهر .

وظللنا كذلك ، بين هجوم وارتداد ، وكر وفر ، حتى الظهيرة ، ورأينا أن نغير وجهتنا فنتجه إلى ميدان عبده باشا ، حيث كانت القوات تحيط بنا والتي تعزلنا عن الميدان أقل عددًا ، فلم يتوقعوا أن نتجه إلى هذه الجهة ، وسرعان ما انتشرنا في شوارع العباسية والوايلية ، وقد خرج طلبة مدرسة إسماعيل القباني الثانوية ، وانضموا إلينا ، وعلى الفور أتت عربات ضخمة محملة بقوات الأمن المركزي من كل جانب ، وقد انفصلنا إلى جزءين ، جزء داخل الكلية ، وأمامها ، وجزء بميدان عبده باشا وشارع العباسية والوايلية ، وكنت في القسم الذين تفرقوا في ميدان عبده باشا وشارع العباسية والوايلية ، وبينما كانت جموع من الطلبة تضغط على قوات الأمن المركزي من جهة ميدان عبده باشا الذي كان محاصرًا من كل الاتجاهات ، وكنت الجموع الأخرى أمام الكلية ، وبين إلقاء القنابل المسيلة للدموع ، والتي كنا نتناولها ، ونعيد قذفها عليهم مع كميات من الحجارة ، ظهر أحد ضباط القوات المسلحة يسير في شارع العباسية ، ويبدو أنه كان من سكان حي الوايلية ، وهو عائد من عمله ، فتجمع حوله عدد من الطلبة الذين حملوه فوق أعناقهم ، وأخذت الجموع تردد : بالجيش والشعب ، حنكمل المشوار ، لم كلابك يا شعراوي ، وتقدموا به ناحية قوات الأمن ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتقدموا كثيرًا ، فقد انهالت عليهم كميات كبيرة من القنابل المسيلة للدموع ، مما جعل الطلبة يتركون الضابط ، الذي أسرع الخطا نحو حي الوايلية ، وانتشرنا في حي الويلية في مجموعات صغيرة نتحاور مع الناس ، وندعوهم للانضمام إلينا ، فالقضية ليست قضية طلبة الجامعة ، إنما هي قضية فرض إرادتنا فوق أرضنا ، قبل تحرير الأرض المغتصبة ، فالشعب الذي لا يستطيع أن يفرض إرادته فوق أرضه لا يأتي بنصر على عدوه .

وسرعان ما كان الناس ينضمون إلى حركة فرض الإرادة الشعبية ، وقد أغلق الحرفيون والتجار محلاتهم ، وأخذوا ينضموا إلينا ، وأخذت أعداد المتظاهرين في التزايد طوال النهار ، وأخذ الأمن المركزي يدفع بقوات جديدة أيضًا لمواجهة أعداد الثوار المتزايدة ، وإن كان اضطر إلى التراجع حتى القبة الفداوية بشارع العباسية ، ومن الجهة الأخرى تراجع حتى تقاطع شارع أحمد سعيد ، وقد أصبح تعداد الناس الذين انضموا إلينا أكثر من تعداد الطلبة .

وهكذا قد ظلت تترد في أرجاء المنطقة نداءات الحرية ، والثأر ، والحرب ، واسترداد الكرامة طوال النهار ، وقد تحولت الحركة الطلابية في آخر النهار إلى حركة شعبية ، فما طلاب الجامعة إلا الطليعة الواعية الحرة للشعب ، وفي آخر النهار شاهدنا حريقًا يتصاعد منه اللهب ، وانتشر دخان اسود كثيف في شارع العباسية بالقرب من ميدان عبده باشا ، وقد

تبين أنه حريق قد شب في إحدى سيارات الشرطة ، وهي سيارة صغيرة للنجدة ، ولا أخفي أنني قد حزنت أمام هذا المشهد ، فلم يكن من أهدافنا التخريب والحرق ، حتى وإن كانت سيارة مملوكة للشرطة والأمن ، الذين يتخذهم الحاكم أداة للقهر والبطش وكبت الحريات وإرهاب الشعب .

ودخلت مع عدد من الزملاء إلى حارة من حواري الوايلية ، وجلسنا سويًا على الرصيف نستريح ، ونتحدث سويًا ، وقد شعرنا بجو من الأمان بين أهلنا البسطاء الذين يمتازون بالمروءة والشجاعة ، والنجدة والشهامة ، ولم نكن نتهامس ، بل نتحدث بأصوات عالية ، كذلك كان يتحدث كل الناس الذين أحاطوا بنا ، ومنهم من عرض علينا الأكل ، ومنهم من عرض علينا أن نستريح في بيته ، ونشرب الشاي ، فشكرناهم ، فلم نكن نشعر أننا في حاجة إلى شيء غير الماء ، برغم أن الجو كان باردًا ، فقد كنا في شهر يناير ، أي في الشتاء . وخلاصة ما دار بيننا أن سلطا ت الهزيمة ، وقوات البطش بالشعب والقهر والإرهاب ، والتي صارت جيوشًا جندها وأعدها السيد شعراوي جمعة ، وقد بدت في زيها الأسود كالشياطين فتصرفت طيلة النهار بغباء شديد . ولكل فعل رد فعل ، فالغباء رد فعله غباء ، وإن لم يكن يساويه في القوة ، فربما يفوقه في المضمون . كما تصرفت سلطات الهزيمة بغباء شديد منذ البداية ، حينما اعتقلت عددًا من الطلبة بواسطة جهاز استحدثه أيضًا السيد شعراوي للإرهاب وسلب الحريات وتكميم الأفواه ، وهو ما سمي بجهاز مباحث أمن الدولة . وها هم الناس قد أحرقوا سيارة للشرطة ، ولا يعلم أحد إلى أي نهاية سوف تنتهي هذه الليلة التي كنا في بدايتها ، وقد اقتربت الشمس من الغروب . وجاء إلينا أحد الأشخاص ، فأخبرنا أنه قد صدر قرار بإيقاف الدراسة في الجامعات إلى أجل غير مسمى .

وأما عن الطلبة المعزولين داخل الكلية وأمامها ، فقد انضم إليهم إتحاد الطلاب بأعضائه جميعًا منذ أن حدثت المواجهات مع قوات الأمن المركزي . وبعد إذاعة خبر إيقاف الدراسة ، فقد قرروا جميعا الاعتصام داخل الكلية ، أو اضطروا إلى ذلك بعد أن شددت قوات الأمن الحصار . وقاموا بتركيب مكبرًا للصوت على إحدى شرفات الكلية ، وأخذوا يذيعون الأناشيد الوطنية ، ونداءات إلى الجماهير للانضمام إلى حركة ٢٤ يناير لفرض الإراد الشعبية .

وقد طالت جلستنا على الرصيف ، وكأن كل منا كان ينتظر غيره أن يهم فيأخذ بيده أو يشجعه ، فقد برح بنا التعب ، ولم نكن ندري إذا قمنا ماذا سوف نفعل ، فلم يعد لدينا مقدرة على الجري ، والكر والفر ، وكأن الكل كان يفكر أين سيبيت ليلته ، فقد شعرنا بالأمان في

هذا المكان ، وهو بالقطع لن يكون متوفرًا في بيوتنا . ومنا من ألقي عليه القبض من قبل وزج به في المعتقل . ومن الغبن أن نمكن زوار الفجر منا . فقد اتفقنا فيما بيننا ألا نذهب إلى بيوتنا ، وإذا كان أي منا ليس أمامه مكانًا يختفي فيه ، فلا حرج ، وعلينا أن ندبر له مكانًا ، ويبدو أن تجربة العام الماضي قد جعلت كلًا منا يرتب أموره ، وقمنا ، ومضينا سويًا نخترق حواري الوايلية وشوارعها الخلفية بعيدًا عن عيون السلطة ، حتى وصلنا إلى تقاطع شارع أحمد سعيد مع شارع مصر والسودان مع شارع رمسيس ، أو بالقرب منه ، ووجدنا أمامنا محل نجف لسندوتشات الفول والطعمية ، فدخلنا تلقائيًا ، فقد كان الجوع قد استبد بنا ، فتناولنا سندوتشاتنا أو التهمناها ، بلا كلام أو دردشة ، إلا أنه قبل أن نفرغ من أكلنا أخذ أحد الزملاء ينظر إلى كل واحد منا نظرة فهمنا معناها أنه يريد أن يقول شيئًا ، فتجمعنا حوله ، وأخبرنا أن نخرج من المحل ويمضي كل بمفرده ، وبالطبع لم نسأل ، وبمجرد ما خرجت من المحل ونظرت حولي ، رأيت رتل «صف» من عربات الأمن المركزي التي تقوم بنقل الجنود تقف بجوار سور الكلية الأمريكية للبنات .

لم أذهب هذه المرة للاختفاء في حي شبرا ، وإن كنت لم أذهب بعيدًا ، فقد ذهبت إلى حي روض الفرج ، المتاخم لحي شبرا أو المتلاحم معه ، فقد رأيت أن أبتعد عن كل الأصدقاء الذين اعتدت زيارتهم ، وذهبت إلى شاب مغترب من أبناء سوهاج قد جاء إلى القاهرة للدراسة بأحد المعاهد الأزهرية ، وكان يعيش في شقة مكونة من حجرتين ، يعيش في إحداهما ، وأما الحجرة الأخرى فقد كانت مغلقة ، وهي تخص صاحب البيت الذي وضع فيها متاعه وأغلقها ، ولم يكن بهذا البيت كهرباء ، فكان صاحبي الأزهري يذاكر دروسه على كلوب ، يقوم بإشعاله يوميًا قبل المغرب ، ويجيد إصلاحه كلما لزم الأمر ، وبرغم بساطة تلك الحجرة إلا أنها كانت مرتبة ، فقد كان بها سرير حديد ينام عليه صاحبي ، وبجانبه كنبة للضيافة ، يجلس عليها الضيوف ، وينام عليها ضيفه الثقيل أو المضطر ، كما كان بها دولاب يضع فيه ملابسه ، وبوفيه صغير بجواره يضع فيه كل ما يخص الطعام ، بجانبه سبت أو وعاء البصل ، ولما جلست إلى صاحبي بعد أن ارتحت قليلًا ، وتناولنا الشاي في هذا الجو البسيط القديم ، وكان من عادة مضيفي أن ينام مبكرًا ، فلا تدق الساعة الحادية عشر إلا ويكون قد غط في نوم عميق ، ولما كنت متعبًا ، ومرهق للغاية ، فقد نمت قبل منه ، وقد استيقظ صاحبي مبكرًا وعاد ومعه الإفطار وصحيفة الأهرام ، فتناولتها منه على عجل ، وأخذت أتصفحها ، وقد علمت منها ، أو بمعنى أصح من بين السطور ، وتنقية الكذب ، أنه لم يكن طلبة كلية

الهندسة ، جامعة عين شمس وحدهم الذين قاموا بتظاهرة احتجاجًا على اعتقال الطلبة ، ومنادينا بالحرية ، والعزة والكرامة ، والثأر وتحرير الأرض السليبة ، إنما قد خرجت جامعة عين شمس بكل كلياتها ، ولكنها كانت محاصرة بقوات الأمن المركزي ، وقد استطاع الطلبة أن يصلوا إلى ميدان العباسية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتعدوه لشدة الحصار الذي ضرب حوله ، وقد خرج طلبة كلية الطب أيضًا ، ولكنهم حوصروا أيضًا ، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ميدان العباسية أيضًا .

كما علمت فيما بعد ، وليس من الصحف أن جامعة القاهرة قد خرجت كل كلياتها ، وحاول الطلبة أن يصلوا إلى ميدان التحرير ، ومنه إلى مجلس الأمة ، ولكنهم لم يستطيعوا ، فقد تضاعف أعداد قوات الأمن المركزي ، أضعافًا مضاعفة عن العام السابق ، وظل الطلبة طوال النهار في معارك مع قوات الأمن بين كر وفر ، وتقدم وتقهقر ، وكذلك وقعت مظاهرات بجامعة الأزهر ، وجامعة أسيوط ، وقد حدث فيهما ما حدث في سائر الجامعات ، وقد اعتصمت أعداد كبيرة من الطلبة في سائر الكليات والجامعات ، وقد هاجمت قوات الأمن في الفجر سائر الاعتصامات ، وتم إلقاء القبض على الطلبة المعتصمين أمام جامعة الإسكندرية ، فقد كان لها وضع خاص ، إذ أن اتحاد الطلبة بها كان برئاسة طالب حر بكلية الهندسة ، ويبدو أنه كان أكثر الطلبة شجاعة ، وإيمان بالحرية ، وأهالي الإسكندرية بصفة عامة مشهورين بالشجاعة والشهامة ، فقد استطاع الأخ عاطف الشاطر ، الطالب بكلية الهندسة ، ورئيس اتحاد طلاب جامعة الإسكندرية أن يجمع ، ليس فقط طلبة جامعة الإسكندرية وحدهم ، بل قد نجح أيضًا في جمع أهالي الإسكندرية جميعًا في انتفاضة شعبية وتظاهرة كبيرة ضد نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، ومناديا بالحرية والكرامة والثأر وتحرير الأرض السليبة ، وقد قام طلاب جامعة الإسكندرية بتعليق عدة مكبرات للصوت فوق أسوار الجامعة التي التف حولها أهالي الإسكندرية الأحرار ، وأخذت تصدر من داخل الجامعة عبر مكبرات الصوت الأناشيد الوطنية ، والنداءات إلى الأهالي حتى ينضموا إلى حركة ٢٤ يناير ، حركة فرض الإرادة الشعبية ، والتي تحولت هذا العام من حركة طلابية إلى حركة شعبية ، وظلت مدينة الإسكندرية معزولة عن الجمهورية العربية المتحدة لمدة ثلاثة أيام ، وظل طلبة الإسكندرية معتصمين داخل الجامعة طوال هذه الفترة ، ولم تستطع قوات الأمن المركزي أن تقتحم جامعة الإسكندرية وتفض الاعتصام ، ولم تستطع السلطة أن تفض هذا الاعتصام إلا بعد أن استعانت بقوات خاصة من القوات المسلحة نزلت بطائرات مروحية داخل حرم الجامعة

وفضت الاعتصام ، وألقي القبض على الطلبة المعتصمين داخل الجامعة ، وقد أذاع راديو عمان بالأردن خبر انفصال مدينة الإسكندرية عن الجمهورية العربية المتحدة ، وقد تأكد هذا لمن لم يسمع ، حينما ذكر الرئيس عبد الناصر في خطاب ألقاه بعد فض الاعتصامات وإيقاف الدراسة بالجامعات ، فقد رد متهكمًا على هذا الخبر الذي أذاعه راديو عمان : انفصلت الإسكندرية عن الجمهورية العربية المتحدة ، وحتنضم لمين ؟! حتنضم لإسرائيل ؟! ثم أخذته الحمية الوطنية المصرية المحبوبة ، وأقسم على تحرير الأرض السليبة قائلًا : قسمًا لنحررن الأرض السليبة شبرًا شبرًا ، وصفقت له وحيته الجماهير ، فبرغم كل ما كان يحدث ، إلا أننا لم نحمل يومًا كراهية لعبد الناصر ، وللحق نجد أنه لزامًا علينا أن نذكر ، أن جميع الطلبة الذين ألقي القبض عليهم ، وتم اعتقالهم ، لم يتعرض أيًا منهم للأذى أو الإهانة ، وكانوا ينامون على أسرة ، وكان يقدم لهم أكلًا طيبًا .

إلا أنه قد تم التعامل مع الأخ عاطف الشاطر بشدة وقسوة ، مع عدد من الطلبة من أعضاء اتحاد طلبة جامعة الإسكندرية ، فقد عقدت لهم مجالس تأديب داخل الجامعة ، وصدرت قرارات بإيقافهم عن الدراسة لمدة عامين ، وتم تجنيدهم الفوري ، وبقي عاطف الشاطر رمزًا من رموز النضال الوطني .

**جماعة العلم الأخضر :**

مكثت حوالي سبعة أيام مختفيًا عند صديقي هذا ، وقد فكرت بعد يومين أنه ربما يكون سوف يسافر إلى بلده لكي يقضي فترة إيقاف الدراسة بين أهله ، ولكنه أخبرني أنه لن يسافر نظرًا لارتباطه بدروس خصوصية ، لعدد من طلبة الإعدادية والثانوي، ولا يمكن أن يتأخر عنها ، وكان يخرج يوميًا لقضاء مصالحه ودروسه ، ولم تكن من وسيلة للتسلية سوى راديو صغير «ترانزستور» وصحيفة يومية ، ربما تكون الأهرام أو الأخبار ، وكنت أقضي اليوم في قراءتها ، والاستماع للراديو ، وقد خرجت صحافة الكذابين في الأيام التالية بعد إيقاف الدراسة ، تصف ما حدث من حركة طلابية ، قد تحولت إلى حركة شعبية ، قد عمت البلاد ، بأنها عمل من تدبير قلة منحرفة من مثيري الشغب ، وأخذ محترفو الكذب من الذين يسمون بالصحافيين في التباري في قذف الحركة الطلابية لفرض الإرادة الشعبية ، وانتزاع الحرية ، من نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة وتحطيم القيود والأغلال ، ولم يكن متاح للكتابة والتعبير عن الرأي لغير خدام السلطة ، سواء كان ذلك في الصحافة أو غيرها ، وأخذت التحليلات السياسية لصحافي السلطة ، والكتاب والسياسيين تذاع في إذاعات القاهرة

المختلفة ، عقب نشرات الأخبار ، والكل يتبارى في قذف الحركة الطلابية والتي ولدت وطنية ، نقية ، شريفة نظيفة ، والتي كان نواتها أولئك النفر من طلبة الجامعة الذين هرعوا إلى جامعاتهم بمجرد سماعهم بأول نبأ عن نشوب القتال بين العرب وإسرائيل في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، من أجل التطوع في صفوف المقاومة الشعبية ، لتشكيل جيوشًا شعبية تحمي وتؤازر ظهر الجيش المتقدم نحو تل أبيب ، وما كانت إلا أكذوبة ، وبرغم انكشاف الأكذوبة ، إلا أن أدوات نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة من الصحافيين والكتاب ، والإعلاميين بصفة عامة ما زالت تمارس ما تجيده من كذب وغش وتضليل ، وتدليس .

والحقيقة أننا ما كنا نقرأ ذلك أو نسمع إلا على سبيل التسرية والمزاح ، فقد سقط النقاب عن الوجوه الغابرة ، وحقيقة الكذابين باتت سافرة ، وبرغم من فقدان الثقة في نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، إلا أننا لم نفقد الثقة يومًا في قواتنا المسلحة التي قُيدت في ٥ يونيو ٦٧ ، ولم تتمكن من الحرب ومواجهة العدو ، ولابد أن تستمر حركة فرض الإرادة الشعبية ، والنداء بالثأر واسترداد الكرامة ، حتى يعلم العالم أجمع أن الشعب المصري لم يستكين إلا بعد تحرير الأرض العربية المغتصبة .

وأعود إلى حيث كنت أقضي تلك الأيام مختفيًا عن عيون السلطة وزوار الفجر في ضيافة صديقي الأزهري ، في حجرته المتواضعة ذات الكلوب ، والذي كان صديقي يحرص على أن يعود إليها قبل الغروب ، حتى وإن اضطر أن يتوقف عن حصة ويستأذن لكي يوقد الكلوب ، ثم يعود إلى مواصلة درسه ، وكان صاحبي هذا يجيد إلقاء التواشيح الدينية ، وكنا نجلس سويًا في دفء الكلوب نتسامر ، وألح عليه أن ينشد ويوشح ، وكان يسعد بذلك ، وكان هذا الجو يشعرني وكأنني أعيش في ثورة ١٩١٩ ، وكثيرًا ما كانت تعبر ذاكرتي ذكريات العلم الأخضر ذي الهلال والثلاثة نجوم ، هذا العلم الذي عاش في وجداننا رمزًا للكفاح والنضال ، هذا العلم الذي رفعه الآباء والأجداد في مسيرتهم الخالدة ضد الاستعمار والاستبداد ، هذا العلم الذي هو علم الشعب المصري ، هذا العلم الذي كان مولده نجمة تشكلت صليبًا ، عانقه الهلال على رقعة حمراء إيذانًا بالثورة الشعبية ، وإعلانًا عن وحدة الشعب المصري ، وإعلانًا عن الحركة التحريرية الكبرى ، ولم تكن ثورة الشعب المصري في ١٩١٩ ، ثورة على النطاق المحلي فحسب ، بل كانت الشرارة التي أشعلت نيران الثورات في الشرق كله ضد الاستعمار ، وضد الاستبداد ، ويكفيها شهادة التاريخ ، ويكفينا أن نتذكر ما سطره عنها زعيم الهند العظيم المهاتما غاندي ، والذي قال عن ثورة الشعب المصري في ١٩١٩ : حينما رأيت

الشعب المصري ، وهو شعب صغير العدد والعدة ، استطاع أن يوحد بين صفوف أبنائه ، وأن يواجه المستعمر ، ويملي إرادته عليه ، قررت أن أوحد بين صفوف شعوب الهند ، وأن أواجه المحتل .

وحينما استقرت ثورة ١٩١٩ ، وحققت أهدافها باعتراف إنجلترا باستقلال مصر في ١٩٢٢ ، وأفرج عن زعماء الثورة المنفيين وعلى رأسهم زعيم الثورة سعد باشا رغلول ، وعادوا جميعًا إلى أرض الوطن ، وصدر دستور ١٩٢٣ ، وتحققت الحياة النيابية السليمة في البلاد ، رأى زعيم الثورة أن يختفي العلم الأحمر ذو الصليب في عناقه مع الهلال ، وأن يرفرف في سماء مصر العلم الأخضر ذو الهلال والثلاثة نجوم ، رمز الخضرة والنماء والسلام ، وكانت النجوم الثلاث رمزًا للوحدة بين مصر وليبيا والسودان ، وفي الهلال السمو والسماء ، وإعلان عن التوحيد ، ولم يستكن العلم الأخضر ، وبدأت مسيرة جديدة للشعب المصري في طريق كفاحه ونضاله من أجل الحرية والعزة والكرامة ، وظل الآباء والأجداد يرفعونه في مسيرة الكفاح ضد الاستعمار ، وضد الاستبداد ، وقد رفعه الرئيس جمال عبد الناصر مرتين في عام واحد ، هو عام ١٩٥٦ ، ليعلن في المرة الأولى في ١٨ يونيو ١٩٥٦ عن الاستقلال الكامل لمصر ، وقد رفعه على آخر موقع للجيش الإنجليزي في الإسماعيلية بعد جلاء آخر جندي إنجليزي عن أرض مصر ، ثم عاد فرفعه من جديد في نفس العام ، في يوم ٢٣ ديسمبر ، فوق مبنى الإرشاد ، بهيئة قناة السويس ، ببورسعيد ، ليعلن عن جلاء آخر جندي من القوات المعتدية على مصر في حرب السويس ، وليعلن عن انتصار الشعب المصري ، وفرض إرادته فوق أرضه بزعامة عبد الناصر ، الذي أعلن تأميم قناة السويس لتمويل مشروع السد العالي ، وخضنا المعركة وراءه ، ورفعنا رؤوسنا ، وشعرنا بالعزة والكرامة .

أخذت ذكريات العلم الأخضر تعبر ذاكرتي ، حتى تخمرت في رأسي فكرة ، واعتمل الأمر داخلي ، أننا كطلبة جامعة ليس لنا مطالب خاصة ، ولم نخرج في مظاهرات لكي نعبر عن مطالبنا وآرائنا وحدنا ، إنما هي مطالب وآراء كل الشعب ، الذي هو أهلينا ، وعلى أهالينا أن ينضموا إلينا ، ويجب أن نغير من طريقة مواجهتنا للسلطة ، وأن نغير أيضًا مواقع المواجهة ، فقد اعتادت السلطة مواجهة المظاهرات أمام الجامعات ، وأعدت العدة لذلك ، وجهزت قوات الأمن المركزي ، وما يفوق تعداد طلبة الجامعات بكثير ، وقد تم لها في عامين متتاليين السيطرة على المظاهرات ، وإخماد الحركة الطلابية لفرض الإرادة الشعبية ، وكان لانضمام طلبة مدرسة إسماعيل القباني الثانوية بميدان عبده باشا لطلبة كلية الهندسة – جامعة عين شمس – أثر

في نفسي ، ففكرت أن نعد طلبة المدارس الثانوية في الأحياء المختلفة من القاهرة مع مدرسيهم للخروج في مظاهرة قادمة تخرج من مختلف أحياء القاهرة رافعة الأعلام الخضراء ، في نفس التوقيت الذي تخرج فيه المظاهرات من جامعة القاهرة ، وجامعة عين شمس ، وجامعة الأزهر ، وسوف يخرج الأهالي تلقائيًا وراء أبنائهم من طلبة المدارس الثانوية ، على أن يكون تجمعنا جميعًا في ميدان التحرير ، وبذلك نتنزع حريتنا ، ونفرض إرادتنا فوق أرضنا ، وتشتت بذلك قوات الأمن المركزي ، وتضعف على قهر الإرادة الشعبية ، فقد تبلورت قضية الشعب مع نظام الحكم الذي أدى بنا إلى الهزيمة في قضية الحرية ، فمن حق الشعب أن يعبر عن رأيه ، ويعلو بصوته ، وأن يتجمع في مسيرات ومظاهرات وقتما يشاء ، وأن يعقد مؤتمراته في أي مكان حتى وإن كان أكبر ميادين القاهرة .

وعاد صاحبي ذات ليلة ، وقد اختمرت الفكرة واتضحت الرؤية وعقدت العزم على تشكيل جماعة العلم الأخضر ، والحقيقة أنني كنت مللت هذا المحبس الاختياري الذي اختفيت فيه بعيدًا عن عيون السلطة ، وزوار الفجر ، فصارحت مضيفي بما يعتمل داخل نفسي ، ولما وصلت إلى حجم المظاهرة والتجمع في ميدان التحرير ، فرد على الفور باحتمال سقوط عبد الناصر ، إذا تم ذلك ، فرددت بلا تردد : وما المانع أن يسقط عبد الناصر ، لتحيا مصر ، وننال حريتنا ، وعندئذٍ بكى صاحبي الأزهري الصعيدي ، ولا أخفي أنني كدت أن أبكي معه ، فقد غُرس في نفوسنا منذ الصغر حب عبد الناصر ونشأنا على حبه ، ولكن حب مصر هو مصدر حب عبد الناصر ، وهو فوق كل حب ، وما لبث صاحبي أن اقتنع بالفكرة ، وصار على الفور ثاني عضو في جماعة العلم الأخضر ، وأخذ على عاتقه أن يربي في تلاميذ الثانوي والمدرسين من أصدقائه على وجوب المشاركة في المظاهرات ، وبث روح الوطنية والحرية في تلاميذهم ، وكما أبلغته بعزمي على الخروج في الغد وقت الغروب لزيارة أصدقائي بحي شبرا ، للوقوف على آخر الأخبار عن زملائنا المعتقلين ، والدعوة للانضمام لجماعة العلم الأخضر ، وحاول أن يثنيني عن عزمي هذا ، وكان يرى أنني عنده في مأمن بعيد عن عيون السلطة ، ولكني طمأنته بأنني إذا شعرت بقلق في أي مكان ، فسوف أعود إليه ، وفي اليوم التالي ، حينما جاء صاحبي لإشعال الكلوب ، وقت الغروب ، ودعته ، ومضيت .

وذهبت مباشرة إلى أحد الأصدقاء بكلية الطب ، جامعة عين شمس ، وكان يسكن بحي الحفظية ، وهو أحد الأحياء الشعبية بحي شبرا ، وأهل هذا الحي مشهورون بالشهامة والشجاعة والمروءة ، وكان والد صاحبي هذا قد بنى له غرفة فوق السطوح ، ليذاكر فيها

ويسهر براحته بعد أن دخل كلية الطب ، وقد اتخذها أصدقاؤه كملتقى لهم ، وبرغم من بعد صاحبي هذا عن المظاهرات وعدم اشتراكه فيها إلا أنني كنت كثيرًا ما أجلس إليه أتشاور معه في أي أمر ، وكنت أحترم رأيه منذ أن كنا زملاء في المدرسة الثانوية ، وما أن التقيت بصاحبي هذا في غرفته فوق السطوح ، حتى أبلغني أن أحد الأصدقاء قد حضر إليه ، وألح في السؤال عني ، وأبلغه أنه ذهب إلى بيتي بحي كوبري القبة ، بعد المظاهرات ، وقد أبلغه من كان في البيت أنهم لا يعرفون عني شيئًا ، منذ أن خرجت من البيت صبيحة إيقاف الدراسة بالجامعة ، إثر المظاهرات التي وقعت ، فرأيت أن أبيت عند صاحبي هذه الليلة ، وفي الغد أذهب إلى الصديق الذي سأل عني ، وحينما كنا نجلس سويًا نتسامر ، ونتبادل الأخبار جاء إليه أحد إخوته الصغار ، وأخبره أن اثنين من أصحابه الجيران يسألون عنه ، ويريدون أن يصعدوا إلى الغرفة ، فطلب منه أن يبلغهم أنه سوف يذهب إليهم حينما ينتهي من مذاكرته ، ثم خرج وراء أخيه ، وأسر إليه ببعض كلمات ، ولما عاد أبلغني أن أحدهم عضو بالتنظيم الطليعي بالاتحاد الاشتراكي العربي ، ولا يود أن يعرف أني عنده .

وجلست إلى صاحبي ، نتبادل الأخبار ، ونناقش الأحداث ، ثم صارحته بما نويت من تشكيل جماعة للعلم الأخضر لتطوير مواجهتنا للنظام الذي أدى بنا إلى الهزيمة ، وانتزاع حريتنا ، وفرض إرادتنا فوق أرضنا ، فاستحسن الفكرة ، ولكنه اعتذر عن الانضمام للجماعة لكثرة مذاكرته ، وعرض عليَّ أن يقدم خدماته ، ومشاركته ، بقدر المستطاع ، وبت عند صاحبي هذا ، وفي اليوم التالي ، ومع الغروب ، ودعته ، وذهبت إلى الصديق الذي سأل عني ، وكان طالبًا بكلية الفنون التطبيقية بجامعة القاهرة ، وكان أبوه عضوًا بارزًا بالاتحاد الاشتراكي العربي ، ويعمل أمينًا تنفيذيًا لأحد المكاتب بالقاهرة .

وهناك استقبلني صديقي بترحاب شديد ، وجاء إخوته ووالدته ، وصافحوني ، وجلسوا معنا ، فقد كانت تربطنا صداقة حميمة ، منذ الدراسة الثانوية ، وكنا لا ننقطع عن بعض ، ثم جاء والده وكان مرتديًا ملابس الخروج ، فصافحني ، وهو يقول : انت لسه عايش ، ما تخفش ، وشد على يدي ، واستأذن وانصرف .

وبينما كنت أجلس إلى صديقي على انفراد أخبرني أنني كنت عنده في مأمن متخفيًا عن عيون السلطة إثر مظاهرات العام الماضي ، وأتت المباحث ذات يوم في الثامنة صباحًا للقبض عليَّ ، وكنت قد غادرت البيت مبكرًا ، فقابلهم والده وأخبرهم أنني عضوًا معهم في التنظيم الطليعي بالاتحاد الاشتراكي العربي ، وأبرز لهم بطاقة العضوية ، فانصرفوا على الفور ، وقد

أخبره والده بعدها ، أنني قد سُجلت كذلك لدى مباحث أمن الدولة ، من وقتها ، وبذلك بعدت عيون السلطة عني ، وأخبرني صاحبي بهذا ، ثم ضحك ، وهو يقول : اعمل اللي انت عايزه ، وبعد كده ، يبقوا يجوا يقبضوا على الحاج ، وبعد أن جلسنا نتبادل الأخبار ، ونتحاور سويًا ، عرض عليَّ أن أبيت عنده ، ولكني رأيت أنه لم يعد بي حاجة للابتعاد عن بيتي ، فودعت صاحبي وعدت مباشرة إلى بيتي بحي كوبري القبة .

**ثورة في ليبيا :**

عدنا إلى الدراسة بعد أن توقفت شهرًا تقريبًا ، وكان على الأساتذة الدكاترة أن يعوضوا ما فاتنا من محاضرات ، وعلينا أن نضاعف من مجهودنا في الدراسة ، والاستذكار ما بقي من العام الدراسي ، من شهر أبريل ، وحتى نهاية الامتحانات ، مع منتصف شهر يونيو ١٩٦٩ ، في هدوء وسلام ، وإن كان هذا كله ، لم يشغلنا عن متابعة الأخبار على الجبهة ، أو بمعنى أشمل على الجبهات العربية ، وقد أخذت حرب الاستنزاف التي أعلنها الرئيس جمال عبد الناصر ، تنشط وتزداد شدة وضراوة يوما بعد يوم ، وعلى الجبهة السورية ، كانت تقوم المدفعية السورية بدك حصون العدو ومواقعه وعلى الجبهة الأردنية نشطت المقاومة الفلسطينية «فتح» بتنفيذ عمليات فدائية تنطلق من الضفة الغربية لنهر الأردن ، إلى الضفة الشرقية في الأراضي الفلسطينية التي احتلها العدو الصهيوني في ٥ يونيو ٦٧ ، وكان يحدث ذلك بمعدل عملية على الأقل يوميًا ، وقد نشطت في الإجازة الصيفية للدعوة لجماعة العلم الأخضر ، وإعداد الكوادر من مدرسي الثانوي ، والطلبة أيضًا ، ولم تعد الدراسة تشغلني ، مثلما كانت تشغلني مسألة الثأر واسترداد الكرامة ، ورفع الرأس ، فقد استولى عليَّ شعور بالذل والهوان ، منذ ٥ يونيو ٦٧ ، وكثيرًا ما كان يعبر ذاكرتي الأخوة الليبيين الذين التقيت بهم في ١٠ يونيو ٦٧ في شقتهم ، في حي روكسي ، بمصر الجديدة ، وكانوا يفكرون في نسف قاعدة هويلس الأمريكية بطرابلس ، والذين طلبت الانضمام إليهم ، وطلبوا متفجرات وسلاح من الحكومة المصرية ، فأمرت بترحيلهم إلى بلادهم .

وفي يوم الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ ، أذيع خبر قيام مجموعة من ضباط الجيش الليبي بانقلاب ضد الملك السنوسي ، وتم استيلائهم على الحكم وإعلان الجمهورية ، وقد طلب الملك المخلوع نقله إلى القاهرة ، لقضاء ما بقي له من العمر فيها ، كما طلب أن يدفن فيها بعد وفاته ، وقد أجاب الثوار طلبه ، ولم تمض عدة شهور على قيام الثورة ، حتى طلب العقيد القذافي من الولايات المتحدة الأمريكية ، الجلاء عن قاعدة هويلس بطرابلس ، وهي التي

قال عنها الرئيس جمال عبد الناصر بعد الهزيمة : أننا كنا نتوقع أن تهاجمنا طائرات العدو من الشمال الشرقي ، ولكنها هجمت علينا من الغرب ، مبررًا بذلك الهزيمة ، وبعد جلاء القوات الأمريكية عنها سميت بقاعدة عقبة بن نافع ، نسبة إلى القائد العربي الذي قام بفتح ليبيا والمغرب العربي ، وقد تم جلاء القوات الأمريكية عن القاعدة بسرعة مثيرة للدهشة ، وقد سافر الرئيس جمال عبد الناصر ، بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر بعدة شهور قليلة إلى طرابلس بدعوة من قائد الثورة العقيد القذافي ، وقد استقبله الشعب العربي في ليبيا الاستقبال المعتاد من شعب عربي لزعيم الأمة العربية ، فأينما كان يذهب الرئيس جمال عبد الناصر إلى أي بلد عربي ، كان الشعب العربي يستقبله بحب وحفاوة تفوق كل وصف ، وفي طرابلس وقع الرئيس والعقيد القذافي على مشروع انضمام الجمهورية العربية الليبية إلى الجمهورية العربية المتحدة «مصر» ، وقد رأى الرئيس ألا يغلق باب الوحدة العربية ، بعد تجربة الوحدة الفاشلة بين مصر وسوريا في عام ١٩٥٨ ، والتي لم تستمر أكثر من ثلاثة أعوم ، وقد وقع بعدها الانفصال من الجانب السوري ، ورأى الرئيس أن تبقى مصر على اسم الجمهورية العربية المتحدة ، وأن يبقى العلم كما هو نفس العلم الذي كان يرفرف في القاهرة ودمشق زمن الوحدة بينهما ، وهو العلم المصري الحالي ، إلا أنه في الوسط ، أي في اللون الأبيض كان تتوسطه نجمتين خضر ، يرمزان إلى دولتين ، على أن يزداد عدد النجوم نجمة كلما انضمت إحدى الدول العربية إلى الجمهورية العربية المتحدة ، وعلى أن نستفيد من فشل التجربة ، ونبحثها بعناية ، ونقف على أسباب الفشل فنتحاشاه ، وأن تتم الوحدة على مراحل ، ولا ننتقل من مرحلة لأخرى ، إلا بعد نجاحها ، وانتهاء فترتها الزمنية .

**يوم الشهيد :**

بدأنا الدراسة في أكتوبر كالمعتاد ، للعام الجامعي ١٩٦٩ - ١٩٧٠ ، وكانت حرب الاستنزاف تزداد شدة وضراوة على العدو الذي يتحصن في حصون يظن أنها منيعة ، وجدر يحسبها مانعة ، إلا أن المدفعية المصرية كانت تدك تلك الحصون يوميًا ، فتصيب جنوده ، وتقضي عليهم في خنادقهم ، وليس هذا وحسب ، بل كانت تقوم قوات خاصة أو انتحارية تحملها المروحيات المصرية ، وتقذف بها خلف خطوط العدو ، ويقوم جنود مصر بتنفيذ المهام والعمليات المنوط للرجال بها ، كما كانت هذه القوات الخاصة تقوم بعبور القناة في قوارب مطاطية ، في حماية المدفعية المصرية ، التي كانت تقوم بدك مواقع العدو للتمويه على عبور الرجال للقناة في قواربهم ، وهي من أخطر العمليات التي كان يقوم بها الرجال . واحتمال

الشهادة أكثر بكثير من النجاة ، ولم يكن الرجال يبالون فقد رفعوا شعار : النصر أو الشهادة .

ولم تقم القوات الإسرائيلية بمثل هذه العمليات التي لا يقدر عليها إلا الرجال ، بل كانت ترد بشن غارات جبانة بطائراتها على مواقع مدنية ، فقد قامت بشن غارة على مدرسة بحر البقر الابتدائية واستشهد عدد من الأطفال والمدرسات ، كما قامت الطائرات الإسرائيلية بشن غارة على أحد المصانع بأبي زعبل واستشهد فيها عدد من العمال ، وهذا على سبيل المثال ، وليس للحصر ، إلا أن طائراتنا في هذا العام قد نشطت ، وأخذت تظهر في سماء مصر ، وهي تطارد طائرات العدو المغيرة ، وقد اعتدنا في هذه الأيام على وداع الشهداء الذين كانوا يعودون من الجبهة في توابيت ، ويخرجون في جنازات عسكرية مهيبة ، يحيط بهم أهاليهم وذويهم والجيران والناس جميعًا بالفخر والإعزاز والتوقير ، وبرغم من استحداث نظام جديد للدراسة بالجامعة ، وهو نظام الدورين «أي الترمين» أو الامتحان مرتين في العام الدراسي ، بحيث يدرس الطالب نصف المواد في النصف الأول من العام ويمتحن فيهم ، ثم يدرس نصف المواد الآخر من المواد ، ثم يمتحن فيه في آخر العام ، وهو نظام قد فرضته الدولة لإشغال الطلبة بالامتحانات ، فيبتعدوا عن المظاهرات ، والاعتصامات ، والاحتجاجات ، إلا أن هذا لم يكون عائقًا ، ففي هذا الجو الذي وصفت فقد شعرنا بشيء من الاطمئنان أن القيادة جادة في تحرير الأرض المغتصبة ، والثأر ، واسترداد الكرامة ، ولم تحدث في هذا العام الدراسي أي عام ١٩٦٩ – ١٩٧٠ سوى مظاهرة واحدة ، ولم تكن مظاهرة ضد السلطة ، إنما كانت مظاهرة حب ووفاء وفخر وإعزاز وتوقير .

ففي يوم التاسع من مارس ١٩٧٠ ، فاجأتنا الأخبار بنبأ استشهاد الفريق أول عبد المنعم رياض ، رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلمة بين قواتنا على الجبهة ، فأوقفنا الدراسة في هذا اليوم من أول محاضرة ، وهو اليوم التالي لاستشهاده المحدد للجنازة ، وخرجنا في مظاهرة صامتة واتجهنا إلى ميدان التحرير لوداع الشهيد ، الذي صار المثل الأعلى للعسكرية المصرية ، وهو صاحب القول المأثور : إن على القائد أن يكون دومًا بين قواته ، وأن يكون أقرب إلى المقدمة ، منه إلى المؤخرة ، ولم تكن تلك كلمة إنشائية ، إنما كانت قول وعمل ، وهكذا هم الرجال ، فكان قدوة للرجال في حياته ومثلًا أعلى بعد استشهاده ، وها هي مصر تثبت للعالم أجمع أنها ولادة ، ولن تكون عاقرًا ، وكثير من الطلبة لم يذهبوا إلى كلياتهم ، وذهبوا مباشرة إلى ميدان التحرير لوداع الشهيد ، وخرجت الجنازة من مسجد عمر مكرم بعد صلاة الظهر ، وقد حمل الرجال نعش الشهيد الذي التف بالعلم فوق الأعناق ، ووضعوه في

عربة مدفع يجرها الخيل ، في مشهد مهيب ، يتقدمه الرئيس جمال عبد الناصر والفريق أول محمد فوزي القائد العام للقوات ، وكبار القادة ، والوزراء ، وكبار رجال الدولة ، وتحيط به جموع لا تحصى من الطلبة ، والجماهير من سائر طوائف الشعب ، وما لبثت جنازة الشهيد أن تحولت إلى مظاهرة كبيرة في حب مصر ، تنادي : بلادي .... بلادي ، لك حبي وفؤادي ، وتنادي بالثأر ، ونقسم على المضي في طريق الشهيد حتى النصر أو الشهادة .

وكم من شهداء سقطوا على الأرض الطيبة وارتوت بدمائهم من أجل مصر ، وكثير منهم لم يعثر لهم على جثث أو تحولت جثثهم إلى أشلاء . ويبقى النصب التذكاري للجندي المجهول شاهدًا على عظماء الرجال الذين جادوا بأغلى ما تجود به النفس ، لتحيا مصر . وكم من الرجال المدنيين أيضًا قد استشهدوا من أجل مصر . فليست الشهادة مقصورة على العسكريين وحسب . وعلى سبيل المثال وليس الحصر ، ففي المصانع الحربية المنتشرة في حي حلوان ، والتي كان يصنع بها بعض الأنواع من دانات المدفعية والقذائف ، قد انفجرت المعامل أثناء العمل ، وسقط عشرات من الرجال شهداء الوطن . وكم أتمنى أن يقام في مدخل كل مصنع قد استشهد به رجال ، لتحيا مصر ، نصبا تذكاريا لهم .

ويمر بي العمر وأسترجع شريط الذكريات ، وأستوقفه عند عام ١٩٧٠ الحافل بالأحداث الجسام ، والأحداث الطيبة أيضًا والتي طمستها الأحداث الحزينة . فقد واتتني فرصة زيارة السد العالي للتدريب بشركة المقاولون العرب . وكانت الشركات قد فتحت أبوابها لتدريب طلبة الجامعات في مختلف التخصصات : وهو بلا شك عمل نافع وإيجابي ، وإن كان وراءه هدف سياسي ، وهو ملء وقت فراغ طلبة الجامعات أثناء الأجازة الصيفية ، وإبعادهم عن السياسة والترتيب للمظاهرات . والحقيقة أنه ما كان شيء يمكن أن يشغلنا عن معركة الثأر واسترداد الكرامة وتحرير الأرض المحتلة . فقد كنا نحمل همومنا وأحزاننا أينما ذهبنا .

وفي احتفالات عيد الثورة المعتادة في شهر يوليو ، وفي هذا العام ، تم الاحتفال بانتهاء المرحلة الثانية والأخيرة من مشروع السد العالي ، ولم يتبقى سوى أعمال تكميلية بسيطة . ولم يحضر الرئيس جمال عبد الناصر افتتاح ذلك المشروع الحضاري العملاق ، وهو أضخم مشروع قد تم تنفيذه في مصر خلال القرن العشرين ، والذي أعلن من أجله عبد الناصر تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٦٥٦ ، وخضنا من أجله معركة السويس ، وخرجنا منها منتصرين بزعامة عبد الناصر ، ولم يستطع الاستعمار أن يثني المصريين عن بناء نهضتهم وتقدمهم . ولكننا حرمنا من الفرحة والاحتفال بهذا المشروع العظيم . فقد حضر السيد

حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية الافتتاح في احتفال بسيط ليعلن الانتهاء من بناء السد العالي ، الذي عملت مولدات الكهرباء به (التوربينات) بكامل طاقتها ، وأخذت الكهرباء تتنقل عبر أبراج الضغط العالي إلى سائر أنحاء الجمهورية لتنير المدن والقرى والنجوع ، وتنشر العمران وتدير المصانع .

وتوقف البدء في تنفيذ المشاريع الأخرى القائمة على السد العالي بسبب حرب الاستنزاف والاستعداد للمعركة وما تستلزمه من نفقات . وعلى سبيل المثال ، فكان من المفروض استصلاح وزراعة حوالي اثنين ونصف مليون فدان حول بحيرة ناصر جنوب السد ، والتي نما فيها السمك وتضخم ، حتى أن الصيادين كانوا يقومون بصيده ثم يقومون بإلقائه ميتا في البحيرة لعدم وجود منافذ للتوزيع ، ولو تم تسيير قطار ثلاجة بين بحيرة ناصر وسائر أنحاء الجمهورية لنقل أسماكها بعد التجميد لما احتجنا لاستيراد أردأ أنواع الأسماك .

وقد سقط في هذا المشروع العملاق كثير من الشهداء الذين عملوا في التنفيذ أثناء تفجير الصخور لحفر بحيرة ناصر ، وفي تحويل مجرى النهر ، وكان من الواجب إقامة نصب تذكاري لتخليد ذكرى شهداء السد العالي الذين انضموا لشهداء معركة السويس لتكتمل ملحمة الوطنية من أجل بناء السد العالي .

## أيلول الأسود

لم تكن مصر يومًا ، في معزل عن الأمة العربية ، ولم تتخل عن قضية فلسطين التي هي لب الصراع العربي الإسرائيلي ، ولم تتخل عن دورها العربي ، وقد أقر مؤتمر القمة العربي الذي عقد في الخرطوم ، في أعقاب هزيمة يونيو ٦٧ ، مساعدات ومعونات لدول المواجهة ، وهي مصر ، وسوريا ، والأردن ، وقد التزمت بهذه القرارات الدول العربية المانحة ، كما أرسلت بعض الدول العربية وحدات من جيوشها إلى الجبهة المصرية لمساندة الجيش المصري في مواجهته مع إسرائيل ، وقد جعلت القوات المسلحة المصرية مواقع لهذه القوات العربية في المؤخرة ، وجعلت القوات المسلحة المصرية في المقدمة ، فهي أحق بالمواجهة ، والهجوم ، وكانت مصر تتحدث باسم الفلسطينيين ، وخاصة منذ عام ١٩٥٥ ، بعد أن تأكدت قيادتها للأمة العربية ، كما أدت أحداث عام ١٩٥٦ ، من تحدي عبد الناصر للغرب ، وتأميم قناة السويس ، لتمويل مشروع بناء السد العالي ، وخروجه منتصرًا في حرب السويس ، والسنوات التي تلتها بتحويل عبد الناصر إلى رمز للقومية العربية ، وظلت مصر تؤدي دور المتحدث الرسمي باسم الفلسطينيين حتى عام ١٩٦٤ ، حينما أوجدت الجامعة العربية هوية خاصة بهم ، في منظمة التحرير الفلسطينية ، وإن كانت تحت سيطرة مصر ، والقوات المسلحة لها كانت جزءًا من الجيوش المصرية والسورية والعراقية والأردنية .

وقد نشأ جيل جديد من الفلسطينيين في المنفى لهم ذكريات عن فلسطين ، وتعلموا في القاهرة وبيروت ودمشق ، وتأثروا بالحركة الفكرية المنتشرة بها ، وظهرت تدريجيًا في أواخر الخمسينيات حركة سياسية من نوعين ، منظمة فتح الملتزمة بأن تظل كاملة الاستقلال عن النظم العربية ، والتي لم تكن مصالحها هي مصالح الفلسطينيين ، وأيضًا ملتزمة بالمواجهة المسلحة مع إسرائيل ، وعدد من الحركات الأصغر التي خرجت من الناصريين ، والقوميين العرب في لبنان ، وتحركت تدريجيًا باتجاه التحليل الماركسي للمجتمع ، والعمل الاجتماعي والإيمان بأن الطريق لاستعادة فلسطين يكمن في الثورة الشاملة في البلدان العربية .

وفي عام ١٩٦٥ ، بدأت هذه الجماعات في القيام بعمليات داخل إسرائيل ، وأخذ الإسرائيليون في القصاص ، لا ضد سوريا التي كانت تدعم الفلسطينيين ، ولكن ضد الأردن ، وفي سنوات ما بعد ١٩٦٧ ، تنامى الشعور الوطني الفلسطيني ، وتزايدت قوة

«فتح» وسيطرت منذ عام ١٩٦٩ على منظمة التحرير الفلسطينية ، وأدى ذلك إلى عدد من الأعمال الفدائية ضد إسرائيل ، وانصبت أعمال الردع الإسرائيلية على الأراضي التي كان للفلسطينيين فيها بعض من حرية الحركة .

وفي عام ١٩٦٩ ، تمكنت مصر من التدخل لعقد اتفاقية بين الحكومة اللبنانية ومنظمة فتح ، تحددت بموجبها الضوابط التي يمكن للمنظمة أن تعمل بموجبها في جنوب لبنان ، وفي العام التالي ١٩٧٠ ، اندلع قتال عنيف في الأردن بين الجيش الأردني ، وجماعات الميلشيات الفلسطينية المسلحة ، وكان ذلك في شهر إبريل ، والذي سمي بشهر أيلول الأسود ، وقد سقط ضحية هذا القتال عشرات الآلاف من القتلى من الجانبين ، ففي يوم واحد سقط عشرون ألفًا من الفلسطينيين ، وظل الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات رئيس منظمة فتح ، مختبأ في خندق أكثر من عشرة أيام ، واستطاعت الحكومة الأردنية فرض سيطرتها ، وانتهت حرية حركة الجماعات الفلسطينية ، وكان ذلك صدمة شديدة للأمة العربية كلها ، وعلى رأسها الرئيس جمال عبد الناصر ، الذي سرعان ما تدخل ، وتوسط حتى أعاد السلام بين الطرفين .

## في ذمة الله

لم يكن ما حدث بالأردن بين المقاومة الفلسطينية ، والجيش الأردني ، بالأمر الهين على الأمة العربية ، وعلى زعيمها ورمز النضال الرئيس جمال عبد الناصر ، ولم يستفد أحد من هذه المصادمات التي سقط ضحيتها عشرات الآلاف من العرب بأيد عربية ، سوى إسرائيل ، وبعد المصالحة بين الأردن والمقاومة الفلسطينية ، قبل جمال عبد الناصر مبادرة روجرز الأمريكية ، والتي سميت باسم وزير خارجيتها ، ولم يعترض أحد على هذا المبدأ ، فقد كان الكل على ثقة في عبد الناصر ، وسياسته ، ولم يتعود المصريون أو حتى الجماهير العربية معارضة سياسته ، فهو رمز الكفاح والنضال ، ورمز الأمل في أمة عربية لها كيان واحد ، لا يريق فيها العربي دم أخيه العربي «أمة تحمي ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، تنشد السلام لها ولمن حولها من البشر جميعًا» ، من كلام الرئيس جمال عبد الناصر .

وكانت حالة الرئيس الصحية آخذة في التدهور ، وازدادت معاناته مع مرض السكر ، الذي أدى إلى تصلب في الشرايين ، وقد ظهر أكثر من مرة وهو يتوكأ على عكاز ، وكان قد سافر للعلاج والاستشفاء بمنتجع «تسخالتابو» بالاتحاد السوفيتي ، في أواخر عام ١٩٦٩ ، وقد عاد وتحسنت صحته بعض الشيء .

وفي أواخر شهر سبتمبر ١٩٧٠ ، عقد مؤتمر للقمة العربية بالقاهرة ، لبحث القضايا العربية ، والأوضاع على الجبهات العربية مع العدو الصهيوني ، وقد ركز المؤتمر على الصلح بين الأردن مع الفلسطينيين ، وقد جلس الرئيس عبد الناصر على أريكة في الوسط بين كل من الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات ، والملك حسين عاهل الأردن ، بعد أن رفض أي رئيس عربي أو ملك أن يجلس بينهما ، فقد كان كل منهما يضع مسدسه على خاصرته ، فجلس الرئيس بينهما ، وظل حتى تم الصلح والتوفيق بينهما .

وفي صباح الثامن والعشرين من سبتمبر ، ذهب الرئيس جمال عبد الناصر إلى مطار القاهرة ليكون في وداع الرؤساء والملوك العرب بعد أن انتهت أعمال مؤتمر القمة العربي ، وظل في المطار طوال النهار ، وكان الملك حسين ملك الأردن هو آخر من ودعه الرئيس جمال عبد الناصر .

وقبل نشرة أخبار الثامنة والنصف ، فوجعت مصر والأمة العربية كلها بخبر وفاة لرئيس جمال عبد الناصر ، والذي نعاه إلى الأمة العربية سيادة النائب الأول لرئيس الجمهورية محمد أنور السادات ، وانطلقت الملايين على الفور إلى الشوارع يبكون جمال ، ويهرولون إلى بيته بمنشية البكري .

وظلت الجماهير في الشوارع تبكي جمال ، وخيم الحزن والحداد ليس على مصر وحدها ، بل على العالم العربي كله ، ففي سوريا خرجت الجماهير إلى الشوارع تبكي جمال ، وفي بيروت ، وصنعاء ، وبغداد ، والخرطوم ، وفي كل بلد عربي وليس هذا فحسب ، بل خيم الحزن والحداد عى إفريقيا كلها ، وقد نقل جثمانه بطائرة مروحية إلى قصر القبة ، حيث ظلت الجماهير محتشدة أمامه في بكاء ونحيب مستمر لمدة ثلاثة أيام ، وأخذت تردد نشيدًا يهدئ النفوس ، وينقلها إلى الواقع بمرارته :

**الوداع يا جمال يا حبيب الملايين**

**الوداع**

**ثورتك ثورة كفاح عشناها طول السنين**

**الوداع**

**إنت ثورة انت جمرة**

**انت آية للعالمين**

**الوداع**

وسرعان ما توافد الملوك والرؤساء العرب ، وكذلك ملوك ورؤساء ووفود الدول الصديقة على القاهرة لتشييع جنازة جمال والعزاء في فقيد مصر والأمة العربية .

وفي صباح الأول من أكتوبر ، وبعد صلاة الظهر ، خرجت جنازة الرئيس من مبنى قيادة الثورة بميدان التحرير ، وحمل الجثمان في النعش ملتف بالعلم فوق الأعناق إلى مسجد عمر مكرم ، حيث صلى عليه جمع غفير من الناس .

وخرجت الجنازة من المسجد ، واندفع إلى النعش جمع كثير من الناس يتسابقون في حمله فوق الأعناق ، وهم يبكون ، وعلى الفور أمر الفريق أول محمد فوزي بوضعه فوق عربة مدفع ، والتي أخذت تتحرك في بطء شديد وسط تلك البحار من الناس الذين جاءوا لوداع جمال ، وسارت الجنازة في بطء شديد بين ملايين المصريين الذين يبكون جمال ويرددون نشيد الوداع ،

وكان يتقدم الجنازة الملوك والرؤساء العرب ، والسيد أنور السادات النائب الأول لرئيس الجمهورية ، وأعضاء مجلس قيادة الثورة ، والوزراء ، وكبار رجال الدولة .

وقد دفن الرئيس جمال عبد الناصر في مقبرة ملحقة بمسجد قد حمل اسمه بحي كوبري القبة أمام الكلية الفنية العسكرية ، وقد وقف الملوك والرؤساء العرب أمام جثمان الرئيس جمال عبد الناصر ، زعيم الأمة العربية الراحل ، قبل أن يوارى الثرى ، وأقسموا أن يسيروا في طريق عبد الناصر ، طريق الوحدة العربية ، والتضامن العربي ، والتكاتف ، والعزة والكرامة .

ويعتبر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر خلاصة الوطنية المصرية ، ومن خير ما أنجت مصر خلال القرن العشرين ، فقد عاش من أجل مصر والعروبة ، ومات من أجلهما ، وكما قال السيد أنور السادات في نعيه جمال : لقد فقدت مصر والأمة العربية رجلًا من أعز الرجال ، ومن أشجع الرجال ، وقد أعاد الرئيس الراحل رحمه الله بناء القوات المسلحة وترك على رأسها قائدًا على كفاءة عسكرية عالية ، وقد اشتهر بالصلابة والصرامة ، وهو الفريق أول محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة ، ولم يتبق من تجهيز وإعداد القوات المسلحة للحرب ، سوى استكمال حائط الصواريخ لحماية سماء مصر من هجمات طائرات العدو .

وتخبرنا حياة جمال عبد الناصر أنه قد حمل هموم وطنه منذ أن كان شابًا يافعًا بالمدرسة الثانوية حتى المهات ، فقد كان يقود مظاهرات الطلبة ضد الاحتلال ، لما كان يتمتع به من صفات القيادة ، والزعامة المتأصلة في نفسه منذ الصغر ، وشخصية تدعو للاحترام ، وتشع إخلاصًا ، وشجاعة وإقدام ، وكان عدوه يكرهه ، ويحترمه في ذات الوقت فهكذا قد شهد أعداؤه بعد وفاته رحمه الله ، وأخذت هموم وطنه تكبر معه ، وتتبلور الأفكار ، وتتضح الأهداف ، فكان الهدف الأول الذي قامت عليه ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ بزعامة جمال عبد الناصر ، والذي بدونه لا تتحقق الأهداف ، ألا وهو القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة ، ثم القضاء على الإقطاع ، فليس من العدل أن تكون الأراضي الزراعية في أيد حفنة قليلة من الأشخاص ، بينما الغالبية العظمى من الشعب تعيش في فقر وجهل ومرض ، ولكي يتحقق العدل بين الناس لابد من تحرير الحكم من الاحتكار وسيطرة رأس المال ، والعدل لابد له من قوة تحميه ، فكان لابد من إقامة جيش وطني يحمي مكاسب الشعب ويزود عن أراضيه ، ولتحقيق حكم عادل ، لابد من إقامة حياة نيابية سليمة تراقب الحكم ، وتكون مسؤولة عن التشريع .

وبالأهداف الخمسة السابقة يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتلك هي الأهداف الست التي قامت من أجلها حركة الضباط الأحرار ، التي قامت في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بزعامة جمال عبد الناصر .

وأخذت حركة الضباط الأحرار تحقق أهدافها ، فقد تم ترحيل الملك السابق فاروق عن البلاد ، في هدوء ، وأمان وسلام ، وقد تحقق بذلك للحركة الثورية في مصر بعدًا حضاريًا جديدًا في تاريخ الثورات ، فقد احترمت ملك مصر ، الذي كان بالأمس رمزًا لذات مصر ، وإهانته هي إهانة لمصر ، ولم تشنق ملكها ، ولم تعدمه رميًا بالرصاص ، ولم تهنه . كما هو متبع في الثورات ، ثم وقع قائد الثورة اتفاقية الجلاء مع الإنجليز في عام ١٩٥٤ ، وفي ١٨ يونيو ١٩٥٦ ، تم رحيل آخر جندي بريطاني عن أرض مصر ، وقام زعيم الثورة برفع العلم المصري فوق آخر بقعة مصرية تم جلاء القوات الإنجليزية عنها ، وهي القاعدة العسكرية بمدينة الإسماعيلية ، وفي عام ١٩٥٣ صدر قانون الإصلاح الزراعي ، وتحديد الملكية الزراعية ، وتوزيع الأراضي على صغار الفلاحين ، وتم تحرير الحكم من سيطرة رأس المال والاحتكار ، وصدر قرار بحل الأحزاب القائمة من قبل قيام الحركة الثورية ، وقد تم ذلك من أجل إقامة حياة نيابية سليمة ، ولكن الحركة أخفقت في تحقيق هذا الهدف ، وأخذت تتجه إلى النظام الشمولي ، ونظام الحزب الواحد ، فأقامت أول ما أقامت منظمة التحرير ، والتي كانت أول تنظيم جماهيري ، معبرًا عن فكر الحركة الثورية وإرادتها ورغباتها ، ثم نبثق من منظمة التحرير ، وقام الاتحاد القومي كتعبير عن الإرادة الشعبية في الوحدة العربية ، وبعد تجربة الوحدة العربية الفاشلة مع سوريا ، والتي انفصلت في عام ١٩٦١ ، وصدور القرارات الاشتراكية ، أخذ عبد الناصر يتجه إلى تطبيق الاشتراكية في مصر ، تغير اسم الحزب الأوحد من الاتحاد القومي إلى الاتحاد الاشتراكي العربي ، وصدر الميثاق الوطني في عام ١٩٦٢ ، ليكون عهدًا ومنهاجًا للتطبيق الاشتراكي المصري .

وها هو زعيم الثورة قد مات رحمه الله ، بعد ثمانية عشر عام من قيام الثورة ، دون أن تتحقق الحياة النيابية السليمة ، أما تحقيق العدالة الاجتماعية ، وهي الغاية القصوى للحركة الثورية ، فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه قد تم تحقيق الكثير في طريق العدالة الاجتماعية ، ولكنها كانت مرتبطة بشخصية جمال عبد الناصر ورعايته ، كما أخذت الحركة منذ قيامها في إقامة جيش وطني قوي ، وأخذ تعداد الجيش في الازدياد المستمر ، وزاد الاهتمام بتطوير السلاح ، والمعدات مع التطوير المستمر للأداء .

**التحول الثوري :**

إذن فقد توفي عبد الناصر رحمه الله ، عن تحقيق خمسة أهداف من أهداف حركة ٢٣ يونيو ١٩٥٢ ، التي باركها الشعب ، والتف حولها ، فتحولت إلى حركة ثورية ، ولم تعرف مصر في

خلال تلك الفترة ، الحياة النيابية السليمة ، فقد كان برنامج الحركة ، برنامجًا سياسيًّا محدودًا ، ولم تكن تحكمه نظرية سياسية محددة ، بخلاف المناداة بالمصالح الوطنية ، كموقف يعلو مصالح الأحزاب ، والفرقاء ، والاتجاهات السياسية ، وإحساس بالتضامن مع جماهير الفلاحين الذين ينتمي إليهم معظم أفراد حركة الضباط الأحرار ، وبمرور الوقت اكتسبت الحركة صفات ثورية ، ارتبطت بشكل عام بشخصية جمال عبد الناصر ، وتبلورت الناصرية كنظرية اجتماعية ، وتحولت إلى ثورة تهدف إلى تغيير جذري وشامل للمجتمع ، وكانت لغة الإسلام ومنطقه ، اللغة الطبيعية التي استخدمها قادة الثورة في نداءاتهم للجماهير ، وكانوا بشكل عام يمثلون طبقة إصلاحية في نطاق الإسلام والتي لم تعارض ، بل على العكس ، شملت أشكال الحداثة والتغيير التي أدخلوها استحسان الإسلاميين ، وقد أصبح الأزهر تحت السيطرة الحكومية بشكل صارم .

ثم تحول التركيز على جاذبية الإسلام بشكل عام ، أقل من التركيز على جاذبية القومية والوحدة العربية ، وأخذ عبد الناصر ينظر إلى مصر كجزء من العالم العربي ، بل وزعيمه الطبيعي ، كما أمن أيضًا وعمل على توظيف هذه الريادة باتجاه الثورة الاجتماعية ، وملكية الدولة والسيطرة على وسائل الإنتاج وإعادة توزيع الدخل ، وكلها كانت أساسية لتعظيم القوة الوطنية ، ولإذكاء الدعم الشعبي للنظام ، واكتمل تبلور الحقيقة الثورية لثورة ٢٣ يوليو ، حينما جرى تسويغ الإصلاح الاجتماعي بمصطلح «الاشتراكية العربية» وهي نظام وسط بين الماركسية التي تؤيد صراع الطبقات ، والرأسمالية التي تعني سيادة المصالح الفردية وسيطرة الطبقات التي تملك وسائل الإنتاج ، أما في الاشتراكية العربية فإن المجتمع بكامله يلتف حول حكومة تعمل من أجل الصالح العام ، كما أن الاشتراكية العربية تخالف الماركسية في الإلحاد واحتكار الأديان ، فهي تؤمن بالله ، وبالأديان السماوية ، وتتخذ منهم العون على تحقيق أهدافها ، وقد طرحت هذه الفكرة أو نظرية الاشتراكية العربية في الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ الذي جاء فيه :

«فالثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الأمة العربية أن تخلص نفسها من الأغلال التي كبلتها ، والوسيلة الوحيدة لمعالجة التخلف الذي فرض عليها نتيجة طبيعية للقهر والاستغلال ، فإن وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على أن تطوي المسافات بين التخلف الذي حال مداه بين الأمة العربية وبين غيرها من الأمم السابقة في التقدم ، والثورة بعد ذلك هي الوسيلة الوحيدة لمقابلة التحدي الكبير الذي ينتظر الأمة العربية وغيرها من الأمم

التي لم تستكمل نموها ، ذلك التحدي الذي تسببه الاكتشافات العلمية الهائلة التي تساعد على مضاعفة الفوارق ما بين التقدم والتخلف ، بل إن طول المعاناة بين هذه الأهداف كاد أن يفصل مضمونها ويرسم حدودها ، لقد أصبحت الحرية الآن تعني حرية الوطن وحرية المواطن ، وأصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية هي الكفاية والعدل ، وأصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية للعودة إلى الأمر الطبيعي – أمة واحدة» .

وجاء في الميثاق أيضًا :

«إن الديمقراطية السياسية مستحيلة بلا ديمقراطية اجتماعية بما يعني الملكية العامة لوسائط الاتصالات والخدمات العامة الأخرى ، والمصارف ، وشركات التأمين ، والصناعات الثقيلة ، والمتوسطة ، والأكثر أهمية التجارة الخارجية ، ويجب أن يكون هناك تكافؤ في الفرص ، والرعاية الصحية والتعليم للجميع رجالًا ونساء على السواء ، وتشجيع تنظيم الأسرة ، وتذويب الفوارق بين الطبقات بالوحدة الوطنية ، وكذلك الانقسامات بين الدول العربية ، وأن مصر يجب أن تنادي بالوحدة العربية ورفض الادعاء بأن هذا يعد تدخل في شئون الدول الأخرى» .

وفي السنوات القليلة التي تلت ذلك نفذت إجراءات الإصلاح الاجتماعي بصرامة ، وتضمنت ساعات العمل والحد الأدنى للأجور ، وتوسيع مظلة الخدمات الصحية . وتوزيع نسبة من أرباح الصناعات على التأمين الاجتماعي ، والخدمات الاجتماعية .

**الطريق الناصري :**

وجدير بالذكر في هذا الصدد أن الرئيس جمال عبد الناصر ، رحمه الله ، يعتبر من زعماء العالم القلائل الاشتراكيين ، والذين قاموا بتطبيق الاشتراكية على أنفسهم ، ولا يستطيع أحد أن ينكر ذلك ، إلا أن يكون جاحدًا أو حاقدًا ، ولا أنسى كلمة قالها لي أحد الأخوة الفلسطينيين : إننا لم نر عبد الناصر في حياته كلها إلا ببدلتين أو ثلاثة بالكثير ، كما وصف أشخاص قد دخلوا بيته سواء كانوا مدرسين لإعطاء أبنائه دروسًا خصوصية ، أو لتأدية خدمات كالإصلاح أو الصيانة ، أو لأي سبب آخر ، فقد أجمع كل من دخل بيته ، أنه كان بيتًا متواضعًا في أثاثه وديكوراته وزينته .

وقالوا : أنهم دخلوا بيوتًا كثيرة لغيره من الناس ، على ترف ورفاهية وزينة أكثر من بيت الرئيس ، ويبقى برج القاهرة شامخًا على مر الزمن ، شاهدًا على نظافة يد جمال ، فقد اتفقت المخابرات الأمريكية معه في عام ١٩٦٠ ، على أن يهاجم السوفيت ، العدو اللدود للأمريكان ،

وأعطته مليون دولار مقابل ذلك ، على أن ينفذ في خطابه في عيد الثورة ، فأخذ المليون دولار الأمريكي ، وبنى بهم برج القاهرة ، ولم يهاجم السوفيت ، فلم يكن عبد الناصر من السياسيين الذين يُشتروا أو يُستأجروا ، وهذه شهادة كبرى على نظافة يد عبد الناصر ، فقد كان الطريق الناصري ، طريق الطهارة والعفة والإخلاص .

كما اتسم عبد الناصر بالوضوح في طريقه السياسي والفكري منذ بداية حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فحينما تم توقيع اتفاقية انسحاب القوات الإنجليزية من مصر عام ١٩٥٤ ، رفض انضمام مصر إلى نظام الدفاع الغربي ، ورفض انضمام مصر إلى حلف بغداد ، وهو الحلف الذي تكون بين كل من تركيا ، وإيران ، وباكستان ، والعراق ، بالاشتراك مع بريطانيا ، واختار سياسة عدم الانحياز ، وقد تشكل حوله كتلة من الدول العربية غير المنحازة ، التي كان العالم يتعامل معها ككتلة واحدة ، وأنشأ علاقات وثيقة مع الدول المتحمسة لفكرة عدم الانحياز وهي الهند ويوغسلافيا ، كما كانت الاتفاقية الموقعة في عام ١٩٥٥ لتزويد مصر بالأسلحة من الاتحاد السوفيتي وحلفائه ، هي التي كسرت السيطرة على الأسلحة التي تورد لإسرائيل ، والتي حاولت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا المحافظة عليها ، ورفض كل أشكال السيطرة الخارجية ، وأراد لمصر استقلالًا تامًا ، وإعادة بناء شخصيتها ، وأن تقوم بدورها الريادي للمنطقة ، والتي هي مؤهلة له ، وعاشت مصر معه في عداء مستمر للاستعمار بشتى ألوانه ، وضد استعباد الشعوب ، ونهب ثرواتها ، وسرعان ما أخذ المد الثوري الناصري ، ينتشر في أرجاء الوطن العربي ، والقارة الإفريقية .

كما اتسم فكره أيضًا بالنقاء الوطني والقومي ، وحتى وإن أخذ بتجارب الغرب والفكر الغربي ، فلابد من تنقيته ، لكي يناسب البيئة العربية ، وهويتها ، وموروثها الحضاري ، فإذا كانت الاشتراكية ، وهي لون من ألوان الفكر الغربي القائم على العلمانية ، والإلحاد ، ولا تعترف بالأديان ، فإن الاشتراكية العربية التي دعا إليها عبد الناصر تقوم على الإيمان بالله ، ولا تنكر الإله ، ولا تنكر الأديان ، ولم يكن الحزب الاشتراكي الذي تشكل ، وقام لنشر الاشتراكية العربية ، والتطبيق الاشتراكي على علم وثقافة تؤهله لمهمته ، فلم يكن أغلبه من الأميين والجهلاء فحسب ، بل كانت قياداته أيضًا من الوصوليين والنفعيين ، والهتيفة ، وبدلًا من أن يكون الحزب قناة للتعبير عن الرغبات الشعبية والمقترحات والشكاوى ، أصبح نواة لنقل نوايا الحكومة إلى الشعب ، وعزلوا الرئيس عن الشعب ، وقد تعرفت في هذه الفترة على أكثر من شخص يعمل أمينًا لأحد المكاتب التنفيذية بالاتحاد الاشتراكي العربي ، وكانوا

أميين ، لا يقرأون ولا يكتبون ، وكان كل منهم يتخذ سكرتيرًا يقرأ له ويكتب ، وكانت الكلمة المنتشرة على ألسنتهم أن خروشوف رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي بدأ حياته عاملًا في أحد المناجم ، فقد اختلطت الرؤى داخل الحزب الاشتراكي ذاته ، ولم يكن للاشتراكية العربية من أعلام سوى جمال عبد الناصر ، وإن كان هذا أمر طبيعي ، فهو فكر مستحدث ، ولم يكن لأحد من الشعب علم به من قبل ، وربما يأخذ الفكر سنوات طويلة ، حتى تستوعبه الجماهير ، إلا أن هذا الضعف قد ترتب عليه ، أن نشط الماركسيون المنتشرون في الصحف والمجلات تحت مظلة الاشتراكية ، وأخذوا ينشرون الفكر الإلحادي ، وقد نجحوا في نشر موجة إلحادية ، بين ما يسمى بطبقة المثقفين ، ومن خلالهم انتشرت موجة إلحادية في المجتمع ، واستهانة بقيمه وأخلاقياته وموروثه الحضاري وقدسياته ، حتى أنهم كانوا ينظرون إلى من يصل ، أنه جاهل ومتخلف ، وأن المثقف لا يكون مثقفًا حقًا إلا إذا كان ملحدًا ، وسكيرًا وزير نساء ، وانتشرت في البلاد في خلال حقبة الستينيات موجات لا أخلاقية ، وتخبط بين الإلحاد والضلال ، وبرغم من أن الماركسيين كانوا ينتقدون الاشتراكية العربية باعتبارها مختلفة عن الاشتراكية العلمية القائمة على صراع الطبقات والاعتراف باختلافها ، إلا أنهم استظلوا بالاشتراكية العربية لهدمها ، مما جعل الإسلاميون يتهمونها بأنها تستعمل مفردات الإسلام كغطاء سياسي لسياستها العلمانية .

ولاقت الناصرية والاشتراكية العربية في كثير من البلدان العربية قبولًا شعبيًا هائلًا ومستمرًا ، وقد شجعت شخصية عبد الناصر ، ونجاح نظامه ، والانتصار السياسي في أزمة السويس عام ١٩٥٦ ، وبناء السد العالي ، وإجراءات الإصلاح الاجتماعي ، والتطلع إلى قيادة قوية للدفاع عن القضية الفلسطينية ، كلها قد ساعدت على تقوية الأمل في تحقيق حلم مختلف ، وأمة عربية موحدة مرتبطة بالثورة الاجتماعية الحقة ، لتتبوأ موقعها المناسب في العالم ، وكان مما أنعش هذه الأعمال الاستخدام الحاذق للصحافة والإذاعة ، التي خاطبت الشعوب العربية من فوق رؤوس حكوماتها ، وقد عمقت هذه النداءات من الخلافات بين الحكومات العربية ، وظلت الناصرية رمزًا للوحدة والثورة ، وجسدت نفسها في حركات سياسية ذات منظور واسع ، كحركة القوميين العرب ، التي تأسست في بيروت ، وكان لها صدى واسع بين اللاجئين الفلسطينيين .

**تداعيات الأمل :**

عاش عبد الناصر رحمه الله لآمال كبار ، وطموحات عظيمة ، لمصر والأمة العربية ، حتى وإن قيل : أنه كان يعمل من أجل زعامته ، وإرضاء نفسه ، فلا بأس ، فإن أي عمل يعمله الإنسان

في الحياة ، فهو من أجل نفسه أولًا ، حتى وإن كان في ظاهره من أجل الآخرين ، وحتى الذي يجود بأغلى ما تجود به النفس ويستشهد في سبيل الله ، فهو يفعل ذلك من أجل نفسه ، فقد باع نفسه الفانية ، واشترى نفسه الباقية ، وعظائم الأعمال بعظائم الرجال ، ولا يمكن أن يقوم بعظائم الأعمال إلا عظائم الرجال ، فقد أراد عبد الناصر للأمة العربية غدًا أفضل ، في أمة عربية واحدة ، فتكاثرت عليه الأعداء في داخل الأمة العربية وخارجها ، وكلما اقترب من تحقيق الأمل ، كان أعداء الأمة العربية يهيجون ، ويتكاثرون ، ويحيكون له المؤامرات ، ويدبرون الخطط ، وظل صامدًا في طريق الصعاب والأشواك ، متحديًا الصراعات طوال السنين ، واستمر في الصعود حتى تعدى إمكاناته ، وإمكانات مصر وراءه ، التي أرهق اقتصادها طوال سنين صعود الناصرية ، ونتيجة الصراعات والحروب التي عاشها ، وساءت البنية التحتية للدولة والمرافق العامة ، ووقفت عجلة التطور ، وبدا ذلك في الظهور منذ انهيار الاتحاد بين مصر وسوريا في عام ١٩٦١ ، والتي كانت تكلف الخزانة المصرية مليون جنيهًا مصريًا يوميًا ، أي ما يعادل ستة ملايين دولارات أمريكية وقتها ، ثم يلي ذلك فشل المباحثات حول الوحدة ، والتي أظهرت حدود زعامة عبد الناصر ، وحدود المصالح المشتركة للبلدان العربية ، وخصوصية كل بلد .

وبدا من التجربة معالم الوحدة العربية الواجبة ، وحدودها ، وأن الوحدة العربية ليست في تغيير أسماء الدول العربية إلى اسم واحد ، وليست في اتحاد أعلامها في علم واحد ، فبرغم من أن الوحدة العربية حقيقة واقعة بين الشعوب العربية إلا أن كل شعب ينفرد بخصائص معينة ، ولا نغالي إن قلنا : أن لكل شعب قبليته ، وبعد تجربة الوحدة الفاشلة تورط جيش كبير من القوات المسلحة المصرية في حرب اليمن في عام ١٩٦٢ ، وظل يحارب في ظروف غير عادية عدة سنوات ، وكانت تكاليف هذه الحرب باهظة على الاقتصاد المصري ، ومع ذلك كله ، فلم تتخاذل مصر ، ولم تتراجع عن دورها القومي ، ثم كانت النهاية في هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وأبت مصر أن تفرط فيه ، وظل رمزًا للنضال القومي ، حتى بعد وفاته رحم الله جمال عاش في قلوب الجماهير حيًا وميتًا .

# الفصل الرابع

## السادات والحكم

بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله ، تولى على الفور الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الأمة مهام رئيس الجمهورية ، بموجب الدستور ، وبعد الانتهاء من الجنازة والدفن ومراسم العزاء ، رشح الحزب الأوحد - الاتحاد الاشتراكي العربي - السيد محمد أنور السادات النائب الأول لرئيس الجمهورية ، والذي اختاره الرئيس الراحل لهذا المنصب قبل وفاته بأقل من عام ، وقد تم الاستفتاء على رئيس الجمهورية في ٥ أكتوبر وأدى الرئيس السادات اليمين الدستورية أمام مجلس الأمة في ٦ أكتوبر ١٩٧٠ ، ولم يكن اسم السادات غريبًا على الجماهير ، فهو أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة الأحد عشر ، ولقد تصدر العمل الجماهيري ، ومخاطبة الجماهير منذ قيام الثورة ، فهو الذي أذاع البيان الأول للثورة صبيحة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الصادر عن مجلس قيادة الثورة ، وقد رأس منظمة التحرير ، أول تنظيم سياسي شعبي أقامته الثورة بعد قيامها ، كما رأس جريدة الجمهورية ، وهي الجريدة التي أنشأتها الثورة لكي تكون المتحدث بلسانها ، وقد ألف كتابين وهما : ثورة على ضفاف النيل ، ويا ولدي هذا عمك جمال .

وتاريخ كفاحه الوطني مشهور وطويل ، فقد اعتقل ، وعزل من القوات المسلحة ، ثم عاد للقوات المسلحة ، ثم زج به في السجن بعد فترة في إحدى القضايا الوطنية التي اتهم فيها ، ثم هرب من السجن ، وعمل تباعًا على إحدى عربات النقل ، وظل كذلك حتى برئ من التهمة المنسوبة إليه ، وعاد إلى الخدمة بالقوات المسلحة مرة أخرى ، وهو من أقدم رفاق جمال عبد الناصر ، ومن أقدم وأوائل الضباط الأحرار الذين انضموا إلى التنظيم ، فقد تعرف على الملازم جمال عبد الناصر عام ١٩٣٨ ، حينما التقوا سويًا في معسكر منقباد للقوات المسلحة لأول مرة ، وهناك بدأ جمال تكوين وتشكيل تنظيم الضباط الأحرار ، وكان أنور السادات وقتها ضابطًا حديث التخرج برتبة ملازم ، هو الآخر ، ثم سافر جمال عبد الناصر مع كتيبته التي انتقلت إلى السودان ، للانضمام إلى الجيش المصري هناك ، حيث كانت السودان تحت الحكم المصري ، منذ عهد محمد علي باشا .

وبقي أنور السادات في القاهرة يعمل على تجميع ضباط الجيش للانضمام إلى تنظيم

الضباط الأحرار بعد اختبار للصالح منهم لهذه المهمة والعمل الوطني الصعب ، كما كان يقوم بالاتصال بأقطاب المجتمع المدني ، مثل الشيخ حسن البنا ، المرشد الأول والمؤسس لجماعة الإخوان المسلمين ، وفي معتقل المنيا التقى السادات بالشيخ أحمد حسن الباقوري ، الذي أثنى على حسن قراءته للقرآن الكريم ، حينما كان يمسك بالمصحف ويقرأ القرآن في المعتقل ، وكان يلتف حوله من يريد الاستماع ، كما جاء ذكر ذلك في أحد كتب الشيخ الباقوري ، الذي يحكي فيه عن ذكرياته في المعتقل .

وكنت قد قرأت كتاب جمال عبد الناصر وصحبه للكاتب والمراسل الصحفي جورج فوشيه ، والذي عاش في القاهرة ، يعمل مراسلًا صحفيًا لإحدى الصحف السويسرية أكثر من عشرين سنة ، منذ عام ١٩٤٠ ، وقد تناول الكتاب تأسيس حركة الضباط الأحرار ونشأتها ، والظروف والأسباب التي أدت إلى ذلك ، وتناول شخصيتين أساسيتين ، ورئيسيتين في هذه الحركة ، وهما شخصية جمال عبد الناصر ، وشخصية السادات ، وقد ذكر دور كل منهما في تأسيس الحركة ، وكفاح كل منهما الوطني ، فقد رتب الكاتب في هذا الكتاب السادات باعتباره الرجل الثاني في مجلس قيادة الثورة وفي حركة الضباط الأحرار ، وبعد ذلك كل من جاء ذكره من الضباط الأحرار ، أو من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، فقد ذكر بطريقة عابرة .

وظل السادات بعد قيام الثورة يتصدر ويرأس التنظيمات الجماهيرية والشعبية ، فبعد أن حُلت هيئة التحرير ، وهي أول تنظيم شعبي والذي أقامته الثورة بعد قيامها ، والذي كان يرأسه السادات ، وأنشئ الاتحاد القومي ، وقد رأسه السادات أيضًا ، ثم انتخب رئيسًا لمجلس الأمة ، وقد علق في ذهني منذ الصغر ما كان يطلقه عليه بعض الناس من لقب فيلسوف الثورة ، والبعض الآخر كان يحلو لهم أن يصفونه بثعلب الثورة .

ولنشأتي في نفس المنطقة التي نشأ فيها وتربى الرئيس السادات وهي منطقة كوبري القبة ، حيث نشأ الرئيس السادات وتربى في عزبة عبد النبي ، أو البر الثاني ، كما كنا نسميه ، لما كان شريط القطار يقسم المنطقة إلى قسمين ، فقد كان لي فرصة متاحة للتعرف أكثر على شخصية الرئيس ، من خلال الناس الذين عاشروه في صغره ، وفي شبابه أيضًا ، وقد التقيت ذات ليلة بأحد الرجال والذي كان معروفًا بصداقته للرئيس السادات منذ الصغر ، وقد أخبرني هذا الرجل بعد أن أخذ يستعرض كفاح السادات الوطني ، وما لاقاه من اعتقال وفصله مرتين من القوات المسلحة ، ثم عودته للخدمة ، وأن المرة الأولى كانت بسبب اتهامه بالتخابر لحساب دولة أجنبية وهي ألمانيا ، وقد تم إلقاء القبض عليه هو وأحد الطيارين الذي كان

هو الآخر أحد الضباط الأحرار ، حينما أصاب الطائرة عطل ، ولم يستطع الطيار الإقلاع بها ، وكانا في طريقهم لألمانيا لتأييد الألمان في الحرب ضد الإنجليز من أجل قضية استقلال مصر ، وأما المرة الثانية فقد تم القبض عليه في قضية مقتل أمين عثمان ، وزير المالية المصري ، الذي صرح بأن مصر قد تزوجت من بريطانيا زواجًا كاثوليكيًا ، أي لا انفصام له ، أي لن تستقل مصر عن بريطانيا ، وأنه هو الذي أسس تنظيم الضباط الأحرار ، وأن جمال عبد الناصر وقت تأسيس التنظيم كان بالسودان ، وحينما اعتقل أنور السادات في عام ١٩٤٢ ، تسلم جمال قيادة التنظيم ، كما أن السادات كان شخصية الاتصال بين التنظيم ، فهو الذي كان يتصل بالفريق عزيز المصري ، والذي كان وزير الحربية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكذلك كان السادات على اتصال بالشيخ حسن البنا المرشد العام الأول والمؤسس لجماعة الإخوان المسلمين .

ثم أضاف هذا الرجل أن هذه الثورة في الحقيقة هي التي أسسها أنور السادات ، وليس جمال عبد الناصر ، ولكني اعتبرت هذا تحيزًا لصاحبه وابن حتته ، وعلى كل فسواء كان السادات هو المؤسس لتنظيم الضباط الأحرار ، أو جمال عبد الناصر ، أو بدأوا سويًا فإن الأهداف الكبار لا تتحقق إلا برجال كبار ، ولا تتحقق إلا إذا ذابت أنانيتهم في أهدافهم ، والأمر الذي لا مراء فيه ، أنه لم تحدث صراعات على السلطة بين أعضاء مجلس قيادة الثورة ، مهما حدثت بينهم من انقسامات وخلافات داخل المجلس ، كما أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رحمه الله لم يختر أحدًا لمنصب النائب الأول لرئيس الجمهورية غير أنور السادات ، بالرغم من أن أغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا ما زالوا جميعًا على قيد الحياة إلا الصاغ صلاح سالم الذي توفي عام ١٩٦٣ رحمه الله .

وقد حكى لي أيضًا رجل كان يصغر الرئيس السادات بعدة سنوات ، أنه بينما كان يلعب في صباه مع أحد إخوة الرئيس السادات ، قام بضربه ، فذهب يشتكي لوالده ، فقابله أخوه الأكبر أنور فاشتكى له ، فما كان منه إلا أن أحضر أخاه ، وطلب من الشاكي أن يضربه ، كما ضربه ، فعفا عنه ، ولم يعتد عليه أخو السادات بعدها .

وقد ظل الحاج محمد السادات رحمه الله يجلس في حديقة مجاورة لمبنى هيئة التحرير بميدان كوبري القبة ، ما بين صلاة العصر والمغرب في الشتاء ، وما بين صلاة المغرب والعشاء في الصيف ، بعد أن يؤدي الفريضة ، وينتظر الفريضة الأخرى فيؤديها ، في زاوية صغيرة ، كانت تسمى بزاوية الشيخ صالح العبد ، قريبة من منزله بشارع ترعة الجبل ، وظل كذلك وحتى بعد أن صار ابنه رئيسًا للجمهورية ، وكثيرًا ما كان يجلس بجواره على أحد المقاعد بهذه

الحديقة أحد جيرانه في مثل سنه ، أو اثنين ، وقد أمسك كل بسبحته وأخذ يتنقل بين حباتها بالتسبيح ، ويستنشق الهواء الطلق ، ويتمتع بالخضرة حوله ، والنظر إلى سماء مصر الصافية .

ولا يخلو مصري من طرفة أو طرائف في حياته ، فقد حكى لي أحد الرجال من أهالي الحي المعروفين بأنهم كانوا على علاقة وطيدة وصداقة مع الرئيس أنور السادات في شبابه : أنه أتى إليه ذات ليلة حينما كان هربان من المعتقل ، ويعمل تباعًا على عربة نقل ، وبات ليلتها عنده ، فعرض عليه أن يعمل معه ، فقبل على الفور ، ودون أن يسأل عن طبيعة هذا العمل ، فطلب منه أن يبحث في السوق ، ويجمع أردأ أنواع الطماطم ولما سأله عن هذا الطلب الغريب . أخبره أنه سوف يقوم بتوريدها لمعسكرات الجيش الإنجليزي والتي كانت منتشرة في ذلك الوقت في القاهرة ، والإسكندرية ، وفي مدن القناة ، وبالفعل قام الرجل بدوره ، وفي الموعد المحدد جاء السادات ، وحملوا العربة طماطم فاسدة ، ومعها ثلاثة أو أربعة أقفاص من طماطم جيدة للفحص ، وكان لا يقوم بالتوريد إلا مرة واحدة لكل معسكر ، ولا يذهب إليه مرة أخرى .

ولما رآني الرجل أضحك ، ضحك هو الآخر وقال : ما تستغربش ، إحنا كنا بنفكر نقرف الإنجليز ازاي ، وننكد عليهم عيشتهم ، علشان نطفشهم ، ثم حكى طرفة أخرى من الطرائف المصرية التي كان يمارسها المصريون حتى يقرفوا الإنجليز ، والحقيقة أنني كنت قد سمعت هذه الطرفة مرارًا من قبل ، فقد كان بعض الشباب يذهبون إلى محلات جروبي التي اعتاد الإنجليز أن يذهبوا إليها ، ويتناولوا الطعام ، فيدخل اثنان أو ثلاثة من الشباب المصريين ، وينظرون حولهم في المحل ، حتى إذا رأوا أحد الخواجات يجلس إلى ترابيزة ، سواء كان بمفرده ، أو في صحبة أحد في انتظار الطعام ، كانوا يسرعون ، ويجلسون إلى إحدى الترابيزات بجواره ، وقبل أن تمتد يد الخواجة أو أيديهم إلى الطعام يقوم أحد الشباب بإطلاق تكريعة بصوت عال ، ويرد عليه زميله بجواره بأخرى ، وعندئذٍ يقوم الخواجات على الفور دون أن تمتد إيديهم إلى طعام ، ويدفعون الحساب وينصرفون ، وقبل أن يأتي الجرسون لكي يحمل الأطباق ، وينظف الترابيزة ، ينتقل إليها الشباب المصري وهم يضحكون ويأكلون ما عليها من طعام .

ومر بذاكرتي ما ذكره تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في مذكراته عن أيام الحرب العالمية الثانية ، أنه برغم علمه أن ثلث المؤونة التي تذهب إلى الجيش الإنجليزي المرابط على ضفاف القناة ، كانت تسرق في البحر ، وثلث يسرقه المصريون ، إلا أنه كان مضطرًا للاحتفاظ بالجيش الإنجليزي في مصر لتأمين قناة السويس ، ولموقع مصر الاستراتيجي .

**السادات والاتحاد الاشتراكي العربي :**

وكنت أتبادل مع زملائي وأصدقائي الأخبار ، وكل ما يصل إلى علمنا عن شخصية السادات ، الرئيس الجديد لمصر ، وعن توجهاته السياسية ، ويضيف كل إلى ما يعرفه ، معرفة الآخرين ، ولقد لاقى السادات قبولًا شعبيًا كبيرًا ، ولم يكن يعترض عليه أحد ، إلا بعضًا من أعضاء الاتحاد الاشتراكي العربي الذين التقيت بعدة أشخاص من بينهم ، وقد التقيت في هذه الفترة ببعض من الشخصيات البارزة في المكاتب التنفيذية للحزب والمسئولين ، ومن بينهم من عرفت فيما بعد ، أنه عضوًا بالتنظيم السري لجمال عبد الناصر ، الذي كان يرأسه بنفسه ، ويعقد اجتماعاته بوزارة النقل بشارع القصر العيني ، ولقد أجمع المعارضين لرئاسة السادات من أعضاء التنظيم الاشتراكي أنه رجل ضعيف ، ولا يصلح للحكم ، كما أنه يلبس نظارة نظر ، ومريض بالقلب ، وأن البلد في حاجة إلى رجل قوي مثل علي صبري ، وهو الوحيد الذي يصلح للحكم ، وأنهم قد أتوا بالسادات للحكم لعدة شهور ، حتى يهيئوا البلد لاستقبال علي صبري ، ولن يبقى السادات في الحكم أكثر من ستة أشهر .

والحقيقة أنني دهشت أمام أقوال أعضاء الاتحاد الاشتراكي التي قدمت ، فلم أكن أعرف عن علي صبري شيئًا سوى أنه الأمين العام للاتحاد الاشتراكي ، وكل ما كنت أعرفه عنه أنه أحد الضباط الأحرار المائة الذين اشتركوا في التنظيم ، الذي قام بالانقلاب العسكري في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والذي تحول إلى ثورة ، ووقت قيام الحركة أو التنظيم بالانقلاب ، كان طيارًا برتبة بكباشي ، ولم يكن عضوًا بمجلس قيادة الثورة مثل السادات ، كما أنه لم يكن له تاريخًا وطنيًا ، ولا ماضي في الكفاح الوطني مثل السادات ، ولم يأت ذكره أو حتى ذكر اسمه في كتاب جمال عبد الناصر وصحبه ، الذي ذكرت من قبل ، والذي تحدث فيه المؤلف عن شخصيتين رئيسيتين في الثورة ، وقد عرض لقصة الكفاح الوطني لكل منهما ، وبرغم أن الرئيس الراحل قد اختار السيد زكريا محيي الدين لكي يسلمه رئاسة الدولة ، حينما أراد أن يتنحى بعد الهزيمة في ٩ يونيو ١٩٦٧ ، فقد اختار هذه المرة ، وفي هذه الفترة الحرجة من تاريخ مصر أنور السادات نائبًا أول له ، ولم يعترض السيد زكريا محيي الدين على هذا ، ولم يعترض عليه أحد من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ولم يفكر أحد منهم أن يدخل معه في صراعات من أجل كرسي الحكم ، فقد كانوا جميعًا أكبر من ذلك ، وكانوا على نقاء ثوري ، وإخلاص وطني ما يشهد له التاريخ ، وكان أغلب الذين اعترضوا على السادات على رأس الحكم من أعضاء التنظيم الاشتراكي الذين التقيت بهم أميين ، أي لا يقرأون ولا يكتبون ، وإن كانوا أصحاب مناصب رفيعة في التنظيم الاشتراكي ، وأما الذين يكتبون ويقرأون ،

أو عندهم شيء من الثقافة أو قشورها وغالبًا ما كانوا يقرأون صحيفة الأهرام ، باعتبار أنها الصحيفة الناطقة بلسان الحزب والدولة ، وتراها دائمًا تحت إبط أحدهم ، كنت أرى فيهم صراحة ، خواء فكري ، حتى في الاشتراكية التي يعتنقونها ، وقد ارتدوا جميعًا قميص جمال عبد الناصر ، وأعلنوا أنهم ورثة عبد الناصر والناصرية ، ويجمع ما بين الأميين والمثقفين الاشتراكيين السطحية في التفكير والشخصية المهزوزة أو الراقصة بين الشرق والغرب ، والنفعية والوصولية ، كما كان لهم قدرة بارعة على التصفيق الحاد والهتاف المدوي للحاكم .

وأخذ أعضاء الاتحاد الاشتراكي العربي يشيعون بين الناس أن السادات رجل الأمريكان ، وأن اتجاهه رأسمالي ، وأنه سوف يقضي على المكاسب الاشتراكية للشعب التي تحققت في عهد عبد الناصر ، وهو لن يحارب ، وأنه يستقبل وزير الخارجية الأمريكي روجرز ، ويتفاوض معه ، ثم من بعده كيسنجر ، والذي جاء خلفًا لروجرز ، وأن هذا لم يكن ليحدث في عهد عبد الناصر .

والحقيقة أن الرئيس الراحل رحمه الله ، قد قبل مبادرة روجرز ، قبل وفاته ، وقد استقبله في القاهرة ، وبدأ المفاوضات معه ، ولم يفعل السادات أمرًا جديدًا سوى أنه استمر في المفاوضات ، التي بدأها عبد الناصر ، قبل وفاته ، وتشكلت داخل الحزب الحاكم أو الاتحاد الاشتراكي العربي جبهة معارضة للسادات ، أو مركز للقوى بزعامة السيد علي صبري ، وشعراوي جمعة ، وزير الداخلية ، وارتدوا قميص عبد الناصر ، وعينوا من أنفسهم أوصياء على الناصرية ولم تكن جبهة معارضة للوصول إلى الأصلح ، إنما كانت معارضة من أجل إسقاط السادات ، والوصول بعلي صبري إلى كرسي الحكم ، وقد حجز السيد شعراوي جمعة لنفسه منصب رئيس الوزراء في دولة علي صبري ، والحقيقة أنه لم يكن أيًا منهما مرغوب فيه من قبل الشعب ، إلا طائفة قليلة من الوصوليين والنفعيين من أعضاء الاتحاد الاشتراكي ، واستمروا يعارضون السادات في كل قرار يتخذه ، وفي كل أمر ، حتى وإن كان أمرًا قد بدأه عبد الناصر ، وأراد السادات أن يستمر فيه ، مثل مشروع الاتحاد مع ليبيا ، الذي وقعه الرئيس الراحل مع قائد الثورة الليبية قبل وفاته ، وأراد السادات أن يستمر فيه ، فرفضوا وعارضوا بدعوى كفانا التجربة الفاشلة التي خضناها مع سوريا من قبل ، ولم يكن أحد منهم قد عارضه في حياة عبد الناصر رحمه الله .

## ثورة التصحيح
## ١٥ مايو عام ١٩٧١

ووصلت هذه الصراعات ذروتها ، وأعلنت عن وجهها القبيح ، في أول شهر مايو ١٩٧١ ، ففي احتفالات عيد العمال ، التي تقام سنويًا ، في الأول من شهر مايو ، وفي السرادق المقام أمام شركة مصر – حلوان للغزل والنسيج ، حينما وقف الرئيس السادات لكي يلقي كلمته ، في الاحتفال ، أخذ بعض أعضاء التنظيم الاشتراكي ، يقومون بأفعال صغار ضد رئيس الجمهورية ، فكلما هم الرئيس أن يتكلم ، رفعوا صور عبد الناصر ، وأخذوا يهتفون له ، أي لناصر ، وقد كرروا ذلك مرارًا ، ولكن السادات بهدوء وحكمة وبراعة ، استطاع أن يسيطر على الموقف فقد دعاهم للوقوف دقيقة حدادًا على عبد الناصر ووقف معهم ، وسيطر على الموقف الذي ظهرت فيه حكمته السياسية وحنكته ، مما جعل المشاهدين عبر التلفزيون أن يقفوا ويصفقوا له ، إجلالًا واحترامًا ، ثم ألقى رئيس الجمهورية خطابه ، وأعلن في آخره أنه لن يسمح بقيام مراكز للقوى ، وأخذت تشتد صراعات مراكز القوى داخل الاتحاد الاشتراكي من أجل الإطاحة بالسادات والوصول بعلي صبري للحكم ، فقد انتهت الفترة المحددة التي حددها المتأمرون والتي أقصاها ستة أشهر ، وفي يوم ٣ مايو أصدر الرئيس السادات قرارًا بإقالة السيد علي صبري من منصبه كأمين عام للاتحاد الاشتراكي العربي .

وفي يوم ١٥ مايو ١٩٧١ ، وفي نشرة الثامنة والنصف ، أذيع في وقت واحد في كل من الإذاعة والتليفزيون خبر استقالة السيد شعراوي جمعة ، وزير الداخلية ، من منصبه ، ثم أخذت تتوالى أخبار استقالات الوزراء ، حتى استقال كل الوزراء تقريبًا ، ولم يبق منهم إلا الدكتور محمود فوزي ، رئيس الوزراء العجوز ، ذو الخبرة السياسية الكبيرة ، وحتى وزير الحربية الفريق أول محمد فوزي فقد قدم استقالته ، وظننا أنه انقلاب ضد السادات ، فخرجنا على الفور إلى الشوارع ، في تظاهرات محدودة ، تجمعت أمام القصر الجمهوري بالقبة ، وأخذت تهتف للسادات ، كما خرجت أيضًا تظاهرات محدودة أمام بعض المكاتب التنفيذية للاتحاد الاشتراكي العربي ، في أنحاء متفرقة من القاهرة ، لا تزد عن ثلاثة أو أربعة مكاتب ، تهتف ضد

السادات ، وبعد قليل من إذاعة خبر الاستقالات الجماعية للوزراء ، أذيع خبر قبول الرئيس لاستقالات جميع الوزراء الذين تقدموا باستقالاتهم ، ولم يطلب من أي منهم أن يبقى في منصبه لحين تشكيل وزارة جديدة ، وقد أمر على الفور في تشكيل وزارة جديدة ، ولم تمض إلا سويعات قليلة ، وقد تم إلقاء القبض عليهم جميعًا ، واستطاع السادات بضربة خاطفة أن يتغلى بخصومه قبل أن يتعشوا به ، وكان هو البادئ ، ولم ينتظر أن يبدأوه ، ولم يحزن الناس على أحد من الوزراء الذين ألقى القبض عليهم إلا الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة .

وعلى كل فمهما أعلن عن الأسباب في أي موقف سياسي ، أو حدث كبير ، فتبقى وراءها من أسرار ، ربما يُكشف عنها بعد عشرين سنة من وقوع الحدث ، أو بعد خمسين سنة ، وربما يظل بعضها حبيس صدور صانعيها ، حتى تدفن معهم ، ويجب ألا يغيب عن بالنا في أي عميلة سياسية كبيرة أو عسكرية ، أن لابد أن يكون لإحدى أجهزة التخابر للدول الكبرى ، أو المخابرات الإسرائيلية دور فيها ، وكانت المخابرات السوفيتية هي الأكثر انتشارًا وسيطرة ونشاطًا في مصر وذلك لتأمين الحركة الاشتراكية في الشرق الأوسط ، والتي انطلقت من القاهرة ، وهي الدولة الأولى التي تبنت الاشتراكية بالمنطقة .

ضحى السوفيت بالرفيق علي صبري ، رجلهم بالقاهرة وشلته ، وأرادوا أن يتقربوا بهذا من السادات ، وفشل الانقلاب قبل وقوعه ، ولا غالي في السياسة ، وإنما هي المصلحة .

وبدأ السادات حركة تصحيح لثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ، والتي ترهلت ، ونمت مراكز القوى عليها وتجبرت وتفحشت ، وأخذت تفرض سيطرتها على عبد الناصر نفسه ، ووصل بهم الفجر والبجاحة إلى التجسس على أدق أسرار الناس في غرف نومهم ، ووصل بهم الانحطاط إلى التجسس على الرئيس جمال عبد الناصر ذاته والحق نقول : أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تعتبر من الثورات الكبرى في العالم ، وكان لها دور مؤثر فيمن حولها من الدول ، وفي العالم كله ، ومثلها ، مثل الثورات الكبرى ، لابد لها من تصحيح لمسارها كل فترة ، وكلما لزم الأمر .

ولقد أطلق الرئيس السادات على أحداث يوم١٥ مايو ١٩٧١ ، ثورة التصحيح ، والتي بدأها في هذا اليوم ، وأعقبها بقرارات وإجراءات إصلاحية لتصحيح مسار الثورة

**ظهور العلم الأخضر :**

وخرجت الجماهير مع الصباح المبكر ، في تظاهرات ، ومسيرات تهتف للسادات وتؤازره ، وتجدد البيعة له ، في كثير من مناطق القاهرة ، وحينما عدت إلى بيتي آخر النهار بحي كوبري

القبة ، وقبل أن أدخل البيت ، أخبرني بعض الجيران : أن مجموعة من الشباب يحملون أعلامًا خضراء ، أي العلم المصري القديم ذي الهلال والثلاثة نجوم ، جاءوا وسألوا عني ، وأخبروهم أنهم من حي شبرا ، وأني زعيمهم ، وأني أمرتهم أن يخرجوا بهذه الأعلام ، ثم اتجهوا إلى القصر الجمهوري بالقبة ، ودُهشت لهذا ، فلم يكن لدي علم على الإطلاق بما وقع وإن كنت أحب العلم الأخضر ، وكل من يعرفني يعرف هذا ، وإن كنت فكرت في تشكيل جماعة للعلم الأخضر بحي شبرا ، إلا أنها كانت مجرد فكرة ، لم تخرج لحيز التنفيذ ، فقد توقف كل شيء بعد رحيل الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله ، فقد غامت الأمور ، وكان لابد من وقفة ، نرقب خلالها الحاكم الجديد ، واتجاهاته السياسية ، ومدى جديته للمعركة ، وتحرير الأرض المغتصبة ، واسترداد الكرامة ، ولو كنت قد فعلت ذلك ، لكنت قد افتخرت به ، ولا أجد في ذلك غضاضة .

وعلمت فيما بعد ، من أين خرجت تلك الأعلام الخضراء من حي شبرا ، ومن هم وراء ذلك ، ولم يكن سوى التنظيم الطليعي للاتحاد الاشتراكي العربي ، الذي أنشأه السيد علي صبري في عام ١٩٦٤ ، للتقرب من جمال عبد الناصر ، ولم يكن الهدف منه نشر الفكر الاشتراكي الناصري ، وتربية كوادر اشتراكية ، تدعو إلى الناصرية ، وتعمل من أجلها ، إنما كان الهدف هو إعداد مقاومة شعبية سرية ، أو ميلشيات ، تكون مستعدة دائمًا لمقاومة أي انقلاب يقوم به الجيش ضد جمال عبد الناصر ، وكان من مهامه أيضًا التجسس على الناس ، ونشر الشائعات التي يريد النظام الحاكم نشرها بين الشعب وقد خرج أعضاء التنظيم الطليعي يحملون الأعلام الخضراء لكي يصوروا السادات والقرارات التي اتخذها بالرجعية ، فهكذا كانوا يعتقدون أن العلم الأخضر القديم ذي الهلال والثلاثة نجوم هو رمز للرجعية ، والحقيقية غير ذلك ، فقد رفعه الرئيس جمال عبد الناصر مرتين في عام واحد هو عام ١٩٥٦ ، إعلانًا عن الحرية والاستقلال .

ففي المرة الأولى قام الرئيس الراحل برفعه فوق القاعدة العسكرية بالإسماعيلية في ١٨ يونيو ، ليعلن عن استقلال مصر التام بجلاء آخر جندي إنجليزي عن أرض مصر ، وفي المرة الثانية قام برفعه فوق مبنى الإرشاد بهيئة قناة السويس بمدينة بورسعيد ليعلن انتصار الشعب المصري على العدوان الثلاثي ، وعن تحرير المدينة الباسلة من دنس العدو ، بجلاء آخر جندي من القوات المعتدية ، وذلك في ٢٣ ديسمبر .

وأعود بالذاكرة إلى تلك الوقائع ، وما حوت من أحداث ، ويطاردني ما لحقني خلالها

من ضرر ، فأبعده عن خاطري ، ولا أذكر إلا ما يفيد القارئ الكريم ، وما يخدم أهداف هذا الكتاب ، والتي لا أحددها صراحة ، حتى لا يتأثر القارئ بها ، لعله يستشفها ويستخرجها دون عناء ، وبلا إيحاء أو تأثير . فقد وقفت عند تلك الأحداث كثيرا ، وقد طرقت فكري بعض الأسئلة التي كان لابد من البحث عن إجابات لها . فهل الوطنية هي العمل بالسياسة ؟ وهل كل من يعمل بالسياسة فهو وطني ؟ وهل كل من دخل المعتقل فقد حاز وسام الوطنية ؟

لا شك أن الوطنية هي عمل نقي في حب الوطن يهدف لخدمة مصالحه العليا بما يرتضيه الوطن ، وأسماها الشهادة في سبيله ، سواء كانت في الزود عن حماه ، والدفاع عن أراضيه وعزته وكرامته ، أو في تنفيذ أي مشروع من مشاريع نهضته . وكثيرًا ما يلجأ المرء إلى الانضمام إلى حزب سياسي أو تنظيم من أجل ممارسة دور وطني من خلال عمل جماعي ، فيجرفه لتيا ر الحزبي ، ويعمل من أجل مصالح حزبه ، حتى وإن تعارض ذلك مع المصالح العليا للوطن ، وفي هذه الحالة يتخلى عن بعض الشرف من أجل تحقيق المصالح السياسية الحزبية ، وشيئًا فشيئًا يفقد شرفه كلية حتى يصير سياسيًّا مرموقًا . ولا أخفي أنني أكتب هذه السطور بعد أن تعديت الستين من العمر ، ولم تكن موجودة في الطبعة التي منعت من النشر في عام ١٩٧٥ .

وأذكر في هذا المضمار كلمة حق قالها الرئيس السادات رحمه الله في إحدى خطبه : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين . والتي فهمتها بمعنى أن لا شرف في السياسة ، ولا دين بلا شرف . فالشرف لدينا منبعه الدين ، ومقاييسه هي مفاهيم دينية . أما المقاييس الغربية للشرف ، وهم الذين وضعوا العلوم السياسية الحديثة وأساليبها ، فهي تختلف عن مفاهيمنا للشرف النابعة من تعاليم السماء ، والتي تعيش في وجداننا .

## السادات والتصحيح والإصلاح

في أول خطاب له بعد يوم ١٥ مايو ١٩٧١ ، والذي أطلق على ما وقع من أحداث بثورة التصحيح ، أعلن الرئيس السادات أنه قد تم القضاء على مراكز القوى ، ولن يسمح بظهور مراكز قوى أخرى ، كما أعلن صراحة أنه برغم من التقائه مع جمال عبد الناصر رحمه الله على أهداف واحدة ، واعتناقهم مبادئ واحدة ولرفقته لجمال عبد الناصر لأكثر من ثلاثين عام ، هي مدة مشوارهم الوطني سويًا ، إلا أنه ليس نسخة مكررة من عبد الناصر ، وأن كل له شخصيته ، وطريقته في الحكم ، وأنه لا يستطيع أن يحكم بالتنظيمات السرية التي كان يحكم بها عبد الناصر ، والتي كان يعتمد في حكمه على تقاريرها ، حتى تضخمت وتفحشت ، وفقد السيطرة عليها ، وطالت سطوتها جمال عبد الناصر ذاته ، ولم يقف الأمر عند التجسس على كبار رجال الدولة في غرف نومهم ، مثلما حدث مع المشير عامر رحمه الله ، بل وصل الأمر للتجسس على الرئيس الراحل أيضًا ، وظلوا يعيثون في الأرض فسادًا ، وكان من مساوئ هذه التنظيمات السرية أن نشأ عنها مراكز للقوى ، نجحت في عزل الرئيس عن الشعب ، وكانت هي التي تحكم البلاد في السنوات الأخيرة ، وقد اكتشف الرئيس السادات هذا الأمر مصادفة ، حينما حاول أحد الكهنة بالمعبد الناصري ، وهو الكاهن العتيق السيد سامي شرف ، الذي كان يعمل مديرًا لمكتب الرئيس الراحل لمدة طويلة ، ثم عينه الرئيس وزيرًا لشئون رئاسة الجمهورية ، وظل في منصبه بعد وفاة الرئيس جمال رحمه الله .

وقد قدم بعض الأشرطة أو «الكاسيت» إلى الرئيس لا لكشف التنظيمات السرية ومراكز القوى ، وإنما للتقرب للرئيس السادات ، باعتبار أن الاستماع إليها أمر للتسلية والتسرية ، ولكن بمجرد ما علم الرئيس بمحتواها ، وكان ذلك قبل ١٥ مايو ، وحينما أعلن ثورة التصحيح ، وسقطت مراكز القوى ، أصر على الفور بجمع أشرطة التجسس ، وحل جميع التنظيمات السرية ، وفي أحد الأيام قذف بها في أخدود كبير ، حفر خصيصًا لكي يقذف فيه بجميع أشرطة التجسس ، ووقف الرئيس السادات ، وأشعل بها النار وقد تم ذلك بمدخل وزارة الداخلية بميدان لاظوغلي ليعلن بذلك عن انتهاء عهد التجسس ، والتصنت على الخلائق ، والإطلاع على أسرارهم وتسجيلها .

وقد فرحت الجماهير بالتطهير ، وهذا العمل الذي قام به السادات وحيته عليه ، وأخذت شعبيته تزداد بين الناس ، فلم يكن عبد الناصر إلا بشرًا يخطئ ويصيب ، وكثيرًا ما لا ندرك أخطاءنا إلا بعد الوقوع فيها ، ولابد لاستمرار مسيرة الثورة من التنقية والتطهير ، والتصحيح كلما لزم الأمر .

وأخذت قرارات السادات وخطواته من أجل التصحيح والإصلاح تتوالى ، فأصدر قرارًا بالعفو عن جميع المعتقلين السياسيين والإفراج عنهم ، كما فتح باب الحريات والتعبير عن الرأي وبدأت تظهر في الصحافة أقلام كانت ممنوعة ، وأخذت تتضح شخصية السادات ، وشجاعته في اتخاذ القرار ، وقام بتطهير ديوان الحكم من كهنة المعبد ، الذين حاولوا أن يلتفوا حوله ويقيموا له معبدًا ، كما أقاموا لجمال عبد الناصر معبدًا ، ولكن السادات رفض الكهنة ، ورفض أن يكون له معبدًا ، ولم ينج أحد من مذبحة التطهير تلك التي قام بها السادات ضد كهنة المعبد أو مراكز القوى سوى الكاهن الأعظم صاحب مدرسة الصحافة التي تقوم على مفهوم قد وضعه للصحافة ، أنها فن الكذب الرفيع وهو الأستاذ محمد حسنين هيكل ، فبرغم تعاونه مع مراكز القوى ، إلا أنه وحده كان يمثل مركزًا للقوى ، لا يعمل إلا لحساب نفسه ، ولا يبالي بمصلحة وطنه أو أمته .

وهو جدير بلقب الصحفي الزئبقي ، وقد حاول أن يتقرب للسادات بشتى الطرق ، ولكنه لم يفلح .

وأسقط شعار العلم والتكنولوجيا ، الذي تمخض عنه الكاهن الأعظم ، مع بيان ٣٠ مارس ، ولم يكن هذا الشعار سوى مصدرًا للسخرية والهزل ، ورفع السادات شعار دولة العلم والإيمان ، ولقبه الشعب بالرئيس المؤمن ، وبدأ الإيمان يسري من جديد في المجتمع ، وأخذت الأخلاقيات تعود إلى المجتمع ، وإلى الشارع المصري بعد أن هجرته ، وكادت أن تختفي ردحًا من الزمن ، فالإيمان مصدره الدين ، والدين مصدر الأخلاقيات والقيم في مجتمعنا ، وحينما نذكر الدين ، فإنما نقصد بذلك ، مطلق الدين السماوي والذي مرجعه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء .

فالأخلاقيات والقيم التي دعت إليها السماء واحدة ، سواء الذي دعا إليها موسى أو عيسى أو محمد ، أنبياء الله جميعًا ورسله ، عليهم الصلاة والسلام ، وكان لقرار الإفراج عن المعتقلين السياسيين ، وأغلبهم من الإسلاميين ، سواء كانوا ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين ، أو الجماعات الإسلامية الأخرى ، أثر ملحوظ وملموس في عودة الناس إلى الدين ،

وفي العودة إلى الأخلاقيات والسلوكيات الإيمانية ، وقد نشط الوعاظ والدعاة ، في المساجد ، وفي أجهزة الإعلام ، وفي كل مكان ، ونشطت معها الأقلام الحرة الأمينة ، والتي كانت ممنوعة من الكتابة ، وقتما كانت الصحافة مغلقة على المنافقين ، وأصحاب الأقلام الرخيصة والمرتزقة .

وأعاد السادات إلى مصر ، اسمها الغالي العزيز ، اسم الحضارة مصر ، بعد أن اختفى اسمها قرابة ثلاثة عشر عامًا ، منذ أن تغير اسمها في الوحدة العربية إلى الجمهورية العربية المتحدة ، واختفى وذاب ، وللتميز كان يقال عن مصر الإقليم الجنوبي ، ولكن مصر بقى اسمها في حضارة الإنسان ، ولم يختف وكأن الرؤى بذلك بدأت تتبلور وتتضح المفاهيم ، وتنضج الاشتراكية العربية ، والوحدة العربية عند السادات ، رفيق نضال عبد الناصر المرير والطويل ، فقد تبلور مفهوم الوحدة العربية ، بعد تجربة الوحدة الفاشلة بين مصر وسوريا ، بأن الوحدة العربية بين الدول العربية ، مثلها مثل عائلة كبيرة مترابطة ومتضامنة ، ومع ذلك فكل أسرة أو وحدة من هذه العائلة لها خصوصية ، ولها باب مغلق عليها ، وبهذا المفهوم ، فإن الوحدة العربية حقيقة واقعة بين الشعوب العربية ، ولم تكن الوحدة العربية يومًا حقيقة واقعة بين الحكام العرب الذين يخشى كل منهم على كرسي الحكم ، وإذا كان المواطن العربي الأول الرئيس شكري القوتلي ، رئيس سوريا عام ١٩٥٨ ، قد سلم سوريا لعبد الناصر اعترافًا منه بزعامة عبد الناصر ، وتنازل عن الحكم طواعية له ، ولم يدخل في منافسة معه ، فهذه كانت حالة نادرة بين الحكام العرب ، ولا يمكن أن تتخذ قاعدة عامة للوحدة العربية ، وقد لقبه عبد الناصر بلقب المواطن العربي الأول ، ولو علم الحكام العرب قيمة هذا اللقب لتصارعوا عليه وقد سُجل المواطن العربي الأول في التاريخ مع زعيم الأمة العربية في خانة واحدة إذن فليست الوحدة العربية في اندماج البلدان العربية في اسم واحد ، وعلم واحد إنما هي في وحدة الاقتصاد والعسكرية والسياسة ، والتوجهات وأعاد السادات إلى مصر اسمها وقد بقي العلم كما هو ، إلا أن النجمتين الخضر تبدلت في الوسط بصقر قريش .

وأخذت تتضح سياسة السادات من القرارات الجريئة والشجاعة التي اتخذها في بداية عهده ، وقد أخذ سياسة التصحيح الثوري ، وبدأ عهده بالتصحيح ، وبدأ بعث الشخصية المصرية من جديد ، بعد أن كادت تفقد ملامحها ، وظل الاتحاد الاشتراكي العربي بتنظيماته ، كما هو باقيًا يمارس الحياة السياسية ، في العلن وفي الخفاء ، بعد أن تم تطهيره ، وإصلاح الحياة السياسية بعض الشيء ، بعد أن أقيل السيد علي صبري من منصبه كأمين للتنظيم ، وحل محله السيد محسن أبو النور ، وتم فصل كثير من أذناب مراكز القوى من التنظيم .

وظلت بقية من الأذناب ، يعملون في الخفاء ، يشوهون الحقائق ، وينشرون الشائعات ، ويصورون للناس أنه ماشي على طريق عبد الناصر بأستيكة ، وعلى سبيل المثال ، وليس الحصر فقد كان من تقاليد مصر منذ مئات السنين أن تقام سرادقات ضخمة في أنحاء متفرقة من القاهرة احتفالًا بشهر رمضان ، لإفطار الفقراء ، وإحياء الليالي الرمضانية بتلاوة القرآن ، وأراد السادات إعادة هذه العادة إلى مصر ، فأقيم سرادق ضخم أمام قصر عابدين لإفطار الفقراء وإحياء الليالي الرمضانية بالقرآن ، وكان هذا السرادق يقام أمام قصر عابدين في عهد الملك فاروق ، ومن قبله كان يقام أيضًا ، فهي عادة مصرية قديمة ترجع إلى العصر الفاطمي ، والحقيقة التي لا مراء فيها ، أنه ليس كل ما كان في العهد البائد فهو فاسد ، ولابد من الإبقاء على ما هو صحيح ، ولا يتعارض مع قيم المجتمع وموروثه الحضاري ، وتحرك أذناب مراكز القوى والحاقدون يصورون ذلك العمل بأنه ردة عن الناصرية ، وإعلان عن الرجعية ، والعودة لليالي صاحب الجلالة ، كما أطلقوا عليها وأشاعوا بين الناس ، وكأنهم كانوا يكرهون العودة إلى الدين ، وإلى الأخلاقيات والقيم السماوية ، وكان قد انتشر الجهر بالإفطار في شهر رمضان ، فأخذ يختفي ، وأخذت الشخصية المصرية تعود إلى الاعتدال ، فأخذت الفتيات والنساء يظهرن في الشوارع ، وقد اعتدلن في ملابسهن ، وبدأ يعود إلى رؤوسهن غطاء الرأس الذي كان يميز المرأة المصرية ، وقد ساعد على ذلك قرار السادات بالإفراج عن المعتقلين السياسيين ، والذين كان أغلبهم من الإسلاميين ، وبدأ الصراع الفكري يظهر على الساحة السياسية والاجتماعية في ظل حرية الرأي ، وسقطت سياسة تكميم الأفواه ، وسلب الحريات .

## انقسام الحركة الطلابية

بدأ العام الدراسي ١٩٧١ – ١٩٧٢ ، وقد سيطر على الطلاب شعور عام ، ألا داعي للمظاهرات هذا العام ، خاصة وأن الرئيس السادات قد أعلن أن عام ١٩٧٢ هو عام الحسم بعد أن أطلق على العام السابق عام الضباب ، وبرغم من إيقاف حرب الاستنزاف ، وعقد عدة اجتماعات بين الرئيس وكيسنجر وزير الخارجية الأمريكي ، للتفاوض حول حل سلمي للقضية العربية الإسرائيلية ، استمرارًا على مبدأ التفاوض الذي بدأه الرئيس الراحل رحمه الله ، والذي قبل مبادرة روجرز ، قبل وفاته ، إلا أنه كان من الأسباب التي أدت إلى راحة النفوس بعض الشيء ، هو قرار الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين ، وفتح باب الحريات ، والتعبير عن الرأي ، وعقد المؤتمرات الطلابية ، دون السماح للمسيرات والمظاهرات ، بحيث تعقد المؤتمرات داخل الكليات ، أو داخل الحرم الجامعي ، حتى وإن حضره جميع الطلاب دون مسيرات وقد استحدث رئيس اتحاد الطلاب الجديد بكلية الهندسة – جامعة عين شمس ، أمرًا جديدًا على طريق حرية التعبير عن الرأي ، فقد خصص مكانًا بالكلية يعلق فيه كل من يريد التعبير عن رأيه في أي أمر من الأمور مقالًا وقد رحبت إدارة الجامعة بهذا العمل ، ولم تعارضه السلطة ، وقد سمي هذا المكان بممر الصحافة ، وقد تصدر هذا الممر لوحة في أعلاه ، تحمل قول فولتير المشهور وهو أحد فلاسفة الثورة الفرنسية : قد أختلف معك في الرأي ، ولكني أدفع حياتي ثمنًا لكي تقول رأيك ، وهو يشير بسبابته إلى المقصلة فالحرية أعز مطلب في حياة الإنسان ، وأغلى قيمة ، ونفس الحر دون حريته ، فقد كانت الحركة الطلابية التي تفجرت في ٢٤ يناير ١٩٦٨ ، بعد الهزيمة تنحصر في مطلبين رئيسيين ، وهما الحرية ، وتحرير الأرض المغتصبة ، فالعبيد والمكبلين بالأغلال والقيود لا يحررون أرضًا ولا نفسًا .

ومع حرية التعبير عن الرأي ، أخذت تظهر على السطح الاتجاهات السياسية التي كانت كامنة ، وقتما انصهر الكل في بوتقة الوطنية ، والتقينا حول هدف واحد ، وهو تحرير الأرض السليبة ، وأخذت التيارات السياسية تظهر بوضوح في تيارات سياسية ثلاث ، وهو التيار الماركسي الذي يعمل بنشاط ، ولا يعلن عن نفسه ، وجماعة ناصر التي تشكلت هذا العام ، بعد القضاء على مراكز القوى ، وتطهير الحزب الحاكم ، في ١٥ مايو ١٩٧١ ، والإسلاميون

الذين أخذوا ينتشرون في الكلية ، وإن كانوا لا يخوضون في حوارات سياسية ، ولم يكن هم حديث إلا عن الصلاة ، والدعوة لها ، وإطلاق اللحية ، وتقصير الثوب ، وكان البعض منهم يأتي إلى الكلية بالجلباب ، ولم تجذبني الماركسية يومًا ، لعلمي أنها قائمة على الإلحاد وإنكار الأديان ، ولما كنت أرى في أعضائها من عدم انتماء للوطن أو القومية العربية ، إنما كان انتماؤهم لماركس ولينين وأتباعهم ، ومغلقين الفكر على هذا وحسب ، ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن يدعي أنهم لا يحبون مصر ، إلا أنهم يحبونها أن تكون ماركسية ، لا كما تريد هي ، فمصر منذ أن آمنت بعيسى عليه السلام ، ومن قبل أن تعرف الإسلام بزمان ، ومن عصر إخناتون ، وهي تكره الإلحاد ، وإن كانت لم تخلو يومًا من الملحدين ، وإن كانوا دومًا قلة القلة ، كما رأيت في البعض من دعاء الفكر الماركسي ، أنهم يأخذونه كلون من ألوان الترف الفكري ، أو التسلية كما هو الحال في الانتماء الكروي ، فلم يظهر في مصر منذ أن بدأ ينتشر فيها الفكر الماركسي ، مع عشرينيات القرن العشرين ، أحد مثل تولستوي ، ذلك الأديب الروسي العظيم ، الذي اعتنق الاشتراكية العلمية ، ولكنه خرج عليها ، ووزع أرضه على الفلاحين ولم ينتظر صراع الطبقات ، وانتصار البورليتاريا ، أو طبقة الفقراء وعامة الشعب .

وعلى كل فكل الفكر الذي أتى به الغرب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، فهي عرضة للخطأ والصواب ، وربما عما قريب يكتشف الغرب خطأها ، ويبدلها ، إذ أنها لا تتمتع بعوامل الثبات ، فلم تقم على أسس رياضية تضمن لها الثبات ، كما أن ليس لها مرجعية سماوية ، حتى يعتنقها المؤمنون بالله ، وتعيش مع الإنسان ، ولو بحثنا في التاريخ المصري والعربي ، لوجدنا الكثيرين على شاكلة تولستوي العظيم ، من حبهم للفقراء وعطفهم عليهم ، وإيثارهم على أبنائهم ، وتنازلهم عن أملاكهم للفقراء ، أو وقفها لأعمال الخير ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك إيمانًا منهم بالماركسية أو الاشتراكية العلمية ، إنما قد فعلوا إيمانًا بالله ، ولنيل ثواب الحياة الآخرة ، أو حياة الغيب التي لا يؤمن بها الفكر الغربي برمته ، فالفكر العلماني التي قامت عليها الحضارة الغربية لا يؤمن بالغيب ، ولا يؤمن إلا بما يدركه العقل بمدركاته وحواسه المحدودة ، والماركسية ترى في الدين أفيون الشعوب ، ولابد من تخليص الشعوب من هذا الإدمان الديني ، حتى تأخذ طريقها إلى التقدم ، ومن الماركسيين أيضًا ما تجدهم فقراء وجهلاء شدتهم دعوتها سعيًا وأحلامًا وراء الغنى ، وهم بصفة عامة لا يحترمون أخلاقيات المجتمع وقيمه ، ولا يقيمون وزنًا لموروثه الحضاري ، وليس لهذا الفكر مرجعية في وجداننا ، وليس له ماضي في تاريخ العروبة ، ولا يتمتع بالأصالة الوطنية أو القومية .

## جماعة ناصر :

ظهرت في الكلية هذا العام ، أي عام ١٩٧٢ ، جماعة جديدة ، وهي جماعة ناصر ، والتي أعلنت عن مولدها ، عن طريق إعلانات علقت بأماكن مختلفة من الكلية ، وعلقت أيضًا مقالًا بممر الصحافة يبشر بمولدها ، ويعلن عن أهدافها ، وقد دُعيت إلى حفل الافتتاح الذي أقيم في مكتب اتحاد الطلاب مساء ذات يوم ، وقد بدأ الاحتفال بتوزيع نشرة على الحاضرين ، تدعو للانضمام للجماعة ، وتوضح فكرها وأهدافها ، وقد علا هذه النشرة شعار الجماعة وهو : حرية ، اشتراكية ، وحدة ، وهو أيضًا شعار الاتحاد الاشتراكي العربي ، وشعار الدولة ، وقد تصدرت النشرة الآية الكريمة التي تقول : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] ، ثم تلتها فقرة من الميثاق الوطني جاء فيها :

إن العمل الوطني كله ، وعلى جميع مستوياته ، لا يمكن أن يصل سليمًا إلى أهدافه إلا بطريق الديمقراطية ، إن ممارسة النقد ، والنقد الذاتي تمنح العمل الوطني دائمًا فرصة تصحيح أوضاعه وملاءمتها دائمًا مع الأهداف الكبيرة للعمل ، إن أي محاولة لإخفاء الحقيقة أو تجاهلها يدفع ثمنها في النهاية نضال الشعب للوصول إلى التقدم . «الميثاق» .

ثم تلا توزيع تلك النشرة ، توزيع أطباق من الحلوى «الجاتوة» على الحاضرين ، مع زجاجة مياه غازية ، ثم افتتح مقرر الجماعة ، وهو طالب بالكلية الحفل بكلمة هي ملخص لما جاء بالنشرة من فكر الجماعة وأهدافها ، ورؤيتها للمستقبل ، والعقبات والصعاب التي تقابل العمل الوطني والقومي ، وكان كلامًا طيبًا ، لم يخرج عن الميثاق الوطني ، أو الاشتراكية العربية ، ثم فُتح باب الحوار ، فطلب الكلمة أحد أقطاب الماركسية بالكلية ، وانتقل من مكانه ، وجلس في الصدارة إلى المكتب ، بجوار مقرر الجماعة ، وأخرج من جيبه ورقة ، وأخذ يقرأ منها نقدًا للاشتراكية العربية من وجهة النظر الماركسية ، وهو نقد مكرر ، وقد سمعناه كثيرًا ، فقد جاء بكلمته أن رأي اليسار : إنه لا يمكن رفع الميثاق في صورة من نظرية مستوثقة الأركان ، وانه ليس سوى مجموعة من المواقف ، لا يمكنها أن ترقى بحال إلى مكانات النظرية .

فالنظرية ، أي نظرية في عرفهم ، إنما نتاج تحاليل دقيقة لمسارات تاريخ المجتمعات البشرية ، وأن الاشتراكيات أنواع ، ولكنها جميعًا مهما اختلفت الملامح التطبيقية ، إنما هي منبثقة من أصول النظرية الماركسية ، وخلاصة القول : أن اليسار لم يكن يعترف بالميثاق الوطني الذي صدر في عام ١٩٦٤ ، نظرية متكاملة ، وإنما يراه تعبيرًا عن مجموعة من مواقف هي ردود

أفعال ، اعتملت في وجدان جمال عبد الناصر تجاه ظروف استغلالية معينة ، لصقت بعضها إلى البعض فتلاحمت دون ترابط وثيق .

ثم التقط الكلمة أحد الناصريين الذي رد بأن الميثاق وثيقة حرية بكل إعزاز كإنجاز من إنجازات الفكر قبل أن يكون لها نظير وأن العمل يتطور عن تجارب فعلية ورد اليسار ممثلًا في شخص آخر : أنه لم تكن هناك تجارب يمكن أن يقال أنها أخضعت للتقييم ، فنحسس طريقنا إلى أساليب للتطبيق من خلال الموازنة بين الخطأ والصواب ، وإنما كلها اتجاهات تفرض من أعلى وعلى سبيل المثال ، تدعى أجهزة الاتحاد الاشتراكي إلى اجتماعات دورية متباعدة لمتابعة سير العمل في الأقاليم ، وبعد مناقشات تستغرق ساعات ، تملى عليها قرارات معدة سابقة من مستويات عليا .

ثم طلبت الكلمة وقلت : إن كل النظريات الإنسانية والاجتماعية ، وعلومها التي أتى بها الغرب حديثًا ، إنما هي عرضة للخطأ والصواب ، والتبديل والتعديل ، وربما يكتشف الغرب عما قريب خطأها فهي لا تتمتع بعوامل الثبات ، إذ أنها لم تقم على أسس رياضية تضمن لها الثبات ، كما أنها ليست بتنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعندئذٍ غضب اليسار ، بينما ضحك الناصريون ، وإن لم يكن تأييدًا ، فإغاظة لليسار ، ثم أضفت ما معناه : أننا نمر بمرحلة حرجة من تاريخنا ، وأن العدو ما زال يحتل أرضنا ، ويجب علينا أن لا ننشغل بالمهاترات السياسية العقيمة عن المعركة ، والأجدى أن تلتفت كل القوى السياسية للبحث عن حلول لما يعانيه كل قطاع من مشاكل وعوائق ، وعلى أن يعمل على حل المشاكل التي يعاني منها القطاع الذي يعيش فيه ، وكان الطلاب في هذا الوقت يعانون من مشاكل كثيرة ، ثم انتهى الاجتماع ، مع حنق شديد من اليسار ، ولا أتذكر إذا كان قد تحدث أحد بعدي أم لا .

بعد أن حضرت الاجتماع الأول لجماعة ناصر ، وكان قد طلب مني التوقيع على طلب للعضوية ، ولكني طلبت تأجيل ذلك ، ثم التقيت بعدها ببعض من الزملاء الذين حضروا الاجتماع الأول أو الحفل ، وكنت أتسائل صراحة إذا كان اتحاد الطلاب قد قام بالإنفاق على الحفل ، وأحضر على نفقته الجاتوة والمشروبات ، أم أن للجماعة ميزانية خاصة ، ومن أين أتوا بها ؟ وذات مرة ، وبينما كنت في حوار مع أحد الزملاء الأعضاء بالجماعة ، سألته عن ذلك وحاول أن يتهرب من الإجابة ، ولكني أثقلت عليه ، حتى ابتسم وقال : الناس الفقراء اللي زينا بيدوروا على أي حاجة فيها مصلحة ، حفلات ، رحلات ، أي مساعدات تمشي الحال ،

وذات مرة حضرت اجتماعًا محدودًا مع الأخ مقرر الجماعة ، وعدد من الأعضاء البارزين بها ، وقد وجدت أن طريقتهم في الحوار هي نفس طريقة أعضاء الاتحاد الاشتراكي ، في المراوغة والتزويغ ، والإفلاس الفكري ، فلم أنضم إلى الجماعة ولم أحضر لها اجتماعات بعد ذلك .

**الكاهن الأعظم والناصرية :**

بعد الموقف الذي ذكرت بعدة أيام ، قابلني أحد الأخوة الأعضاء بجماعة ناصر ، ووقفنا سويًا نتجاذب أطراف الحديث ، وأبلغني أنهم سوف يذهبون في المساء لمقابلة الأستاذ محمد حسنين هيكل ، رئيس مجلس إدارة صحيفة الأهرام ورئيس التحرير ، وعرض عليَّ أن أصطحبهم ، فاعتذرت ، ولم أسأله عن الأسباب التي تدعو لمقابلة هذه الشخصية الكبيرة ، فقد كنت أعلم أنها الرأس المدبرة والمؤسسة لهذه الجماعة ، فبعد وفاة الزعيم جمال عبد الناصر ، وحدث النزاع على الإرث الناصري ، والذي انتهى بالقضاء على مراكز القوى ، كما أطلق عليها السادات ، وهم في الحقيقة كهنة المعبد ، وأعلن السادات أنه لن يسمح بقيام مراكز للقوى ، من قبل أن يطيح بهم ، أي لن يسمح بوجود كهنة ، وأنه لن يقيم معبدًا ، ولما كان الأستاذ هيكل هو الكاهن الأعظم في معبد الناصرية ، وقد اشتهر عنه أنه كان يحرك الخيوط أو الأمور في الخفاء ، وكثيرًا ما كان يشير إلى ذلك في مقاله الأسبوعي بصراحة ، والذي كان يُنشَر كل يوم جمعة بجريدة الأهرام ، إلى أنه وراء كل حدث ، وكل قرار يصدر عن عبد الناصر ، وكان يفتخر بعلمه بالقرار الجمهوري قبل صدوره ، فلم يكن وحده في ذلك فقد كان هناك مجموعة من الكهنة في المعبد الناصري الذي شيد لعبد الناصر عبر السنين ، حتى عزلوه عن الجماهير ، وصاروا هم الحكام الحقيقيين ، الذين يحكمون من خلف جمال عبد الناصر ، وكان مصلحة عصبة الكهنة أن يتجمعوا سويًا ، وأن يختاروا من بينهم رجلًا ، ليكون رمزًا للحكم حتى يحفظ مصالحهم مع مصلحته المرتبطة بهم ، وحتى يحتفظ كل منهم بكرسي للحكم ، وأجمع الكهنة على الوصول بأحدهم وهو السيد علي صبري ، وقضى عليهم السادات مسرعًا ، بضربة معلم ، فأطاح بالرأس أولًا ، فعزل علي صبري من جميع مناصبه بالاتحاد الاشتراكي العربي ، إلا أن الكاهن الأعظم استطاع أن يحتفظ بمركز للقوى مستقلًا ، ولو كانوا نجحوا لكان مركزه محفوظًا بينهم أيضًا .

وبصراحة ، لم يكن الأستاذ هيكل يريد كرسيًا أو مركزًا قياديًا أو كرسي في الحكم ، إنما كان يريد أن يبقى الكاهن الأعظم في معبد الحكم ، وسقطت هيئة الكهنة ، ولم يبقى إلا الكاهن الأعظم ، وحاول مرارًا أن يمارس دوره في الكهانة مع السادات ، حتى يئس فأخذ يبحث

عن رئيس آخر يمارس عليه دور الكهانة التي أجادها عبر السنين وتمرس فيها . فأخذ يبحث عن رئيس آخر يمارس من وراءه هوايته ، أو لعبته التي حُرم منها ، ولما كان ليس في مصر سوى رئيس واحد ، اتجه إلى العالم الخارجي ، ووجد ضالته قريبة منه ومن مصر ، في العقيد الليبي معمر القذافي قائد الثورة الليبية ، ووجد فيه صيدًا ثمينًا ، وقد ارتدى العقيد قميص عبد الناصر بعد وفاته ، وعاش في الدور وسرعان ما التف عليه الكاهن الأعظم ، وبايعه على أنه الوريث الشرعي لعبد الناصر وخليفته ، والزعيم الأوحد بين العرب ، وليس أحد أحق بالخلافة منه ، وعليه أن يوحد بين العرب في دولة واحدة ، يكون هو رئيسها ، وليبدأ أولًا بضم مصر إليه ، حتى يحرر فلسطين ، وأن يكمل ما بدأه عبد الناصر ، في مشوار الوحدة العربية ، وتحرير فلسطين ، فشيد له معبدًا ، وأقام جماعة ناصر ، تدعو إلى الناصرية ، ولزعامة القذافي الوريث الشرعي لعبد الناصر ، وأغدق العقيد الأموال على الكاهن الأعظم وعلى جماعة ناصر ، فحينما كان الرئيس عبد الناصر رحمه الله في زيارة طرابلس ، قال للعقيد : أنت تذكرني بشبابي ، وهذه الكلمة وحدها ، التي لم يقلها لأحد غيره ، هي بمثابة وصيته بالخلافة وزعامة الأمة العربية .

ولما رأيت الحركة الطلابية التي تفجرت في يوم ٢٤ يناير ١٩٦٨ ، بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، قد تمزقت ، وتحولت إلى تكتلات سياسية تحكمها المصالح والأهواء ، بعد أن كانت تجمعها أهداف وطنية واحدة ، وكانت نقية ، تعبر عن الإرادة الشعبية ، وانطلقت من وجداننا ، وجمعت الكل ، بلا خلاف ، ولم تكن وراءها أياد خفية تحركها من خارج الجامعة ، ولم أجد تكتل سياسي ناضج ونقي أنتمي إليه ، فرأيت أن أبتعد ولكني لم أستطع أن أكون في معزل عن الأحداث ، ومتابعتها .

**جلاء الخبراء السوفيت :**

في أواخر عام ١٩٧١ ، ظهر ضباط القوات المسلحة في الشوارع ، وفي كل مكان ، وقد وضع كل مسدسه على خاصرته ، لا يفارقه أينما ذهب ، وقد كان ذلك أمر ملفتًا للنظر ومثير للتساؤل ، وأخذ المرجفون في المدينة ، والذين في قلوبهم مرض ، يصورون للناس أن هذا أمر من أجل إرهاب الشعب ، وإثارة الرعب بين الناس وكنت أسأل الأصدقاء من ضباط القوات المسلحة عن السبب وراء الطبنجة التي يحملها كل ضابط في إجازته ، وهو بين أهله وذويه ، وكان الكل يجيب بهدوء : أننا في حالة حرب ، وصدرت إلينا الأوامر ألا نفارق سلاحنا ، غير أن أحدهم قال لي ذات مرة ، وكان بيننا ود كبير وصداقة عميقة : ستعرف

قريبًا ، وفي شهر إبريل من عام ١٩٧٢ ، تقريبًا ، عقد الرئيس السادات مؤتمرًا بمدينة أسوان للخبراء السوفيت ، وشكرهم على أدائهم مهمتهم ، وطلب منهم مغادرة البلاد ، وذلك بعد أن انتهى إقامة حائط صواريخ الدفاع الجوي ، وأنه يريد أن يكون القرار المصري قرارًا حرًّا ، متحررًا من كل القيود ، وكان تعداد الخبراء السوفيت قد وصل إلى عشرين ألف خبير .

وبعد هذه الواقعة ، علمت أن الخبراء السوفيت ، كانوا يضعون حدودًا للعلم الذي يجب عليهم أن يعلموه للضابط المصري ، والذي يجب ألا يتعداه ، وإذا تفوق أحد الضباط ، وتعدى الحدود العلمية التي وضعوها قتلوه ، وقد وقعت أكثر من حادثة وجد فيها أحد الضباط مقتولًا ، ولما علم الرئيس السادات بذلك ، أمر بتسليح كل ضابط مصري بسلاح شخصي «طبنجة» يدافع به عن نفسه ضد أي إنسان ، كما ضبطت أكثر من حالة على الجبهة لخبراء سوفيت ينقلون أخبارًا عسكرية عبر اللاسلكي للعدو الصهيوني على الضفة الأخرى من القناة ، وكان السوفيت يمدوننا بالسلاح على أن يبقى الوضع على ما هو عليه ، وأخذوا يشيعون روح الاستسلام ، وينشرون أن خط بارليف الذي أقامه وزير الدفاع الإسرائيلي على الضفة الشرقية من القناة ، والذي سمي باسمه ، هو أقوى خط حصين في التاريخ ، وهو مكون من الحجارة ، وقضبان السكك الحديدية القديمة ، وعربات القطار ، ثم يكسو ذلك كله ساتر ترابي يصل إلى عدة أمتار لكي يكون مصدة لقذائف المدفعية المصرية ، فلا يمكن لقذيفة أن تخترقه وقد تعدى ارتفاعه السبعين مترًا ، ولا يمكن تدميره إلا بقنبلة ذرية ، فهو خط مانع وحصين ، وأمامه المانع المائي ، وهو قناة السويس ، التي أعدها العدو الصهيوني إلى للاشتعال بالنابلم في أي وقت يفكر فيه المصريون أن يعبروا القناة ، وخرج السوفيت بنتائج علمية تخبر أن المصريين إذا حاولوا عبور القناة ، فسوف تكون خسائرهم ما بين السبعين والثمانين بالمائة (٧٠-٨٠٪) ، وكذلك قال الأمريكان أيضًا .

وعلى كل فلم يكن السوفيت في صداقتهم لمصر على إخلاص ، كما هو الحال بين الأمريكان وإسرائيل ، فقد كانوا يمدون مصر بالسلاح ، ولا يريدون لها أن تنتصر على إسرائيل ، فهم يريدونها دومًا أن تبقى في قبضتهم ، ولا تخرج عن ركابهم ، فأول من هاجر إلى فلسطين لإقامة دولة صهيونية على أرضها ، كان أغلبهم من اليهود الروس ، كما أن أول دولة في العالم اعترفت بإسرائيل ، يوم أعلنت في مايو ١٩٤٧ ، هي الاتحاد السوفيتي ، وكان الاتحاد السوفيتي برمته ، تحت سيطرة اليهود الروس ، في الخفاء ، وعلى سبيل المثال ، ففي عام ١٩٦٧ كان أعضاء مجلس السوفيت الأعلى ، وهو أعلى هيئة حاكمة في الاتحاد السوفيتي ، وعددهم

عشرون ، سبعة عشر منهم من اليهود الروس ، وأما الثلاثة الباقون ، فكانوا متزوجين من يهوديات ، وبعد رحيل الخبراء السوفيت ، فقد تغيرت صيحة القتال في القوات المسلحة من الصيحة السوفيتية «هع» إلى صيحة التوحيد : الله أكبر .

**العقيد الليبي والكاهن الأعظم وقلائل :**

استمرت جماعة ناصر في لقاءاتها بالكاهن الأعظم بمكتبه بصحيفة الأهرام ، تتلقى التعليمات والأوامر ، والهبات والمعونات القذافية ، وقد كان العقيد الليبي كثيرًا ما يحضر إلى القاهرة ، يدعو الجماهير إلى الديماجوجية ، أي الوحدة ، كما كان يحلو له أن يسميها ، فبما أنه خليفة جمال عبد الناصر ، والوريث الشرعي له ، فلابد أن يدخل على العربية مصطلحات سياسية كما كان يفعل عبد الناصر ، وكان يعقد اجتماعات للمفكرين والكتاب والصحفيين ، ويتعجل الديماجوجية مع مصر ، أو بمعنى أصح ، دمج مصر في سلطانه ، باعتبار أن السادات لا يصلح للطريق الناصري ، الذي ولاه عليه عبد الناصر رحمه الله ، ولا يصلح في الأمة العربية كلها أحد غيره للزعامة وخلافة عبد الناصر .

وفي أحد الأيام من شهر يناير ١٩٧٢ ، أقامت جماعة ناصر بالكلية حفلًا بمدرج فلسطين ، وهو أكبر مدرج بالكلية ، والذي أغلق لعدة سنوات ، إثر تجمعنا فيه في يناير ١٩٦٩ ، بأعداد تفوق أو تتعدى متانته ، ثم أغلق حتى تم الكشف عليه وعمل الاختبارات اللازمة للاطمئنان على صلاحيته ، وإجراء الصيانة اللازمة .

وقد أقيم هذا الحفل احتفالًا بذكرى ميلاد الرئيس الراحل ، والذي ولد في ١٧ يناير ١٩١٨ ، وقد دعي إلى هذا الحفل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد فؤاد نجم ، والشيخ إمام عيسى رحمه الله ، والحقيقة أنني لم أحضر هذا الحفل حتى أصفه ، إلا أني أعرف الأستاذ نجم شاعر الشعب جيدًا ، وأعرف أشعاره ، وقد استمعت كثيرًا للشيخ إمام ، وهو يشدو بأشعار شاعر الشعب الأستاذ نجم ، ويبث في الناس الحماس والوطنية وروح الثورة .

وبعد أيام قليلة فوجئنا بإلقاء القبض على الأستاذ أحمد فؤاد نجم وزوجته الصحافية الأستاذة صافيناز كاظم ، كما اعتقل أربعة من الطلبة بالكلية ، من ذوي الميول الماركسية ، ومنهم الأخ رئيس الاتحاد ، وقد ألقى القبض أيضًا على عدد من الطلبة بجامعة القاهرة ، وبعد عدة أيام حضرت أمهات الطلبة المعتقلين إلى الكلية وعقد مؤتمر بمدرج فلسطين للمطالبة بالإفراج عن الطلبة وقد حضره حوالي ألفين من الطلاب ، وعدد من الأساتذة ، وهو موقف قد أخذ على السلطة في عصر السادات ، وعلى السادات شخصيًا ، وهو الذي

أفرج عن جميع المعتقلين السياسيين ، وفتح باب حرية الرأي ، وحرية الممارسات السياسية ، ولكن سرعان ما أفرج عنهم ، ثم أفرج عن الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم ، والأستاذة الصحافية صافيناز كاظم .

**المسيرة الخضراء :**

ظل العقيد الليبي يتعجل الديماجوجية مع مصر ، ومن وراءه جماعة ناصر وذيول مراكز القوى يشيعون بين الناس أن السادات لا يسير في طريق عبد الناصر ، وهو يسعى للارتماء في أحضان الأمريكان ، وخاصة أن زيارة كيسنجر وزير خارجية أمريكا قد تكررت مرارًا ، وكان في كل مرة لابد أن يجتمع بالرئيس السادات ، وبعد أن قام الرئيس السادات بطرد الخبراء السوفيت من القاهرة ، كان قد كثر اللغط والتكهنات بأن السادات لن يحارب بعد أن استغنى عن الخبراء السوفيت ، فالسادات يسير على خط عبد الناصر بأستيكة ، كما كانوا يقولون ، ودعا الزعيم الناصري الأوحد ، العقيد القذافي الجماهير الليبية إلى مسيرة خضراء تقوم من طرابلس بليبيا ، في سيارات تحمل أعلامًا خضراء ، وهو علم الثورة الليبية إلى القاهرة لفرض الديماجوجية بين ليبيا ومصر ، وتخليص مصر من حكم السادات الأمريكي ، وقد عبرت المسيرة منفذ السلوم ، ومرسى مطروح ، حتى وصلت إلى مشارف الإسكندرية ، ثم أوقفت واضطرت للعودة .

ولم يشجع أحد هذا العمل الفوضوي لفرض الديماجوجية إلا أدعياء الناصرية ، وأذيال مراكز القوى المنهارة من الكارهين للسادات ، وأما الغالبية العظمى من الشعب ، فكانت ترى أننا لابد أن نستفيد من التجربة الفاشلة للوحدة بين مصر وسوريا ، التي قامت على الزيطة والهتافات ، ولم تقم على دراسة واقعية ، ومراحل زمنية ، وخطوات تنفيذية متأنية .

وهكذا قد أخذت الرؤى الثورية تتضح ، وتتبلور معها الأهداف ، ونستبين الطريق من خلال التجربة الثورية التي خضناها مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بنجاحاتها وفشلها ، وسلبياتها وإيجابياتها ، ولا شك أن الأقدمية والخبرة من خلال ممارسة التجربة ـ ومحك الفشل والنجاح ، هي عوامل مهمة لترقي الفكر .

والحقيقة أننا كنا نعيش الوحدة العربية في أجمل معانيها وأرفعها ، والتي تجلت في فرض إرادة الشعب العربي ، وإن اختلف الحكام . ولم نكن في حاجه إلى المزيد في هذه المرحلة من مراحل النضال التي خاضتها الأمة العربية من أجل الثأر واسترداد الكرامة ، وتحرير الأرض العربية المغتصبة . ولم نكن في حاجة إلى الديماجوجية . فعلى الجبهة المصرية كانت تقف كتيبة

سعودية مع القوات المسلحة المصرية ، وأخرى كويتية ، وثالثة من السودان ، ورابعة من المغرب ، وخامسة من الجزائر . كما كان للمساعدات الاقتصادية التي قررها مؤتمر القمة العربية بالخرطوم عامل مهم لصمود مصر . وليس هذا وحسب ، بل كان أيضًا لفتح الأبواب العربية لامتصاص العمالة المصرية الزائدة في الدول العربية الغنية بالبترول مثل السعودية والكويت ودولة الإمارات العربية وليبيا أثر ملموس على الاقتصاد المصري ، وكان له انعكاسه على المجتمع .

وظهر العالم العربي في هذه الحقبة من تاريخه أنه أمة واحدة ، تجمعهم جغرافيا واحدة ، وتاريخ واحد ، ولغة واحدة ، تشكل عن ذلك كله وجدان عربي واحد ، تتطلع شعوبه جميعًا نحو غد أفضل في أمة عربية موحدة . ولم يستطع الاستعمار بالحواجز التي أقامها بتنسيم العالم العربي إلى دول أن يقضي على الوجدان العربي ، وأن يفرق بين الشعب العربي ، الذي ظهر كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر واحمى . ولن تستطيع قوة على الأرض أن تقضي على وحدته .

## مقالات آخر المطاف

في شهر يناير عام ١٩٧٣ ، وفي ذكرى حركة ٢٤ يناير ، التي تفجرت في عام ١٩٦٨ ، بعد هزيمة يونيو ، والتي اجتمع فيها الكل ، وانصهر في بوتقة الوطنية ، وذابت الأهواء والنزعات السياسية ، والتقينا جميعًا حول أهداف واحدة وهي الحرية ، وتحرير الأرض المغتصبة ، والتي كادت أن تنسى في خضم الصراعات السياسية ، بين الناصريين ، والماركسيين ، والإسلاميين ، وقد ظهر أصحاب نزعة سياسية أخرى ، وهم الليبراليون ، وإن كانوا أقل تكتلًا وتأثيرًا على الساحة السياسية داخل الكلية .

وكان السكون يخيم على الجبهة المصرية بعد إيقاف حرب الاستنزاف ، رأيت أن أكتب عدة مقالات ، وأعلقها بممر الصحافة في الكلية ، حتى نتذكر جميعًا الأهداف التي التقينا عليها في ٢٤ يناير ١٩٦٨ ، وحتى يعلم الطلبة الذين لم يشهدوا هذه الأحداث ، ولكني للأسف لم أجد سوى مسودتين لهذين المقالين ، وأما عن المقال الأول : فقد حركني لكتابة هذا المقال الأحداث التي ذكرت فيه ، حيث كانت الجبهة السورية ساخنة ، ففيها لم تتوقف حرب الاستنزاف ، وقد شدت المدفعية السورية في هذا اليوم ، وأوقعت بين قوات العدو الصهيوني خسائر فادحة ، فرح لها العرب جميعًا ، وقد تصادف في هذا اليوم تبادل بين الأسرى الفلسطينيين والإسرائيليين ، بعد أن قامت المقاومة الفلسطينية بعملية شجاعة وفدائية ضد العدو الصهيوني وأوقعت بجانبه خسائر كبيرة ، وأسرت بعض جنوده ، واشترطت تبادلهم بالرجال الذين قاموا باغتيال فريق كرة القدم الإسرائيلية بمدينة مويونيخ بألمانيا من المقاومة الفلسطينية ، وتم إلقاء القبض عليهم وإرسالهم لإسرائيل لمحاكمتهم ، وتم ذلك في الوقت الذي كانت فيه الجبهة المصرية باردة ، وهذا ما أحزنني فكتبت هذا المقال :

### رسالة من الثوار

أرض المعارك : في يوم المدفعية السورية .

الموافق : إطلاق سراح أبطال ميونيخ تحت ضغط ثوار فلسطين .

## من الجبهة الساخنة إلى الجبهة الباردة

مصر الحبيبة :

يا قبلة الثوار ، ويا مجيرة الأحرار ، هؤلاء أخوة النضال في سوريا وفلسطين يؤرقون مضاجع العدو ، ويلهبون الثرى من تحت أقدامه ، وأنت ساكنة ، لا تنطقين بقذيفة ، أو رصاصة ، أتنظرين الثوار بشفقة ؟! أم تنظرين إليهم نظرة عجب حازت إعجاب العاجز الجبان .

تتحدثين عن الثوار ، وكأنك تنسبين بطولتهم إليك ، وما أكثر أهازيج النصر يذيعها مذياعك المفلاس .

لا .... لا يا مصر ، إن الثوار لا يشكرون الشفقة ، ولا يحترمون العجز والجبن ، إنما يحترمون صوت مدفع ينطلق من القناة ليؤازر إخوة له في سوريا وفلسطين ، وشهيدًا منك يعانق شقيقًا له من أبناء العروبة ، عانى من مر الهزيمة والعار .

لا .... لا يا مصر ، لا تكونين مهيضة الجناح ، فما أقوى جناحيك ، يا صاحبة الأهرام ، يا صانعة الحضارة ، يا قاهرة التتار ، يا شامخة في معركة السويس .

لا أظن أن شعبك قد هرم أو أصابه الغثيان ، ولا هو سائر في سراب يبكي الأطلال ، ويتوعد بالثأر ، ويقسم بالآباء والأجداد ، والعدو يلهو ويعربد على أرض كانت مصرية منذ أعوام .

لا تكتب يا مصر شيئًا عن الثوار في صحافتك ، فقد رخصت أقلامها ، وقيدت حريتها تحت شعار حرية الصحافة .

لا تنقلين خبرًا عن الثوار في مذياعك ، ولا تعرضين أفلامًا عن بطولتهم في أجهزة إعلامك ، فالثوار ليسوا في حاجة إلى دعايتك ، فهم لا يعرفون صوتًا لدعايتهم سوى صوت البندقية وهدير المدافع ، وأفلامهم التي يعيشونها هناك على أرض المعارك .

المقال الثاني : وأعود بالذاكرة فأتذكر تلك الأسباب التي دعتني إلى كتابته .

كثر اللغط ، والجدل السياسي العقيم بين الطلاب ، وكأننا انتهينا من المعركة ، وكانت الموضة السارية السياسية ، أنه كلما كثر استعمال المتحدث أو المجادل للمصطلحات السياسية الغربية في كلامه ، كلما أعرب عن ثقافته ، وعمقه السياسي ، وكثيرًا ما يردد ذلك المتحدث مصطلحات غربية لا يفهمها ، وقد يكون أيضًا على ضحالة فكرية ، وغالبًا ما تجد هذا الصنف من الناس الذي يردد كثيرًا المصطلحات الغربية ، يتحدث عن فكر الغرب وحضارته ، وكأننا لم نولد ، أو لم يكن لنا وجود في هذه الدنيا إلا بعد ميلاد الغرب ، الذي ينظر إلينا باعتبار أننا من

العالم الثالث ، والحقيقة التي لا مراء فيها أننا أول دولة أقامت حضارة ، ولا نغالي إن قلنا : أننا عالم بذاته مستقل عن سائر العوالم ، إننا مصر ، صاحبة الحضارة ، من قبل أن يولد الغرب ، ومن قبل أن يتخبط في دياجير الظلام في عصوره الوسطى ، وأن يقوم شعب ويبني حضارة ، لابد أن تحكمه مبادئ تخرج من تربته ، ويتعهدها بالري والرعاية حتى تترعرع وتؤتي ثمارها ، ولابد أن تكون هذه المبادئ يفهمها الكل ، من أبسط الناس على أرضه إلى أعلم الناس ، أو أكثرهم علمًا ، ولا يختلف على معناها اثنان ، وباختصار فقد فكرت وتخيلت المبادئ التي قامت عليها حضارتنا العريقة ، وكيف خرجت من تربة مصر ، ولم تستورد ، وكيف كانت بسيطة ، بساطة المصري وانسجامه مع الطبيعة ، فانطلقت من وجداني هذه المبادئ التي ضمنتها هذا المقال الذي علق بممر الصحافة بالكلية في شهر فبراير ١٩٧٣ .

## رسالة

## من مصر الأهرام

**نحن الفراعنة العظماء :**

قد رأينا أنه لزامًا علينا نحو أبناء شعبنا العظيم أن ننقل إليهم تجربتنا السياسية والاجتماعية في الحكم ، ومبادئنا البسيطة التي استنبطناها من تراب مصر الطاهر ، ومزجناها بماء النيل الطيب ، فسرت في كيان أبناء شعبنا العظيم ، واستطاع بها ومن خلالها أن يقيم أعظم الحضارات في تاريخ الإنسانية .

يا أبناء شعبنا العظيم :

لم تقم حضارة بغير فكر يتبلور من خلاله النظام السياسي والاجتماعي للشعب الذي يبني حضارته ، وقد قامت حضارتي على مبادئ ست ، بسيطة ، خرجت من تربتي ، ونمت وأينعت وأثمرت في أرضي :

أولًا : كان لثقتي بالله ، واعتقادي فيه ، واعتزازي بمصر ، أنني لم أستورد شعارًا من خارج حدود وطني ، ولم ندخل على نظريتنا السياسية والاجتماعية أي كلمة مستحدثة وغير راسخة في نفوس أبناء شعبنا العظيم ، حتى لا تختلط عليه المعاني والأهداف .

فقد تلاشيت ما يحدث بينكم الآن من فرقة واختلافات ، فجماعة منكم ترفع شعارات الناصرية ، وترى فيها انتماء للمجتمع المصري ، وأخرى ترى أن الماركسية أعمق وأشمل وهي قمة التطور الاجتماعي والسياسي ، كما أنها موضة العصر ، وإذا لم ترتدي مصر زى

الموضة ، فسوف تظل متخلفة ، وطائفة ثالثة ورابعة ... إلخ ، وكل يرى أن النظرية الاجتماعية لا تزيد عن رداء يرتديه ، ويفتخر ويتباهى بأصله وجوهره أمام الآخرين من أخوته في مصر ، وتنازعتم أمركم وتبدد وقتكم في المهاترات السياسية العقيمة التي لا تعود على مصر الحبيبة بفائدة ، خاصة والعدو جاسم على قطعة من أرضها ، ويتربص بكم الدوائر .

ثانيًا : كان وقت شعبي ثمينًا ، ورأيت أنه لا يؤمن بغير العمل ، والعمل المتصل هو السبيل الوحيد لبناء الحضارة ، فصاغ نظريته الاجتماعية في ستة عناصر بسيطة ، كل عنصر أو مبدأ منها يتكون من كلمة واحدة ، وكل كلمة فيها لا تزيد عن أربعة حروف ، فكانت بسيطة مثل بساطة شعبي التي أورثته إياها سهولة أرضي ، وصفاء سمائي ، وانسجام شعبي مع الطبيعة ، ولكنها عميقة وجاء من بعدي من الأمم ، من وضعوا شبيهًا لها معقدًا ، فاستوردها أحفادي تحت شعارات شتى وأسماء مختلفة ، وكلمات اختلط أمرها على شعبي البسيط ، وضاع وقته الثمين في الجدال والمهاترات السياسية العقيمة .

ثالثًا : إليكم عناصر العمل المبدع لشعبي العظيم ومبادؤه ، التي سرت في كيانه جميعًا ، ولم يختلط أمرها على أحد ، من الكاهن في المعبد حتى الفلاح في الحقل .

الله ـ مصر ـ الحب ـ خذ ـ هات ـ أنت أنا .

وهذه العناصر مرتبة حسب أهميتها ، وقيمتها كما أنه يجب ألا تعجبوا إن كنت قد بدأت نظريتي الاجتماعية بالخالق جل وعز ، فلا وجود بغير أول الوجود ، ومُوجد الوجود ، فقد اهتديت إلى توحيد الإله وعبدته في صورة إله واحد ، ولهذا فقد كان شعبي العظيم يتقبل الرسالات السماوية ، حينما أراد الله أن يبدد حيرة البشر ويهديهم إليه ، فأرسل رسلًا إلى الخلق ليهديهم إليه .

وكان شعبي العظيم من أول الشعوب التي آمنت بالرسالات السماوية ، وانظر إلى المبدأ السادس ، ترى أن الأنا قد ذابت في أنت ، ولم يعرف شعبي الأنانية والأنا مالية ، فقد ذاب الكل في ذات مصر .

## المظاهرة الأخيرة

وبرغم ما خلفته الهزيمة من خسائر ، وإعادة بناء القوات المسلحة ، وتهجير الملايين من مدن القناة إلى القاهرة والمحافظات الأخرى ، وما ترتب على ذلك من تكاليف باهظة ، وضغط على الاقتصاد المصري ، إلا أنه قد تم المحافظة على الأسعار ، وخاصة رغيف الخبز ، الذي ظل سعره ثابتًا ، ولم ترتفع أسعار السلع الأساسية ، مثل الزيت والسكر والأرز والسمن والفراخ واللحم ، إلا ارتفاعات طفيفة .

وإن كانت قد شحت بعض السلع ، والتي كانت توفرها الدولة في المجمعات الاستهلاكية والتعاونية المملوكة للدولة ، والتي كان الناس يزدحمون في طوابير أمامها غالبًا ، من أجل شراء اللحم المجمد والفراخ المجمدة ، والأسماك ، وغيره من السلع التي تشح في الأسواق .

وأخذت المرافق العامة والخدمات تسوء ، وتزداد سوءًا مع مرور السنين ، فكنا نعاني من ندرة مياه الشرب ، وأغلب شوارع القاهرة كانت غارقة في مياه المجاري أو الصرف الصحي ، كما ساءت أيضًا حالة الشوارع الرئيسية ، وتهالك رصفها ، ولم تعد تصلح لسير السيارات عليها ، وازدادت أيضًا حالة المواصلات العامة سوءًا ، فكانت أتوبيسات النقل العام تسير محشوة بالناس الذين يفيضون من أبوابها ، ويبرزون في الهواء ، وأما عن التليفونات ، فقد كانت نادرة ، وسيئة الخدمة ، وكثيرة الأعطال .

وأما عن الكهرباء ، فقد كانت كثيرة انقطاع التيار ، كما أن كثيرًا من مناطق القاهرة ، ومنازلها كانت تعيش على الإضاءة بالجاز أو الكيروسين ، ولم تكن قد دخلتها الكهرباء .

ومع ذلك كله ، فقد كانت البلد في حالة انضباط ، فقد ألفنا هذا الوضع ، ولم نكن نشكو من شيء ، ولم نشعر بالضجر سوى تأخر المعركة وتحرير الأرض المغتصبة والثأر واسترداد الكرامة ، فلا شيء يدعو إلى تضامن الشعب المصري ، وتكاتفه ، وتضامنه أكثر من وجود عدو فوق أرضه ، فقد كانت المرارة كامنة في النفوس ، والإحساس بالذل والمهانة ، ولم يكن من أمر أهم من تطهير الأرض المغتصبة من دنس العدو ، واسترداد الكرامة مهما كان الثمن .

وفي شهر إبريل ١٩٧٣ ، ارتفع سعر اللحم البلدي من ثمانية وستين قرشًا إلى مائة قرش أي جنيهًا واحدًا للكيلو الواحد ، فنظم الناصريون أو جماعة ناصر بالكلية بالتعاون مع

الماركسيين مظاهرة ، وضموا إليهم عددًا من الطلبة ، وخرجوا في مظاهرة لم أشارك فيها ، إلا أنني حينما علمت بالهتافات التي كانوا يرددونها فقد اشمئززت منها ، واقشعر لها بدني ، فقد سارت المظاهرة ، وكان تعداد المشاركين فيها لا يزيد عن ألفي من الطلاب وقد اتجهوا إلى مجلس الشعب وهم يرددون :

سيد[1] بيه ... يا سيد بيه ... كيلو اللحمة بقى بجنية ...

والغلبان يعمل ايه .

عايزين ناكل .

وهكذا قد تشتت الحركة الطلابية التي تفجرت بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، والتي كان نواتها أولئك النفر من طلبة الجامعة ، الذين هُرعوا إلى جامعاتهم بمجرد سماعهم بأول نبأ عن نشوب القتال بين العرب وإسرائيل ، من أجل الانضمام إلى صفوف المقاومة الشعبية ، ومن أجل تشكيل جيوشًا شعبية تحمي وتؤازر ظهر الجيش ، وهكذا قد تحولت حركة ٢٤ يناير الطلابية التي بدأت يوم ٢٤ يناير ١٩٦٨ ، من أجل فرض الإرادة الشعبية ، ومن أجل الحرية وتحرير الأرض المغتصبة ، والثأر واسترداد الكرامة ، فتحولت إلى شتات تتنازعه الأهواء والميول السياسية ، وتعبث به الأيادي الخارجية ، وتجمعه وتوجهه وفق أهوائها ورغباتها ، ولا تعبر عن إرادة الجماهير التي ارتضت أن تشد الحزام من أجل تحرير الأرض المغتصبة ، ومن أجل العزة والكرامة والثأر لدماء الشهداء .

(١) سيد بيه : المقصود المهندس سيد مرعي ، رئيس مجلس الشعب .

## اليوم العظيم

أخذت الرحلات المكوكية للسيد هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية ، تنشط ، وتتكرر بين القاهرة وتل أبيب ودمشق وعمان ، وقد سيطر على الغالبية العظمى بيننا أن السادات مستمر في المفاوضات التي بدأها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر رحمه الله ، مع روجرز وزير الخارجية الأمريكي قبل كيسنجر ، والجبهة المصرية قد خيم عليها السكون منذ وقف حرب الاستنزاف إلا من عمليات خاصة وقليلة ، كان يقوم بها بعض من قواتنا الخاصة ، خلف خطوط العدو ، سواء كان ذلك عن طريق الإبرار الجوي ، أو بعبور القناة ليلًا في قوارب مطاطية لتنفيذ مهام وعمليات خلف خطوط العدو ، وبات الكل ينتظر نتائج مفاوضات السادات – كيسنجر ، ونهايتها ، وهي أهم ما كان يشغل الرأي العام في هذا الوقت .

وفي يوم الجمعة الموافق الخامس من أكتوبر ١٩٧٣ ، التاسع من رمضان ، فوجئ المصلين بزاوية الشيخ صالح العبد بشارع ترعة الجبل ، بحي كوبري القبة ، وأثناء صلاة الجمعة بالرئيس السادات يدخل المسجد ، وبعد انتهاء الصلاة ، وقف الرئيس بين المصلين ، وأخذ يصافح جيرانه القدامى فردًا فردًا ، ويسأل كلًا عن حاجته ، فهو الحي الذي تربى فيه ، وقضى شبابه ، ثم مضى بين دعاء الصائمين ، والتهليل والتكبير ، ولم يكن الرئيس السادات يسير في موكب وركاب ، ولم تكن تصحبه سوى سيارتين للحرس الخاص ، سيارة تسير أمام سيارته ، وسيارة خلفه كانوا يقفون بجوار المسجد ، أو الزاوية الصغيرة .

وفي اليوم التالي ، أي يوم السادس من أكتوبر الموافق العاشر من رمضان ، وبعد الساعة الثانية ظهرًا بقليل أذيع خبر نشوب القتال على الجبهة المصرية بين قواتنا وقوات العدو الصهيوني ، ثم أخذت البيانات العسكرية تتوالى عن هجوم أسراب طائراتنا على مطارات العدو بسيناء ومواقعه الحصينة وتدميرها ، ثم أخذت تتلاحق البيانات العسكرية عن نجاح قواتنا المسلحة في عبور القناة واقتحامها لخط بارليف ، بعد أن دكته مدفعيتنا دكًا شديدًا .

والحقيقة أننا لم نصدق في بادئ الأمر تلك البيانات العسكرية التي أذيعت فقد كانت البيانات الكاذبة التي أذيعت في ٥ يونيو ١٩٦٧ ، ما زالت ذكراها تعيش في نفوسنا ، وبتنا ليلتنا نتابع الأخبار بشغف ، وسط الظلام الذي خيم على القاهرة ، ولكننا في اليوم التالي

مباشرة ، وحينما أخذ التليفزيون ينقل صور جنودنا البواسل وهم يرفعون العلم المصري على أول بقعة تم تحريرها في سيناء على الضفة الشرقية من القناة ، وجنودنا الأبطال وهم يعبرون القناة في قوارب مطاطية ، يحملون معهم الأعلام المصرية ، أخذنا نطمئن لصدق الخبر ، وأنه جاد ، وليس بالهزل ، وقد أقام سلاح المهندسين المصريين جسورًا عائمة فوق القناة ، عبرت عليه المدرعات إلى الضفة الشرقية ، وأخذت تتوالى أخبار العبور العظيم ، وانتصارات قواتنا المسلحة ، وتحريرها لبقع سيناء ، ومدنها ، بقعة بقعة ، ومدينة تلو الأخرى ، وأخذت المعارك تزداد شراسة ، وضراوة مع الأيام ، ويزداد عزم الرجال وبسالتهم وتضحياتهم التي يضيق بها المقام عن الوصف والتفصيل ، ويقف عاجزًا ويحار أمام هذه البطولات والتضحيات التي وقف العالم كله أمامها إجلالًا واحترامًا ورفع المصري رأسه بإصرار الرجال الذين استمروا في تحرير أرض الوطن المغتصبة ، ولكن كيف خابت الحسابات العلمية التي وضعها الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، وهي التي قالت أن قناة السويس أخطر عائق مائي ، والذي جُهز لإشعاله نيرانًا إذا حاول المصريون عبوره ، وأن خط بارليف القوي الحصين لا يمكن تدميره إلا بقنبلة ذرية ، ومن أين ؟ وكيف أتى المصريون بهذه القنبلة ؟ وكيف خططت ودبرت القوات المسلحة المصرية بعد أن طرد السادات الخبراء السوفيت ، وقد بات واضحًا وجليًا للعالم أجمع أن خطة العبور واقتحام خط بارليف ، هي خطة مصرية مائة بالمائة ، وأن أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يُهزم قد سقطت على أيدي المصريين .

فقد بارك الله في أحد أبناء مصر من ضباط القوات المسلحة المهندسين وهو اللواء باقي زكي يوسف بسلاح المركبات في اختراع قنبلة ذرية بسيطة للغاية لتحطيم خط بارليف الحصين المنيع ، ولم تكن هذه القنبلة الذرية سوى مضخات للمياه شديد الدفع ركبت على قوارب مطاطية ، عبر بها الرجال القناة ، وسلطوها على الساتر الترابي لخط بارليف الحصين المنيع ، وأخذت تنزح من مياه القناة وتدفع بشدة إلى الساتر الترابي فتهيله وتسقطه ، ثم تكمل المدفعية المصرية الرابضة على الضفة الغربية من القناة المهمة ، فتنهال قذائفها على الثغرات التي انهار منها الساتر الترابي ، فتفتح ممرات للمعدات والجنود الذين زلزلوا الثرى من تحت أقدام العدو بصيحة التوحيد : الله أكبر ، التي صارت صيحة جند مصر في القتال . بعد أن تغيرت صيحة القتال التي كانت «هع» تلك الصيحة السوفيتية التي حملها الخبراء السوفيت معهم ورحلوا ، وبارك الله شعب مصر كما جاء في الإنجيل : مبارك شعب مصر ، وها هم جند مصر يثبتون للعالم كله أنهم خير أجناد الأرض ، كما أخبر الرسول ﷺ : «**إذا فتحت عليكم**

مصر فاتخذوا من أهلها جندًا فإنهم خير أجناد الأرض» ، فلم تكن قذائف العدو ورصاصاته تفرق بين صدر مصري وأخيه ، إنما هي موجهة ضد أي مصري ، وها هي أصوات المقاتلين المصريين قد علت وامتزجت في صيحة القتال الواحدة : الله أكبر ، وامتزجت دماؤهم في تحرير أرضهم ، وهبطت ملائكة الحق ، لتحمل فوق أجنحتها أرواح الشهداء فوق أرض سيناء ، وتطير إلى أعلى عليين ، حيث مستقر الشهداء .

أما كيف عبر الرجال القناة ، ولم يستطع العدو الصهيوني أن يحولها إلى نيران محرقة عن طريق النابلم ، فقد سبق العبور العظيم ليلته التي نزلت فيه قوات خاصة من جنود مصر خلف خطوط العدو ، عن طريق الإبرار الجوي ، والعبور في قوارب مطاطية ، وقام الفدائيون من القوات المسلحة المصرية بقطع خراطيم النابلم من المنبع في الجهة الشرقية من القناة ، والتي كانت تحت سيطرت العدو ، وفشلت خطة العدو في المانع المائي النيراني ، وخط بارليف الحصين ، ولم تتجاوز الخسائر في الرجال في الجانب المصري في العبور عن الثلاثة في المائة ، وليس ما بين السبعين والثمانين بالمائة كما خرجت الحسابات العلمية للدول العظمى ، سواء كان الأمريكان أو السوفيت .

وقد تمت خطة العبور العظيم بقيادة المشير أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة المصرية ، والفريق سعد الدين الشاذلي ، رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية ، وطاقم هيئة الأركان من كبار الضباط الأكفاء ، ولم يكن فوقهم أو بينهم خبراء أجانب ، وكانت خطة العبور وقراره الذي اتسم بالسرية الشديدة مصريًا صافيًا ، ولم يكن أحد يعلم ساعة الصفر إلا الرجل صاحب القرار ، وهو الرئيس السادات .

وإننا إذ تشير إلى هذا اليوم العظيم الذي صنعه الرجال المقاتلون المصريون الأبرار الشجعان ، نعترف بعجزنا عن أن نوفيه حقه ، وحق الرجال من الوصف والمقال ، وسوف تبقى ملحمة العبور العظيم في السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، ملحمة العسكرية والبطولة على مر الزمن ، يتناقلها ويفتخر بها جيل بعد جيل من أبناء مصر ، وتدرسها الأكاديميات العسكرية في العالم كله ، ويبقى انتصار أكتوبر ، هو أعظم انتصارات مصر في العصر الحديث ، ولو كره الحاقدون والحاسدون والمرجفون في المدينة ، والذين في قلوبهم مرض ، ويعيش الشهداء والمصابين والرجال الذين اشتركوا في ملحمة النصر العظيم ، وسطروا بدمائهم الذكية وأرواحهم الطاهرة أعظم ملحمة في تاريخ العسكرية المصرية ، في قلوبنا على مر الزمن ويا ليتنا كنا معهم فنفوز فوزًا عظيمًا .

ولا أخفي أنني حينما رأيت خير أجناد الأرض يرفعون علم مصر فوق الضفة الشرقية للقناة ، اهتز قلبي ، وأحببت علم التحرير والعبور العظيم .

ولم تكن حرب العبور حربًا بين مصر وإسرائيل وحسب ، وإنما كانت حرب الأمة العربية كلها ضد إسرائيل وكل من يساندها . فبعد دقائق معدودة نشب القتال على الجبهة السورية ، وظهر واضحًا أنه بين القوات المصرية والسورية تنسيق واتصال عسكري مستمر . وبعد سويعات قليلة ، أصدر خادم الحرمين جلالة الملك فيصل رحمه الله قراره بوقف ضخ البترول ، والذي ارتفع سعره العالمي من ١٦ دولار للبرميل إلى ٢٤ دولار في الحال ثم أخذ في التزايد . وفي اليوم التالي هب الشعب العربي في الكويت ، واتجه إلى آبار البترول وانضمت إليه الشرطة الكويتية ، وأغلق رئيس الشرطة مضخات البترول . وفرض الشعب العربي إرادته . وجاء السيد هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا يهرول إلى جلالة الملك فيصل الذي رفض أن يستقبله في القصر الملكي ، وأمر بنصب خيمة بالقرب من آبار البترول ووقف على بابها جمل استقبله فيها ، وقال له كلمته المشهورة : إنني رجل عجوز ، وليس لي أمل في الحياة سوى أن أصلّ في المسجد الأقصى ، وإني رجل عربي أستطيع أن أعيش في خيمة على لحم الإبل ، وإذا كان على البترول الذي تلهثون وراءه فباستطاعتي أن أشعل فيه النار . وقد ذكرنا من قبل وجود وحدات من الجيوش العربية على الجبهة المصرية .

وتجلت الوحدة العربية في أعظم معانيها كوحدة عسكرية واقتصادية وسياسية ، وأن العالم العربي أمة واحدة ، ولا تفصل العرب حواجز .

وما كان الأمريكان يسمحوا بأن يهزم العرب إسرائيل ، وعلى الفور أقاموا جسرًا جويًا بين واشنطن وتل أبيب ، لتعويض إسرائيل كل ما تفقد في المعارك ، وبكل ما تحتاج . كما قاموا بتصوير مسرح العمليات بسيناء عن طريق القمر الصناعي ، واكتشفوا ثغرة بين الجيش الثاني والجيش الثالث ، وحدثت الثغرة ، التي أراد الطابور الخامس وبقايا مراكز القوى وأذيالهم أن يشوهوا العبور العظيم ، ويظهروه بالهزيمة كراهية للسادات . ونسي الأغبياء أن العبور لم يكن عبور جيش مصر وحده ، بل عبر الجيش المصري بالأمة العربية كلها أعظم عبور .

# الفصل الخامس

## إضافة : بعد الستين

بعد أن انتهيت من إعادة كتابة كتابي هذا طلبة ومظاهرات – اعترافات طالب – والذي قد منعت الرقابة نشره عام ١٩٧٥ ، وكنت أخاطب ناسًا قد عاشوا ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وما بعده ، أما الآن ، وقد ذهبت تلك الأجيال إلا القليل ، وجاءت أجيال لم تشهد تلك الأحداث ، ولم تكن قد ولدت بعد ، وسوف تأتي أجيال جديدة ، تبحث في تاريخ وطنها ، فلا تقف حائرة عند أحداث لم تسجل وقائعها وأسبابها وحقائقها ، وقد حافظت على فحوى الكتاب الأول ، وأحداثه ، وما احتوى من وقائع .

إلا أنني قد وجدت أن وراء تلك الوقائع التي احتواها الكتاب أسرار سياسية لم يكشف عنها في حينها ، كما هو الحال في الأحداث والوقائع السياسية الكبيرة ، ما لم يكشف عنه إلا بعد وقوع الحدث بعشرات السنين ، فرأيت أن أضيف هذا الفصل الذي أكتبه وقد تعديت الستين بقليل ، أضيف ما تكشف عنه من حقائق عن تلك الوقائع ، ولم يعلن عنها إلا بعد عشرين سنة من وقوعها أو يزيد ، وكلما كشف عن حقائق وملابسات الحدث ، كلما ازداد وضوحًا ، وبات تقييمه أقرب إلى الصواب ، كما رأيت أيضًا أن أضيف رؤيتي إلى ثورة ٢٥ يناير ، وبعض القضايا الرئيسية التي نعيشها مع الثورة ، تلك الثورة العظيمة التي سطعت بها شمس الحرية في ليل القاهرة .

لقد كان النصر العظيم الذي حققه خير أجناد الأرض في أكتوبر ١٩٧٣ هو توفيق من الله لجندها وإعجاز بكل المقاييس فقد تم بشجاعة المقاتل المصري وبسالته وعلى مبدأ أن السلاح بالرجال وليس الرجال بالسلاح ونكتفي بذكر هذه الكلمة للرئيس السادات ( ) .

وكان الموقف على غير ما يتصوره العالم كله .. فقد كان اعتقاد الجميع في العالم أن الاتحاد السوفيتي يقف إلى جانبنا وإنه قد أرسل الكوبري الجوي لينجدنا .. ولكن الموقف كان غير ذلك في الواقع .. فأمريكا وإسرائيل في مواجهتي والاتحاد السوفيتي في يده الخنجر ويقبع وراء ظهري ليطعنني في أية لحظة عندما أفقد ٨٥٪ أو ٩٠٪ من سلاحي كما حدث في

سنة ١٩٦٧ أوقد أصبح من الواضح أن أمريكا تستطيع أن تقضي على دفاعي الجوي بأكمله باستخدام القنابل التليفزيونية الجديدة وبهذا تعود سماء مصر مفتوحة للإسرائيليين كما حدث عام ١٩٦٧ .

ثم يستطرد الرئيس السادات فيذكر موقفًا للرئيس الجزائري هواري بو مدين بزيارة سرية لم يخطر بها أحدًا ونحن في أوج انتصارنا ليشتري لنا السلاح .. وفي أثناء المناقشة احتد الرئيس السوفيتي بريجينيف وقال له : ان أنور السادات ضيع مصر أوسوف يضيع العرب والعرب والقاهرة ودمشق والنظم التقدمية وأنه أحمق .. فرد عليه بو مدين وقال : أنا زبون جاي أشترى منك السلاح .. اتفضل آدي مائة مليون دولار لمصر ومثلها لسوريا .. أرسل هم الأسلحة التي يطلبونها ..ولما عاد بو مدين إلى الجزائر جمع مجلس الثورة وحكى لهم م حدث وقال : «إذا كان الأمريكان وإسرائيل عايزين يهزموا أنور السادات قيراط فالاتحاد السوفيتي عايز يهزموا ٢٤ قيراط» .

وهكذا قد تجلت الوحدة العربية في أجل صورها وأرقى معانيها أفقد تحرك الرئيس الجزائري بو مدين رحمه الله بدافع من ضميره وواجبه نحو أمته العربية وقوميته أودون طلب من أحد . فالقومية العربية حقيقة واقعة أوالوجدان العربي من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي هو وجدان واحد أقد تشكل واستقر عبر القرون أولن تستطيع قوى في العالم أن تقضي عليه أوقد تكشفت في هذا الموقف حقيقة الصديق السوفيتي نحو مصر سوريا والنظم التقدمية العربية أبينما الصديق الأمريكي لإسرائيل كان يعتبرها إحدى الولايات الأمريكية أوبالتالي فهو مسئول عن حمايتها وهو يمدها بأحدث الأسلحة أويزودها من خلال الجسر الجوي الذي أقامه عن كل ما تفقده خلال المعارك ويزيد أولم يكن يطلب الثمن مقدمًا أو مؤخرًا .

واستمرار الحرب يعني تدمير معدات ، واستهلاك ذخيرة ، وبعد نشوب الحرب أقامت أمريكا جسرًا جويًّا بينها وبين إسرائيل ، كانت تقوم باستمرار بتعويضها عن خسائرها ، وقد أسرت قواتنا المسلحة عددًا من دبابات العدو الأمريكية الصنع ، حديثة الاستعمال والحركة ، وقد تبين أنها من الإمدادات الحديثة التي نقلها الجسر الجوي الأمريكي ، وقد نزلت في مطار العريش مموّنة بالوقود والذخيرة ، ومعدة لأن يركبها الجنود مباشرة ، أما نحن فلم يكن لنا مصدر لتعويض ما دمر من معداتنا أثناء المعارك ، وما استنزف من ذخيرة ، وهذا هو

السبب الرئيسي لقبول السادات وقف إطلاق النار ، وعدم الاستمرار في الحرب ، برغم من حدوث الثغرة التي كان يمكن القضاء عليها بخطة الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس هيئة الأركان ، والتي استغلها الحاقدون وأرادوا أن يشوهوا نصر أكتوبر العظيم ، ويصوروه على أنه هزيمة عسكرية لقواتنا المسلحة الذين أعطوا الفرصة للتخطيط والهجوم والقتال ، فسطروا أعظم ملحمة عسكرية في القرن العشرين ، وأسقطوا أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يهزم ، وحطموا خط بارليف الذي قيل : أنه أقوى خط دفاعي في تاريخ البشرية ، وعبروا القناة ، وعبروا بمصر الهزيمة ، ورفعنا رؤوسنا ، فاستمرار الحرب يعني تعويض مستمر في فاقد المعدات والسلاح والذخيرة ، وهذا لم يكن متوفرًا لنا ، والشجاع هو من يقدر قوته ، ولا يغالي ويعرف قوة خصمه ، بلا بخس ، ويعرف متى يهجم ، ومتى يتوقف ، وقد وقف السادات بعد عشرة أيام من الحرب ، حقق خلالها الرجال انتصارات نفتخر بها على مر الزمن ، أي في يوم السادس عشر من أكتوبر أمام مجلس الشعب ، بشجاعة وهدوء ، وأعلن ببساطة أنه لا يستطيع أن يحارب أمريكا ، وأراد أن يخرج منتصرًا قبل أن تنقلب الموازين فهو رجل شجاع ، ولم يكن متهورًا .

وإني أعود بالذاكرة إلى ما يقرب من أربعين سنة ، ولا أنظر في مرجع أو كتاب ، ولم أدون في ذلك مذكرات ، وحسبي أن المعلومة المهمة التي ذات قيمة تحفر في الذاكرة ، وتعيش على مر الزمن ، أما ما ليس له قيمة ، فلا حاجة لأن يبقى .

ومن الأسرار التي أعلن عنها الرئيس السادات رحمه الله عن حرب العبور العظيم ، أمام مجلس الشعب بعد عدة سنوات ، ولم نكن نعرفها من قبل : أنه لم يكن لدينا بترول يكفي لاستهلاك الشعب والقوات المسلحة أكثر من خمسة عشر يومًا ، فاتصل بشاه إيران وأخبره ، فقام على الفور بالتصال بسفن إيرانية عملاقة في البحر وأمر بتحويل حمولة ستمائة ألف طن من البترول إلى الإسكندرية ، وما كان لمصر أن تنكر جميل الرجل وموقفه ، بصرف النظر عن الشأن الإيراني الداخلي ، وقد كشف الرئيس عن هذا أمام مجلس الشعب ليعلن على العالم أجمع سبب قبوله لاستضافة الشاة الذي أغلقت أمامه كل المطارات .

وهذا إن دلَّ على شيء ، فإنما يدل على أن دولة إيران كانت دومًا سندًا للعرب ، ولم تكن عدوًا لهم ، وإنما عدونا الوحيد هو إسرائيل ومن وراءها ، أما ما يقال : أن الجيوش العربية

حينما دخلت الحرب عام ١٩٤٨ ضد عصابات الصهاينة ، ووجدت أن إيرانيين كانوا يحاربون بين صفوفه ، فأولئك من طائفة البهائيين ، وهي طائفة قد ظهرت في إيران ، وهي طائفة مخرفة قد خرجت عن الإسلام ، وهي لا تنتمي إلى فرقة السنة أو الشيعة ، وقد طردهم الشاة رضا بهلوي من إيران في نهاية القرن التاسع عشر ، فذهبوا إلى حيفا بفلسطين ، التي صارت بعد الاحتلال الصهيوني ، تل أبيب ، وأقاموا بها معبدًا للبهاء ، وبعد أن تبرأت منهم دولة إيران ، فأصبحوا لا ينتسبون إليها ، فقد انتموا للصهيونية العالمية ، وذابوا في الكيان الصهيوني ، وتبرأ منهم المسلمون .

## طريق ناصر ، السادات

ولم يخرج السادات عن طريق عبد الناصر ، ولم يحد عنه ، رحمهما الله ، فقد كانوا رجالًا ، قل أن يوجد مثلهما ، جمعتهم أهداف سامية واحدة ، وعاش كل منهما من أجل تحقيقها ، ويحضرني واقعة ذكرها الرئيس السادات في إحدى خطبه ، وهي واقعة مشابهة لواقعة أو موقف مشابه ، قام به عبد الناصر ، ودلائلهم واحدة ، وهي كما ذكرنا من قبل ، عن عبد الناصر والمخابرات الأمريكية ، والتي ضحك فيها عليهم ، وحصل منهم على مليون دولار ، فبنى بهم برج القاهرة ، فقد ذكر الرئيس السادات ذات مرة بعد العبور العظيم ، أنه بعد وقف القتال ، ظهر الخلل في الاقتصاد المصري ، وأخذ يتفاقم العجز في الموازنة العامة للدولة ، وجاء له محافظ البنك المركزي ، وشكا إليه ، وأخبره بأنه في مسيس الحاجة إلى مليون دولار ، لسد العجز في الميزانية ، ولسند الاقتصاد المصري الذي كاد أن ينهار ، فتذكر الرئيس أن أحد الأمراء العرب ، قد أهداه بمبلغ مليون دولار على سبيل التهنئة والتقدير على انتصاره في حرب العبور ، فقال لمحافظ البنك المركزي : لديك مبلغ مليون دولار أضعهم باسمي ، فخذهم والهدايا بين الحكام أمر متعارف عليه ، ولا فرق بين هدية مادية أو عينية ، وهو أمر لا غبار عليه إذا كان من دولة صديقة ، فما البال والدولة شقيقة ، ولم تكن هدية من عدو أو صديق العدو .

وهكذا قد جمع الرجلين طهارة اليد ، والإخلاص لمصر ، ولم يكونا وحدهما في ذلك ، بل هي صفات قد جمعت كل أعضاء مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وإذا أردنا أن نزن الرجال ، فلابد أن نزنهم بموازين الرجولة ، التي تعارفت عليها حضارتنا العربية والإسلامية عبر تاريخنا الطويل ، وهذه الموازين تقوم وترجح بمدى الاحترام لأخلاقيات المجتمع وقيمه ، ومدى الاحترام لموروثه الحضاري ، والمحافظة عليه ، وطهارة اليد ، والإخلاص ، وكلا الرجلين رحمهما الله ، قد أوفى هذه الموازين .

ولا أدل على أن طريق السادات ، كان هو نفس طريق عبد الناصر ، من الشهادة التي أعلنها المهندس حسب الله الكفراوي : أن السادات قد طلب منه أن يعد أراضي بمساحات شاسعة للإسكان ، وطرحها للبيع على ألا يزيد سعر المتر عن اثنا عشر جنيهًا ، فرد عليه الوزير قائلًا : إن المتر المسطح من أراضي الإسكان يتكلف على الدولة أربعة عشر جنيهًا

لإعداد المرافق ، فرد السادات قائلًا : وما المانع تتحمل الدولة الجنيهان ، ده حق المواطن على الدولة ، أن توفر له قطعة من الأرض يبني عليها بيت حتى يشعر بالانتماء لبلده .

لقد كان الرجلان طريقهما واحد ، وتعاهدا عليه واتفق منذ شباب كفاحهما سويًا ، ومنذ التقيا في طريق النضال الوطني ، في طريق نصرة الفقراء ، والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، والعدالة الاجتماعية .

وقد جاء كل منهما إلى السلطة في موعده مع القدر ، فقد جاء الزعيم جمال عبد الناصر في وقت كانت مصر والأمة العربية في حاجة إلى زعيم يوقظ فيها الروح الوطنية والقومية ويقودها إلى التغيير الثوري ، ويتعهد المد الثوري إلى أبعد مدى ممكنًا ، فتعدى المد الثوري الناصري المنطقة العربية ، وانتشر في إفريقيا كلها ، وأعاد عبد الناصر إلى مصر دورها الريادي ، وأعاد لمصر شخصيتها ، ومكانتها بين الأمم ، وخاض صراعات وحروبًا وضغوطًا ، وخاضتها مصر معه ، وعاشت قدرها ، وقدر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الكبرى ، والتي صارت أم الثورات ، وحركات التحرير في الوطن العربي كله وفي إفريقيا ، وأخذت الثورة تنتشر حتى وصل مداها إلى أمريكا اللاتينية ، وعاش عبد الناصر رمزًا من رموز الحرية في العالم أجمع .

وكان أمرًا طبيعيًا أن يقع في أخطاء ، نتيجة الصراعات المستمرة والمعارك التي خاضها ، فلم يكن عبد الناصر سوى بشرًا يخطئ ويصيب ، وكذلك كان السادات أيضًا وكان طبيعيًا أن تترهل الثورة ، وأن يتسلق عليها الوصوليون والنفعيون ، الذين يهدفون إلى تحقيق منافع ومصالح ذاتية من خلال الثورة ، حتى وإن كان ذلك على حسابها ، ولابد من استمرار مسيرة الثورة من تصحيح مستمر .

وربما رفض السياسي أمرًا ما ، ثم يقبله فيما بعد ، وليس في هذا معنى للتراجع ، وعلى سبيل المثال ، فقد رفض الرئيس الراحل مبدأ التفاوض حول الأرض التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ ، ثم قبل مبادرة روجرز ، وزير الخارجية الأمريكي ، وهي بداية للمفاوضات بعد عامين من رفضه لها ، فلم يكن الظرف مناسب لقبولها في الوقت الذي كانت فيه قواتنا المسلحة تستعيد بناء قوتها ، ولكنه بعد أن استعادت قوتها ، وفي ظل حرب الاستنزاف ، التي كانت تعلن في كل يوم عن قوتها ، وعزمها وإصرارها على تحرير الأرض المحتلة ، قبل عبد الناصر مبدأ التفاوض ، ولم يهمل الاستعداد للمعركة ، ثم جاء السادات من بعده ، واستمر في طريق السياسة والمفاوضات والمعركة ، فقد خرجنا من هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، بدروس مفاداها ، أن الصراع بيننا والغرب بصفة عامة ، والعدو الصهيوني ومن وراءه هو صراع

حضاري ، بكل ما تحمله الكلمة من معان ، أي صراع سياسي وعسكري واقتصادي ودولي ، وعلمي وثقافي ، ولن يحسم هذا الصراع معركة عسكرية أو عدة معارك ، وجاء السادات بعد عبد الناصر ليكمل المشوار في نفس الطريق الذي صار فيه عبد الناصر ، طريق المفاوضات والمعركة معًا ، حتى كتب الله لمصر النصر على يديه ، وتم العبور العظيم .

وبعد وقف القتال ، وبدأت مباحثات فك الاشتباك التي كانت تعقد في الكيلو ١٠١ طريق القاهرة السويس ، أخذ الرئيس السادات على الفور في إعادة بناء الدولة ، فقد كانت البنية التحتية خراب ، وساءت مرافق الدولة والخدمات في ظل تدني اقتصادي ، وهذا أمر طبيعي ، بعد الحروب ، وأخذ يعيد النظر في هيكلة الدولة ، والأجور الحكومية والمرتبات ، وأخذ ينصف كثيرًا من طوائف المظلومين التي لم يتم إنصافها من قبل وكانت أكثر طائفة في المجتمع قد عانت من الظلم مدة طويلة ، هي طائفة الجندي المجند بالخدمة العسكرية ، الذي كان يتقاضى ثلاثة جنيهات مكافأة شهرية أثناء تأدية الخدمة العسكرية ، التي تمتد إلى أربعة سنوات للمجند العادي ، والذي قد يكون متزوجًا ، وربما أيضًا يكون في رعايته طفل قد رزق به ، وترك عمله الذي كان ينفق منه على أسرته ، ومع كل هذه الظروف القاسية التي يعيش فيها الجندي المصري ، فتراه يؤدي فريضة الخدمة العسكرية بنفس راضية ، ولا يتراجع عن فداء أرض الأجداد الغالية بدمه وروحه ، كلما لزم الأمر فحقًا ، إن جند مصر خير أجناد الأرض ، وبرغم من أنه كانت تصرف إعانة للمتزوج إلا أنه أيضًا كانت إعانة ضعيفة ، فقرر الرئيس السادات رفع هذه المكافأة إلى ستة جنيهات ، ولم تكن ميزانية الدولة وقتها بعد الحرب مباشرة تتحمل أكثر من ذلك ، ثم أخذت الزيادة تتوالى .

وقد استحدث السادات أمرًا في الاشتراكية العربية قد أخذت به الدول الاشتراكية في العالم كله ، بعد خمسة عشرة سنة من إعلانه في مصر وتطبيقه ، وبعد أن استوعبته وهو أمر الانفتاح ، وهو السماح للاستثمارات الأجنبية في مصر ، من أجل التنمية والقضاء على البطالة ، وإصلاح الاقتصاد المصري المنهار ، وبيع الشركات الصغيرة ، ولم يخرج السادات في هذا عن الخط الاشتراكي العربي ، والميثاق الوطني ، الذي يحدد معالم الطريق الاشتراكي العربي ، والذي جاء به ، وكما ذكرنا من قبل دون تعليق : إن على الدولة أن تمتلك الصناعات الاستراتيجية الكبيرة ، مثل صناعة السكر ، والحديد والأسمنت ، والأدوية ، ووسائط الاتصالات ، مثل السكة الحديدية ، والنقل العام ، والبرق ، والتليغراف ، والكهرباء ، والمياه ، والصناعات المتوسطة ، وأذكر أنه قال في خطابه الذي عرض فيه سياسة الانفتاح : أنه ليس دور الدولة أن

تبيع بسطرمة وجبنة رومي ، «يقصد المجمعات الاستهلاكية» ، وبالطبع لم يكن السادات يقصد بسياسية الانفتاح نهب ثروات مصر وتهريبها للخارج ، وبيع أصولها ، وشركاتها ومصانعها الكبرى ، مثل شركات الحديد والصلب بأسعار بخس من أجل الحصول على عمولات كبيرة ، وبيع أراضي الدولة بأبخس الأسعار ، وتوزيعها على المحاسيب ، لم يدعو السادات إلى خيانة مصر وبيعها ، ولم يقصد بالانفتاح استيراد السموم ، وقتل شعب مصر ، والقضاء على زراعته .

وأما عن قضية سيناء وتأمينها ، فقد قال الرئيس السادات في إحدى خطبه بعد الحرب بعدة سنوات : إن تأمين سيناء ليس بذي شرط أن يكون بالقوات المسلحة ، ولكن تأمينها الحقيقي بأن تعج بملايين المصريين ، وبالفعل فقد وضعت المشروعات الطموحة لتعمير سيناء ، وانتهى من دراسة مشروعات تعمير سيناء في عهد السادات ووضعت الخطط للتنفيذ ، وقد بدء في تنفيذ البعض منها إلا أنه برحيل الرجل الثاني في ثورة ٢٣ يوليو ، قد عادت الثورة إلى الترهل من جديد والانتكاسة ، وتعرضت مصر للسطو والنهب والتخريب والفساد ، ما لم تتعرض له في تاريخها ، وحتى في العصور التي كان يحكمها أعداؤها ، والغزاة ، وتعرض المصري للذل والمهانة فوق أرضه .

وقد تعدى أمر ثورة ٢٣ يوليو التصحيح ، وكان لابد من ثورة جديدة تعيد إلى الثورة شبابها .

وخلاصة القول في ناصر والسادات : أنه من الظلم للرجلين ولأنفسنا ولمصر أن نتناول سيرتهما بالطريقة الكروية ، فالأهلاوي لابد أن يكره الزمالك ويسب فيه ، والزملكاوي لا يكون زملكاويًا إلا إذا سب في الأهلي ، فما كان الرجلان إلا وجهين لعملة واحدة ، وهي الوطنية المصرية ، وهما خلاصتها ، وهما من خير ما أنجبت مصر خلال القرن العشرين ، فقد عاش الرجلان ، منذ الشباب ، ومن قبله بهموم وطنهما ، وعاش كل منهما من أجل مصر ، ومات في سبيلها .

وما كان أحدهما يقبل بسب أخيه ، ورفيق كفاحه ، رحمهما الله معًا ، كانوا رجالًا ، ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال .

## وأشرقت شمس الحرية

بعد استشهاد الرئيس السادات رحمه الله في يوم الاحتفال بنصر أكتوبر العظيم ، في يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، بدأت الانتكاسة الكبرى لثورة ٢٣ يوليو ، وعشنا ثلاثة عقود متوالية من الزمن ، نعاني من القهر والبطش والإرهاب والاستبداد والاستعباد ، وكبت للحريات وتكميم للأفواه ، ما أظن أن أجيال الآباء والأجداد ، قد عاشوه في عصر الاستعمار والاحتلال .

وباختصار ، فقد تحول المصريون إلى عبيد فوق أرضهم ، وفي بلدهم ، تتحكم فيهم وفي أرزاقهم وأقدار مصر ومصيرها حفنة من الحكام الخونة ، أو الأفاقين الذين لا خلاق لهم ، ولا ينتمون إلى وطن أو دين ، بل ولا ينتمون إلى الإنسان ، ولو تم وضع كل واحد منهم في قفص في حديقة الحيوان لما ظلمناهم .

وأختصر ، ولا أنساب في كلام يصد النفس ، ويثير المرارة والألم ، فقد فاض بالشعب المصري ، فخرجت الطليعة الثورية للشعب المصري ممثلة في شبابه في صباح ذلك اليوم العزيز المجيد ، في تاريخ النضال المتواصل للشعب المصري ، في يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ ، تسير في مجموعات هائلة ، تجوب أحياء القاهرة المختلفة ، وفي الإسكندرية ، والسويس تنادي : يا أهالينا انضموا لينا ، سلمية ... سلمية ، وتجمع الشباب الحر في ميدان التحرير في حركة نقية وواعية بذاتها ، وسرعان ما شعرت الأمة أن حركة شبابها قد خرجت تعبر عن مطالبها وآمالها ، فخرج الشعب يلتف حول شبابه في ميدان التحرير ، وفي كل ميادين مصر التي تحولت إلى ميدان تحرير وبالتفاف الشعب حول شبابه ، اجتمعت للحركة الشبابية الشرعية الثورية ، وأصبحت ثورة شعب في يومها ، وأصر الشعب على فرض إرادته ، ونيل حريته ، مهما كان الثمن ، وحققت ثورة الشعب المصري في ٢٥ يناير نجاحًا وسبقًا ثوريًا لم تعرفه الثورات من قبل ، وتلاحق المد الثوري تلاحقًا سريعًا وقويًا ، حتى شمل مدن الجمهورية بأثرها في اليوم التالي مباشرة ، وأخذت الثورة تحقق في كل يوم نجاحًا يضاف إلى رصيد نجاحها المتوالي عبر الأيام ، حتى توجت نجاحها في يوم ١١ فبراير ٢٠١١ ، بسقوط النظام الفاسد ، وإعلان رأس الطغيان بالتنحي ، وانتهاء العهد البائد وانتهت انتكاسة ثورة ٢٣ يوليو الكبرى التي استمرت حوالي ثلاثين عام ، ليبدأ عهد ثوري جديد ، وتستمر ثورة ٢٣ يوليو .

ومنذ أن تجمع الشباب في ميدان التحرير والتف الشعب حوله وأشرقت شمس الحرية في ليل القاهرة يوم ٢٥ يناير ٢٠١١ ، والتي لم تغب عن ميدان التحرير الذي تواصل نهاره بليله ، ولم يغادره الشعب ، الذي خرج ليفرض إرادته فوق أرضه ، وخرج يزأر في عصبة الأفاقين ، الذين عاشوا في دور حكام مصر ، طوال ثلاثة عقود ، وأمام الزئير المتواصل للشعب المصري ، فقد الجبناء صوابهم ، وأطلقوا النيران على الشعب الأعزل ، الذي خرج ينادي بحريته ، وحقوقه المسلوبة ، وينادي بسقوط أفجر حكام في تاريخ البشرية ورحيلهم ، وسقوط أسوأ حكم ، حكم الخونة والعملاء والبلطجية ، وارتوت الأرض الطيبة بدماء أبنائها الأحرار ، ليس في ميدان التحرير وحسب ، وإنما في كل ميدان من ميادين مصر ، الذي تحول إلى ميدان للتحرير ، وصعدت الأرواح الطاهرة إلى بارئها ، وهبطت ملائكة الحرية ، وحملت فوق أجنحتها أرواح الشهداء وطارت إلى السماء ، إلى أعلى عليين ، حيث مستقر الشهداء ، وأبى الشعب الحر أن يعود إلى دياره ، إلا في صحبة حريته ، وسقوط النظام الفاسد ، وظل في صموده وإصراره ، هاجرًا البيوت معتصمًا في ميادين الحرية ، لمدة سبعة عشر يومًا حتى سقط النظام نهائيًا يوم الحادي عشر من فبراير ٢٠١١ .

وقد حاول نظام الحكم البائد أن يحتمي بالجيش ، بعد أن أعيته الحيلة ، ولم تستطع الداخلية بجيوشها من قوات الأمن المركزي التي أنشئت في عام ١٩٦٨ ، من أجل قمع الجماهير وإرهابهم ، ومن أجل كبت الحريات ، ونسي الأغبياء أن التلاحم بين الجيش المصري والشعب ، هو تلاحم لا انفصام له ، فليس في مصر ما يسمى بذات الشعب ، وذات الجيش ، إنما هي ذات واحدة ، هي ذات مصر ، وها هو الزمن قد استدار ليثبت من جديد للعالم أجمع أن الجيش والشعب المصري ذات واحدة ، فكما كانت الطليعة الثورية لمصر متمثلة في جيشه الذي خرجت في فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، لتعلن عن مطالب الشعب المصري ، والذي سرعان ما التف حولها ليعلن عن ثورته ، التي كانت طليعتها قواته المسلحة ، ويفرض إرادته فوق أرضه ، فها هو الجيش يلتف حول الشعب الذي هب ينادي بحريته ، ويطالب بحقوقه التي سلبها الأفاقون ، وقد التف جيش مصر حول شعبها يحميه ، ويأتمر بأمر الثورة التي هي ثورة مصر كلها ، ويحمي البلاد أن تقع فريسة الفوضى التي يريدها الأمريكان ، كما أعلنت من قبل وزيرة خارجيتهم السيد كونداليزا رايس ، التي صرحت منذ عدة سنوات ، أنهم سوف يتبعون سياسة الفوضى الخلاقة في الشرق الأوسط ، وكما أراد ذيول نظام الحكم المنهار ، وحمى الله مصر بجيشها من الوقوع في الفوضى التي يريدها أعداء مصر ، في داخل البلاد وخارجها .

## مبادئ الثورة :

مهما كان الاختلاف حول ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فلا يستطيع أحد أن يمحوها من التاريخ ، ولا يمكن لأحد أن يشكك في وطنية رجالها ونقائهم الثوري ، وخاصة أعضاء مجلس قيادة الثورة وقد قامت لتعبر عن مطالب الجماهير ، ولكي تحرر الإرادة المصرية ، وقد استطاعت مصر بها ، ومن خلالها أن تفرض إرادتها ، وهي كأي ثورة في التاريخ ، كان لها إيجابياتها وسلبياتها ، ولها نجاحاتها وإخفاقاتها ، وهي مثلها مثل سائر الثورات في حاجة إلى تصحيح المسار ، وإلى تجديد روح ودم الثورة ، وإعادة شبابها ، كلما بدا عليها الترهل ، أو تنازعتها الصراعات ، وحتى إن بدا عليها الاستقرار فلا يجب إهمالها ، فلابد من تعهدها بالتجديد والتطوير ، بما يلائم العصر ، ويوفي بمتطلباته ، وبما يوافق طبيعة كل مرحلة من مراحل ثوريتها ، فلكي تستمر الثورة ، لابد من تصحيح المسار ، وجبر كل نقص يظهر في أي مرحلة من مراحلها ، والقضاء على أي فساد يطل برأسه .

وقد أعلنت ثورة ٢٥ يناير عن مبادئها من أول يوم وهي : الحرية ، العدالة ، المساواة ، لتعلن بذلك عن استمرار ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وهي نفس المبادئ التي رفعتها ثورة يوليو ، في عام ١٩٥٤ ، بعد أن قضت على الإقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، وآل الحكم لعبد الناصر ، وبعد أن انتهت الفترة الانتقالية التي نصب فيها مجلس قيادة الثورة اللواء محمد نجيب رحمه الله ، رئيسًا للجمهورية ، وهو أول رئيس للجمهورية في مصر ، فرفع شعار الاتحاد والنظام والعمل .

وكانت ثورة ٢٣ يوليو ، قد قامت من أجل تحقيق أهداف محددة ، ولم تعلن عن مبادئها في المرحلة الأولى من مراحل نضالها ، وبالتفاف الشعب حولها الذي أعلن مبادءه ومطالبه التي خرجت من تربته ، وانبعثت من وجدانه ، والتي لها مرجعية في تاريخه ، فكانت معبرة بصدق عن مطالبه وإرادته ، فكانت : الحرية ، والعدالة ، والمساواة ، ومع الصراعات العالمية التي خاضتها الثورة ، وما فرضته عليها من متطلبات لا نقول أنها أسقطت تلك المبادئ ، ولكن اختزلتها في شعارات تحقق الأهداف المرحلية التي فرضتها طبيعة المرحلة الثورية التي مرت بها الثورة ، فرفعت شعار : الحرية والاشتراكية والوحدة ، في تلك المرحلة التي ظهر فيها الرئيس جمال عبد الناصر داعيًا للقومية العربية ، وزعيمًا للوحدة العربية ، فظل مبدأ الحرية كما هو ، وظل معطلًا ومؤجلًا ، إلى حين ، أما مبدأ العدالة الاجتماعية ، فقد استبدل بالاشتراكية ، وقد اختزل مبدأ المساواة وذاب في الوحدة .

وها هي ثورة ٢٥ يناير ، قد رفعت ذات المبادئ التي رفعتها ثورة يوليو ١٩٥٢ ، لتعلن عن أصالة تلك المبادئ التي انطلقت من وجدان الشعب المصري لتعلن عن أصالة الثورتين معًا ، وأنهما تعبير عن الإرادة الشعبية الواحدة ، وأن ثورة ٢٥ يناير هي مرحلة من مراحل ثورة ٢٣ يوليو الأم .

**الثورة والتغيير :**

وإذا كانت الثورة تعني التغيير الشامل للمجتمع نحو الأصلح ، فلابد أن يكون هذا التغيير نابعًا من وجداننا وفكرنا ، وهذا التغيير الشامل يستدعي أن ننظر في المنظومة الفكرية التي نعيش بها ، وأن ننقيها من كل فكر وارد علينا يتعارض مع أخلاقيات المجتمع وقيمه وموروثنا الحضاري ، والأمر يستدعي أن نواجه أنفسنا بالحقائق مهما كانت مرارتها ، وأن نواجه الخطأ بصراحة ، ونصححه ، ولابد أن نضع في اعتبارنا أننا نتعرض لعملية غزو فكري ، منذ العدوان الفرنسي على مصر ، والذي عرف في التاريخ بالحملة الفرنسية ، أي منذ أكثر من مائتي سنة ، واستمر الغزو الفكري الغربي للقضاء على الحضارة الإسلامية العربية ، ومحو الشخصية المصرية ، وإذابتها في الشخصية الغربية ، وقد عشنا حوالي سبعين سنة في ظل الاحتلال الإنجليزي ، الذي كان يدعو كما يدعو الغرب من قبل ، ومن بعد إلى حضارته ، التي قامت على الإلحاد ، ولا تؤمن بالغيب ، ولا تؤمن إلا بالعقل ، وما يدركه بمدركاته الحسية المحدودة ، وهو ما يعرف بالعلمانية والتي قامت عليها الحضارة الغربية برمتها ، وباختلاف نظرياتها الاجتماعية والسياسية ، وحضارتنا العربية والإسلامية قد قامت على الإيمان بالغيب ، والتمسك بالقيم والأخلاقيات السماوية ، والتي هي واحدة في الأديان السماوية ، وليس في هذا تعصب لدين ، إنما تعصب صريح لأخلاقيات المجتمع العربي وقيمه وموروثه الحضاري .

فقد استظل كل عربي سواء كان مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا ، وقد شملت تلك الدولة التي قامت على الأخلاقيات والقيم السماوية ، المجوس أيضًا والصابئة ، فهي حضارة أبناء العروبة كلهم وليست قاصرة على المسلمين وحدهم ، وعلى سبيل المثال ، فيقول السيد مشيل عفلق ، منظر ومؤسس حزب البعث السوري وهو مسيحي سوري :

«هناك أمة عربية واحدة ، لها الحق في أن تعيش كدولة موحدة شكلتها تجربة تاريخية عظيمة ، هي ظهور الإسلام على يد النبي محمد ﷺ والمجتمع الذي جسده ، وهذه التجربة ليست ملكًا للعرب المسلمين فقط ، ولكن لكل العرب الذين استوعبوها باعتبارها ملكًا لهم ، وأساسًا

لإعلانهم بأن لهم رسالة خاصة في العالم ، وبحقهم في الاستقلال والوحدة ، ويمكن تحقيق هذه الأهداف فقط بتحول مزدوج ، أولًا بتحول العقل والروح ، وهو استيعاب لفكرة الأمة العربية من خلال الفهم والحب ، وثانيًا بالتحول في النظام الاجتماعي والسياسي [١] .

ولقد تحقق للعرب في ظل هذه التجربة العربية الحرية والعدالة والمساواة ، منذ ألف وأربعمائه عام ، وظلت الدولة العربية بتجربتها الفريدة سائدة لقرون طويلة ، سواء كانت في الحجاز أو دمشق أو بغداد أو تونس والمغرب أو الأندلس ، بينما كان الغرب يتخبط في دياجير الظلام في عصوره الوسطى ، ولم تكن أمريكا قد ولدت بعد ، وعاشت الدولة العربية والحضارة العربية التي قامت على الإيمان بالغيب وعلى تعاليم السماء تشع نورًا وتنشر مبادئ الحرية والعدالة والمساواة في شتى بقاع الأرض ، فأينما كان يذهب العربي ، كان يصطحب معه مبادءه ، إذن فعلينا أن نعيد النظر في كل المنظومة الفكرية التي نعيش بها ، وننقيها مما تسلل إلينا عبر الاحتلال الإنجليزي ، وما تخلف وانتشر عبر الغزو الفكري الغربي للشرق خلال عصور التخلف الذي عاشته المنطقة العربية ، وما أصاب الشخصية المصرية من ضعف واهتزاز جراء ذلك ، وكادت أن تفقد هويتها بين الأمم ، وعلينا أيضًا أن نواجه الحقائق ، أي حقائق الضعف وأسبابه ، مهما كانت مرارتها ، فنواجهها بشجاعة وصراحة ، دون لي أو التواء ، وبلا تزويغ ولف ودوران .

**قضية القضايا :**

ما أعلنت ثورة ٢٥ يناير عن نجاحها ، حتى امتلأت الساحة بمحترفي السياسة ، وأبطال ركوب كل موجة ، الذين أخذوا ينسبون أنفسهم للثورة ، أو ينسبونها إليهم ، وقد اجتمعوا وأجمعوا على أن الديمقراطية هي المطلب الأول للثورة ، والمطلب الرئيسي والحقيقة أن هذه الكلمة ، أي المدعوة ديمقراطية ، لم تتردد على الإطلاق بميدان التحرير ، ولم يأت ذكرها ، فكيف يطلب شعب أمرًا أو شيئًا لا يعرفه ، وليس له أي قيمة في وجدانه ، ولا مرجعية في تاريخه ، إنما هي لعبة محترفي السياسة ، والمتصارعين على الحكم ، وعملاء الفكر الغربي .

فهذا المصطلح السياسي الغربي هو نتاج الحضارة الغربية ، وهو يعيش في وجدان أهل الغرب ، وقد نشأوا وتربوا عليه ، وهم يعرفون كيف يمارسون الديمقراطية التي هي نتاج حضارتهم ، وقد مرت بمراحل متعددة في تاريخهم ، فحينما يسمع رجل الشارع البسيط في

(١) من كتاب تاريخ الشعوب العربية ، للمستشرق اللبناني والمؤرخ الأستاذ ألبرت حوراني - ترجمة نبيل صلاح الدين ، الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الغرب هذه الكلمة ، فإنها تتحرك في ذاكرته ، وتحتشد تاريخ هذه الكلمة ، وكل المراحل لتاريخية التي مرت بها ، منذ أن كانت فسيلة عند أرسطو في أثينا ، منذ حوالي ألفي وخمسمائة عام إلى أن أثمرت وأينعت عند الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، واستقرت معانيها عند بعديها الأساسيين ، وهما الحرية السياسية ، والحرية الدينية ، وأنها حكم الشعب ، والذي يختلف في تطبيقاته لها ، ونظام الحكم القائم عليها من بلد لآخر ، فهي نتاج الفكر الغربي ، والتي قامت عليه حضارته ، فهي تعيش في وجدانه ، وفي حاضره بكل تاريخها التي مرت به ، والحقيقة أن الديمقراطية خلق رفيع ، قبل أن يضاف إليها بعدًا ثالثًا ، والذي سوف نتحدث عنه بشيء من الإضافة ، وهي مثلها مثل أي خلق ، لا يتأتى بالقراءة في الكتب ، وترديد الكلمات الرنانة والجميلة ، إنما هو خلق يتأتى ويتربى في النفس بالتربية والنشأة والقدوة والممارسة ، أما إذا طرقت هذه الكلمة أذن رجل الشارع المصري البسيط ، فترى ماذا تعنى ؟!! أعتقد أن لا شيء تعني له سوى ما يشبه الغمام .

وهذا المصطلح السياسي الغربي ، قد وفد إلى بلاد العرب مع الحملات الاستعمارية والاحتلال الذي تعرضت له البلدان العربية ، وقد أخذ في الانتشار منذ بداية القرن العشرين ، حينما أخذ يدعو له ويروج عملاء الفكر الغربي ، والمعجبين بالحضارة الغربية الحديثة ، التي قامت على الإلحاد وإنكار الأديان ، وعدم الإيمان بكل ما هو غيبي ، فهي لا تؤمن إلا بمدركات العقل ، ولا ترى شيئًا وراء العقل ، وأن القضاء على الأديان هو الطريق الوحيد للقضاء على التخلف الذي أصاب الشعوب المتمسكة بالأديان ، وهي تنظر إلى الإنسان باعتبار أنه جسد مادي وحسب ، ولا تهتم إلا بإشباع حاجاته المادية والجسدية وحسب ، ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر ثمرتها المادية في الحضارة الغربية . إلا أنها لم تحقق في بلاد العرب ، منذ أن انتشرت لدى أبناء العروبة ، ورفعها الحكام العرب منذ أكثر من ستين عام كشعار للحكم ، فلم تحقق في البلدان العربية سوى الخراب ، فما كانت سوى لعبة أو أضحوكة يضحك بها الحكام العرب على شعوبهم ، فلا قيمة لها ولا مرجعية في وجدانهم .

وإذا بحثنا عن دلالة هذه الكلمة أو المصطلح السياسي الغربي عند الكثيرين ممن يسمون في مصر بالمثقفين ، لوجدنا أن الغالبية العظمى لا يعرفون شيئًا عنها أكثر من أنها حكم الشعب ، ولا يزيدون وإذا كان أحدهم على ثقافة عالية ، فتراه يضيف ، أنها كلمة لاتينية مكونة من مقطعين ، «ديمو» أي شعب ، و«قراط» أي حكم ، ولا يستطيع أن يزيد عن ذلك ، ولذا نجد أنه لزامًا علينا أن نسهب ، ولا نختصر حتى نزيد الأمر جلاء ووضوحًا ، ما استطعنا ، ولا

مجاملة ، ولا حياء ، فنحن في منعطف حضاري خطير ، وإما أن نكون أو لا نكون ، إذن فعلينا أن نواجه الحقائق مهما كانت مرارتها ، وأن نصحح أخطاءنا حتى نعبر هذا المنعطف بسلام ، ونعود إلى شخصيتنا التي كادت أن تذوب في الشخصية الغربية .

والقضية الحقيقية ليست في مسميات آلية تطبيق الحرية ، والتي تمخضت عنها الحضارة نصف الإنسانية الغربية ، والتي أطلقت عليها الديموقراطية ، وإنما القضية الحقيقية هي أبعد من ذلك ، إنما هي في المفاهيم الإنسانية والاجتماعية التي قامت عليها الحضارة الغربية برمتها . وتكمن في مفاهيم الفضيلة والضمير ، وهي المفاهيم الأساسية التي أقام عليها أفلاطون جمهوريته ، والتي هي مرجعية مدينة السعادة التي يسعى الغرب لتحقيقها أو (اليوتيبيا) كما يسمونها . إذ اقترح فيها : إباحة الممارسة الجنسية المشاعة في مزرعة تفريخ بشري بين مجموعة من الرجال والنساء يتبادلون المعاشرة الجنسية بشكل عشوائي حتى لا يعرف المولود من هو أبوه ، ولا من هي أمه ؛ لأن الأطفال يخلطون بعد ولادتهم لتجهل أمهاتهم كما جهل أباؤهم .

حتى حارسات هذه المزرعة اشترط أفلاطون أن يقفن على أبوابها عاريات ، وادعى أن عريهن لا يقدح في عفتهن ، ما دمن يتحلين بالفضيلة !!

وهنا يتوقف القلم ، ويشرد الخاطر ، وتتلاحق الأسئلة : هل الغرب مع كل تطوره الحديث ، ما زال يقف عند الفكر الإنساني الذي مر عليه ألفي وخمسمائة عام ؟ أليس التطور من سنن الحياة ؟ ولا يوصف فكر بالتطور إلا إذا ترقى ولا غرو إن قلنا أن ما أتى به أحد الفلاسفة قديما ، ربما يكون في عصرنا مصدرًا للفكاهة . فالتطور الإنساني الحقيقي يكمن في تطور الفكر الإنساني ، وليس في تطور الفكر المادي وعلومه وتطبيقاته . وهل تحول الإنسان في المنظور الغربي إلى فراخ أو ماشية أو خنازير ، حتى يربى في مزارع ؟! ثم ما هي آلية تطبيق الحرية التي يسمونها بالديموقراطية أي حكم الشعب؟! وما هو المقصود بالشعب في عصرنا؟! أو لم يصبح ثم فرق بين الشعب من بني الإنسان والشعب من بني الفراخ والماشية والخنازير؟! إن من خصوصيات الإنسان التي تميزه عن الحيوان أن ينسب إلى أبوين يقومان بإنجابه بعد زيجة يشهد عليها المجتمع ، ويقومان على تربيته ورعايته ، ويشبعان غريزة الإنسان في حفظ النسل والنسب والأمومة والأبوة بما بينهما من مودة ورحمة ، وجناحي السعادة لطفلهما . وتلك سنة الله في خلقه التي لا نريد تبديلها ، وتلك فطرة الله التي فطر الله الناس عليها .

وإذا كان مفهوم الفضيلة لدى الغرب الذي يتشكل عليه الضمير يقوم على العري والإباحية الجنسية ، وجهل النسب أو الوالدين فينشأ عن ذلك ما يسمي بضمير . فنرجو المعذرة إن كنا لسنا على دراية بضمائر نتاج الحظائر .

أما ما نعرفه عن حضاتنا الإسلامية العربية الإنسانية الكاملة ، فإن الفضيلة تقوم على العفة والحشمة والحياء ، وخصوصية الإنسان في النسب لأبوين ، وهو ما يميز الجنس الإنساني على سائر المخلوقات فوق الكرة الأرضية ، كما أن على الأبوين التربية على الفضيلة والضمير الذي يقوم على تعاليم سماوية راسخة في وجداننا لا تنفك عن كياننا ، ولا تتجزأ ، وهي قائمة على الإيمان بالغيب الذي لا تؤمن به الحضارة الغربية وترفضه .

ومما قدمنا يتبين أن المفاهيم الأساسية الإنسانية والاجتماعية القديمة التي قامت عليها الحضارة الغربية المادية التي تنكر وتتعارض مع مفاهيمنا الأساسية الحضارية التي نشأت عليها حضارتنا وقامت وازدهرت على الإيمان بالغيب ، والتي حققت السعادة للإنسان ، وما زلنا نسعد بها . ونعيش مع الطبيعة والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ولسنا بنا رغبة لنسفها ، ونحن معها في انسجام .

وعلى كلٍّ ، فقد ضحك عبد الناصر رحمه الله على المخابرات الأمريكية وحصل منهم على مليون دولار بنى بهم برج القاهرة ، ولم يحقق رغبتهم ، وقد ضحك السادات رحمه الله من قبل على الإنجليز وباع لمعسكرات الجيش الإنجليزي الطماطم الفاسدة . وها هي منظمات المجتمع المدني قد تكاثرت بعد ثورة ٢٥ يناير كتكاثر الفراخ الغربية في المزارع ، والكل يتسابق للحصول على المعونات الامريكية من أجل نشر الديموقراطية ، ولن يتحول المصريون عن معتقداتهم ، وإني أعترف أنني لست سياسيًا .

## الغرب يبحث عن ذاته

ونعود إلى مولد الديمقراطية في أثينا منذ حوالي ألفي وخمسمائة عام على يد الفيلسوف اليوناني العظيم أرسطو ، وقد وضعها كمبدأ للحكم لسببين :

وأما السبب الأول : فكان يرى أنها وسيلة الحكم لتحقيق وإقامة المدينة الفاضلة «يوتوبيا» كما تخيلها أستاذه الفيلسوف العظيم أفلاطون ، وهي المدينة التي يعيش كل فرد فيها في سعادة وأمان وسلام .

وأما السبب الثاني : فقد كان يرى أن مبدأ الديمقراطية ، هو علاج وحل لحسم الصراعات التي تنشأ بين أفاقين أثينا الذين يرتدون مسوح الوطنية ، ويتصارعون ويتقاتلون من أجل الوصول للحكم ، والمقصود بها في ذلك الوقت حكم الشعب الذي كان لا يزيد عن ١٠٪ عشرة في المائة ، من تعداد سكان أثينا ، وهم طبقة الأحرار في أثينا والباقي عبيد ، وما زالت هذه النسبة تقريبًا ، هي أعلى نسبة في أي دولة في العالم لعدد المنضمين إلى الأحزاب ، والمتصارعين على الحكم ، والذين يرتدون مسوح الوطنية في كل دولة .

وأخذت أوروبا تعيش على حلم المدينة الفاضلة «يوتوبيا» ، الذي أخذت تتناقله وتتناوله خيالات فلاسفتها ، وعلمائها ومفكريها ، عبر القرون ، طوال ألفي وخمسمائة سنة ، حتى قامت الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م ، وأقرت الديمقراطية كنظام للحكم ، والتي تبلورت في الحرية السياسية والحرية الدينية ، وتخلصت من هيمنة الكنيسة على مقاليد الحياة واضطهادها للعلم والعلماء ، ولم يكن مسموحًا بغير العلوم التي كانت الكنيسة تعترف بها ، وتقوم بتدريسها ، وهي علوم اللاهوت ، واللغات ، والموسيقى ، والتاريخ ، إلى جانب العلوم الكنسية ، وكان كل من يتحدث عن أي علم آخر غير تلك العلوم ، في العصور الوسطى يكون عرضة للسجن والتعذيب ، وربما يكون الإعدام مصيره ، وقد تم إعدام عشرات الآلاف من العلماء خلال تلك العصور الوسطى التي مرت بها أوروبا ، حتى عُزلت الكنيسة عن الحياة العامة مع قيام الثورة الفرنسية ، وأصبح دورها مقصورًا على الطقوس الدينية والعبادات ، وفقًا للمبدأ القائل : اعط مال قيصر لقيصر ، وما لله لله ، وأخذ العلماء يعملون بحريتهم في شتى مجالات العلم ، ويتحدثون بكل ما يرونه علمًا بشقيه التجريبي والعقلاني ، ولا يعترفون بما هو غيبي .

وقامت النهضة العلمية في الغرب كثمرة للديمقراطية ، التي رأوا أنها السبيل الوحيد للوصول إلى المدينة الفاضلة التي عاشت في أحلام وخيالات فلاسفته ومفكريه وعلمائه ، والذين أخذوا يمنون بها الشعوب والإنسان البسيط عبر القرون ، ومع الديمقراطية والتقدم العلمي ، وبدلًا من أن يحقق الغرب مدينة الأحلام ، أو المدينة الفاضلة ، فقد عاشت دول أوروبا في صراعات ، أخذت تزداد وتتفاقم كلما زاد التقدم العلمي ، حتى وصلت إلى ذروتها ، وأظلمت الكرة الأرضية على يدي الغرب ، الذي أمسك بإحداهما الديمقراطية ، وأمسك العلم بالأخرى .

حتى كانت الحربين العالميتين التي عاشتها البشرية في أقل من ربع قرن ، في النصف الأول من القرن العشرين ، وحينما نذكر الغرب ، فإنما نقصد أوروبا وأمريكا – ومع نهاية الحرب العالمية الثانية ، في عام ١٩٤٥ ، والتي راح ضحيتها ملايين من البشر ، ودمرت مدن بأكملها . وسقطت دول وانهارت ، وعانت البشرية من ويلاتها ، بالديمقراطية والعلم ، ما لم تعاني مثله في تاريخها ، فقد تحول العالم إلى مأتم أو جنازة ضخمة ، وأخذت شعوب الغرب تكفر بفلاسفتها وأنبيائها أمثال دارون ونيتشه ، وجوته وماركس ، وغيرهم ، وكفرت بحلم المدينة الفاضلة ، والتي لم تنجح الديمقراطية والتقدم العلمي والتكنولوجي الهائل في الوصول إليها أو تحقيقها ، وفقدوا الأمل في الوصول إلى السعادة المنشودة ، برغم التقدم المادي الهائل الذي وصلوا إليه .

**الديمقراطية وبُعدها الثالث :**

واستمر الغرب في البحث عن ذاته ، ولم ييأس فلاسفته ومفكروه ، من مدينة الأحلام أو الأوهام ، أو المدينة الفاضلة «يوتبيا» التي يعيش فيها الإنسان في سعادة وسلام وأمان ، حتى تمخض الفكر الأمريكي عن بعد ثالث للديمقراطية ، وهو الحرية الجنسية ، وهي فحوى دعوة العولمة الحديثة ، وبذلك أصبحت الديمقراطية الحديثة تعني الحرية السياسية ، والحرية الدينية ، والحرية الجنسية .

والغرب وهو يدعو دول العالم وشعوبه إلى حضارته المادية ، نصف الإنسانية ، التي تنظر إلى الإنسان باعتبار أنه جسد ومادة فقط ، وتهمل جانب الروح ، ولا يعترف بما هو غيب ، فإنما يدعو إلى ذلك ، وهو على قناعة بأن هذا هو الطريق الأمثل والأوحد للتقدم والرقي وفيه خلاص الشعوب التي تخلفت بسبب اعتناقها للأديان السماوية ، القائمة على الإيمان بالغيب ، وهم يسعون إلى نشر الحرية الجنسية ، من باب تحرير المرأة من الفقر ومن سيطرة الرجل

وسطوته ، والمساواة التامة بين الرجل والمرأة التي هي حرة في جسمها مثل الرجل ، ومن باب حقوق الطفل الذي يجب أن يحرم من الأبوة الطبيعية ، وأن ينشأ بين أبوين في أسرة ، كما هو متبع في نظام الزواج وتكوين أسرة منذ بدء الخليقة ، فهم يرون أن نظام الزواج والأسرة التقليدي ، الذي عاشت عليه البشرية ، لم يعد مناسبًا للحياة العصرية ، والتقدم العلمي الهائل ووسائل التكنولوجيا الحديثة التي وصل إليها الإنسان ، ولابد من نسف هذه الطبيعة ، وخلق طبيعة جديدة تناسب العصر ، وهم يدخلون من باب تحرير المرأة وحقوق الطفل ، وكأنهم ملائكة الرحمة الذين بُعثوا إلى هذا الكوكب للقضاء على الظلم الواقع على المرأة والطفل منذ بدء الخليقة .

ولم يكتف الغرب بنشر فكره الذي هو نتاج حضارته المادية نصف الإنسانية في محيط شعوبه ، بل أخذ يدعوا إليها دول العالم وشعوبه ، وما في ذلك عيب . ولكن أن يستعمل الغرب ـ أوربا وأمريكا ـ عضلاته وسطوته لفرض فكره المادي على الشعوب ، تحت مسميات العولمة الحديثة والنظام اعالمي الجديد عن طريق المنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة ، والتي أخذت تعقد المؤتمرات التي تدعو إلى الفكر الغربي الذي لا يؤمن بغير حضارته المادية ، والتي يسعى لفرضها على العالم قصرًا وإرغامًا ، وأي دولة لا تلتزم بالدعوة الغربية لهدم الحضارات الإنسانية فسوف يوقع عليها عقوبات شديدة ، وتحرم من المعونات الدولية ، فهذا ما لا يقبله منطق الحرية التي يرفعون شعارها . وسوف نعرض لهذه المؤتمرات الدولية بشيء من التفصيل في الصفحات التالية .

وهل وصل الغرب إلى مدينة سعادته المنشودة حتى يدعو الأغيار إليها ، دون استعمال السطوة والعضلات ؟! فالحقيقة أن الإنسان الغربي برغم التقدم الهائل الذي وصل إليه في عصرنا ، إلا أنه ما زال يطارده سؤال ويلاحقه أينما ذهب أو استقر : لماذا أعيش ؟!

وإننا إذ نطرح بعض القضايا الكبرى التي لا يمكن بحثها بالتفصيل لضيق المقام فإنما نشير فقط إلى جل ما يمكن طرحه من قضايا لضرب المثل في إعادة البحث في المنظومة الفكرية التي نعيش بها ، حتى يتثنى لنا التغيير الثوري الشامل نحو الأصلح ، مع الحفاظ على هويتنا القومية ، والتمسك بثوابتنا الحضارية . ونكرر ، أن لابد من مواجهة الحقائق مهما كانت مرارتها . وأن نبحث عن أخطائنا التي وقعنا فيها بدعوى التطور والرقي . وإذا كنا في حاجة إلى الغرب للحصول على العلوم المادية الحديثة والتكنولوجيا ، فإننا نقبل من علومه الإنسانية والاجتماعية ما لا يتعارض ولا يهدم موروثنا الحضاري وثوابتنا الاجتماعية ، والتي

لا يمكن التفريط فيها . كما أننا أيضًا إذا كنا نرفض أي فكر علينا تحت أي مسمى ، حتى وإن كان النظام العالمي الجديد ، فإننا أيضا نذكر أن الفكر العالمي الحقيقي هو فكر حضارتنا العربية الإسلامية الذي انتشر في العالم أجمع منذ قرون طويلة ، وسعد به كل من اعتنقه ولم يفرضه أجدادنا على أحد . ذلك الفكر القائم على الإيمان بالغيب ، وعلى قيم وأخلاقيات وتعاليم السماء .

وعلى كلٍّ ، فإن ما لدى الغرب من علم وتكنولوجيا ، هو لدى دول شرق آسيا أيضًا ، في الهند والصين واليابان ، والتي تمد أيديهم إلينا للتعاون الحضاري وتبادل المنفعة ، وقد أهملنا جانبهم كثيرا ، وهي دول أصحاب حضارات ، وحضارتهم قريبة من حضارتنا ، وكان بيننا وبينهم اتصالات حضارية عبر التاريخ . ولم تكن أيا من تلك الدول ، دولة استعمارية ، ولم تطمع يومًا في ثروات الشعوب الأخرى ، ولم تقم بغزوها ونهب ثرواتها. وحتى نتحرر ونخلص من براثن الغزو الفكري الغربي ، الذي وقعنا في أسره وفي ديموقراطيته المزعومة .

## وثيقة بكين لعام ١٩٩٥
## إحدى مشروعات الأمم المتحدة

ولم يكتفوا بنشر هذه الأفكار في بلدانهم ، ولم يدعوا دول العالم الثالث ، كما يسمونه ، وشعوبه إلى حضارتهم المادية ، نصف الإنسانية بالترغيب والإقناع ، إنما اتبعوا أخبث الطرق وأحط الأساليب في نشرها ، وقد سهلت هذا دعم التكنولوجيا الحديثة ، وشبكة الانترنت «والكومبيوتر» ، ذلك وقد بات يسيرًا عليهم غزو أي مجتمع ، ودخول أي بيت في العالم لنشر حضارتهم العجيبة ، وجذب الشباب إليها على وجه الخصوص ، وكان من اليسير أيضًا اتخاذ عملاء لهم في أي مجتمع ، في الفكر والثقافة والصحافة ، وفي أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة ، والذين يستطيعون عن طريق عملائهم في السياسة في هذه الدول وإلقاء الأضواء عليهم ، وجعلهم من أعلام المجتمع ، فيكونوا دعاة للفكر الغربي وحضارته ، ويحققون لهم ، ومن خلالهم الأهداف التي ترمي لهدم المجتمع تحت دعوى التطور والرقي ، ولا شيء أحط من اتخاذ الأمم المتحدة لتنفيذ مآربهم في هدم الحضارة الإنسانية ، والقضاء على الأديان السماوية ، وذلك عن طريق عقد المؤتمرات العالمية لفرض الرذيلة في العالم ، وإباحة الزنا ، والشذوذ الجنسي ، تحت دعوى نشر البعد الثالث للديمقراطية ، وهي الحرية الجنسية ، وفرض عقوبات دولية على الدول التي لا تلتزم بتوصيات مؤتمرات التخريب العالمي ، وهذه العقوبات تكون إما بالحرمان من المعونات الدولية ، وإما بفرض عقوبات قاسية بمعرفة الأمم المتحدة وتحت إشرافها .

ونشرت الصحف والمجلات أخبار هذه المؤتمرات في حينها [1] ، وقد رتبت هذه الوثيقة بنود قامت على أساسها سلبًا وإيجابًا أغراضًا وأهدافًا – رأت الوثيقة أن تحقيقها يثمر تحولًا مرتبطًا فيه في الحياة الواقعية للمرأة والطفل ، في المجتمعات البشرية كلها .

وكان الهدف الرئيسي من وضع هذه الوثيقة هو صياغة مبادئ وقيم لإعادة تنظيم الحياة

(١) اقتبسنا هذه اللمحة من عدة مقالات للأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني تحت عنوان : نقد وثيقة بكين ، لعام ١٩٩٥ ، إحدى مشروعات الأمم المتحدة والتي نُشرت بمجلة الأزهر في أعداد متوالية من شهر مارس ٢٠٠٥ حتى سبتمبر .

البشرية للعالم المعاصر ، وما يتلوه من أجيال ، ووضعت الوثيقة مقترحات في شئون النساء في جميع الأعمار والأحوال ، وشئون الطفل في جميع مراحل حياته ، حتى يبلغ مبلغ الرجال ، أو تبلغ الأنثى من الأطفال مبلغ النساء .

وهذه التصورات من دعائم «العولمة» أو النظام العالمي الجديد ، الذي يهمل كل موروثات الحضارة الإنسانية في جميع عصورها ، وبكل أشكالها ليحل محلها ما تسفر عنه هذه المقترحات ، كأسس حتمية للحياة الإنسانية ، وهذه هي الأسس الأساسية التي قامت عليها هذه الوثيقة :

**تأنيث الفقر :**

قالت الوثيقة : إن الملاحظ في الواقع المعيشي أن أكثر شرائح المجتمع كله فقرًا و حتياجًا هن النساء ، فكثير منهن يعيش تحت «خط الفقر» ثم عزت ظاهرة فقر النساء ، التي أطلقت عليه الوثيقة مصطلح «تأنيث الفقر» إلى ثلاثة أسباب :

١ - عدم أخذ الدولة في الاعتبار مفهوم «الجندر» الذي يسعى إلى إلغاء الفوارق التي تميز بين الرجال والنساء ، حتى الفوارق البيولوجية أو التكوين الخلقي ووظائف الأعضاء الجسمية عند كل رجل وامرأة .

وتعتبر الوثيقة أن وضع هذه الفوارق في الاعتبار يحتوي على ظلم عظيم للمرأة ، لأن تقسيم البشر إلى ذكر وأنثى تقسيم تواطأ عليه الناس وليس له أساس في الواقع .

٢- والسبب الثاني الذي عزت إليه الوثيقة فقر المرأة قالت فيه : تقوم الدولة بتوزيع العمل على أساس أن العمل داخل المنزل هو من اختصاص المرأة ، وهو غير مدفوع الأجر بينما العمل خارج المنزل هو من اختصاص الرجل ، وهو مدفوع الأجر ، وهي - يعني الدولة - بهذه لا تأخذ بمنظور الجندر في الاعتبار «أي المساواة المطلقة بين الرجال والنساء» والذي يلغي كل الفوارق بين الرجل والمرأة ، حتى البيولوجية منها ، وأخذ منظور الجندر في الاعتبار يؤدي إلى توحيد الأدوار بين الرجل والمرأة – وتقسيم العمل المنزلي عليهما بالتساوي ، تمامًا مثل العمل المدفوع الأجر خارج البيت ؟!

٣- وأما السبب الثالث لفقر المرأة كما تراه الوثيقة ، فهو حرمان المرأة من الاقتراض من البنوك والتسهيلات التأمينية ، وذلك حال بين النساء وبين الوصول إلى الاستقلال المادي عن الرجال .

فالهدف الأساسي عند الوثيقة وواضعيها هو تيسير شئون المرأة وتحريرها من الفقر ، والاحتياج إلى الزواج من الرجل بسبب فقرها ، ولكن حين تحرر من الفقر تحرر في الوقت نفسه من الوقوع في «سجن الزواج» الذي يحرمها من حقوقها ويسلب حريتها وتعيش مقهورة في سجن الحياة الزوجية .

فهذه البنود التي وردت في «وثيقة بكين» لعام ١٩٩٥ شاهد على عجز البشر عن تدبير شئون أنفسهم بدون مرجعية عليا معصومة من الخطأ والتخليط ، فما أكثر النساء الثريات في الحياة اللاتي تزوجن من رجال فقراء ، هن ماديًا لسن في حاجة إليهم من أجل المال ، لأنهم أقل مالًا منهن ، لكنهن يردن ملأ فراغ هائل شعرن به اجتماعيًا ، وعاطفيًا ، وفطريًا ، فالمرأة إنسان ، والإنسان مدني بطبعه ، أو بفطرته المفطور عليها من أمر الفاطر الحكيم ، يميل إلى الإلف والأنس وينفر عن الوحدة ، والوحشة ، وهو وحده يعيش في سجن نفسي وشعوري ، ولو كان في قصر منيف ، هو مع غيره «فاعل» وهو بمفرده «عاطل» .

والأخطاء التي جاءت بهذه الوثيقة كثيرة ، ومن أبرزها ما أسمته بتعليم الجنس ، والصحة الإنجابية ، وقد اندرج تحت هذين المفهومين مخاطر محتملة ، فتطالب الوثيقة بـ«إدماج برنامج تعليم الصحة الإنجابية» في برامج التعليم الرسمي لكل دولة بشأن الصحة النسائية ، وقد رتبت على هذا البند بعض الإجراءات التي تقول :

فتطالب الوثيقة إتاحة الخدمات الصحية الجنسية والإنجابية لجميع الفتيات غير المتزوجات ، وان تتكفل الحكومة بالمراهقة الحامل من غير زواج .

أن يتم تعليم الأطفال في سن الثامنة والتاسعة كيفية ممارسة الجنس الآمن ، وهي الممارسة غير الشرعية «أي الزنا واللواط» .

أن يشمل تعليم الأطفال في المدارس الإلزامية الحكومية القول بأن ممارسة الجنس عن طريق الزواج المألوف «الشرعي» ممارسة خطيرة وغير آمنة ، وتسبب أمراض نقص المناعة «الإيدز» وتتسبب في الحمل وانتقال الأمراض ؟! أما الممارسة الآمنة فهي الممارسات الشاذة وتشمل ممارسة الجنس بين المثلين «ذكر وذكر» أو «أنثى وأنثى» وهي التي يجب أن تشملها مناهج التعليم الرسمية للدولة وتشرح للأطفال عمليًا ، ويؤذن لهم بممارستها قبل الزواج إن كان لهؤلاء الشواذ رغبة في الزواج ؟!

والغريب أن هذه الخطوات التي تتبعها بعض الدول في الغرب للتعامل مع ظاهرة المراهقين والمراهقات وضعت وثائق دولية ، يخطط لها الآن أن تفرض على جميع الشعوب

مهما اختلفت أديانهم وعقيدتهم وثقافتهم ، ومن يرفض العمل بها يتعرض لـ: إما الحرمان من المعونات الدولية ، أو فرض عقوبات قاسية عليه .

وعلى هيئة الأمم المتحدة أن تقوم بتنفيذ هذه الإجراءات – والإجراء الأخير الذي أقرته الوثيقة هو التخلص من الحمل غير المرغوب فيه عن طريق إباحة الإجهاض ولو على حساب الدولة مع توفير الرعاية الصحية والاجتماعية للواتي يتم إجهاضهن على نفقات الدول ، كما تلتزم الدول والحكومات بإنشاء المستشفيات والمراكز لرعاية نزيف الأرحام الصغيرة .

**الحرية الجنسية والعولمة :**

وتمهد الوثيقة لتطبيق هذه الممارسات قبل الإقدام على الزواج غير المرغوب فيه عندها ، بتقرير حق الحرية الجنسية لكل طرف «ذكر وأنثى» أو «ذكران أو أنثيان» فتقول في البند (٩٥) مع التركيز على المرأة : والحرية الجنسية حق من حقوق المرأة التي هي من حقوق الإنسان ، والحجر على حرية ممارسة الجنس حق من حقوق المرأة التي هي من حقوق الإنسان يعاقب عليه القانون ، وعلى طريق التمهيد لممارسة الجنس قبل الزواج النمطي إذا بقيت إليه حاجة بعد كل هذه «الإباحيات» تدعو الوثيقة إلى آفتين مدمرتين هما :

توفير حبوب منع الحمل بالأسواق وبأرخص الأسعار ورفع الحجر عن بيعها .

إباحة التخلص من الحمل غير المرغوب فيه ، وتيسيره ووجوب عناية الدولة بالمراهقات اللواتي تجري لهن عمليات الإجهاض .

ومعنى هذا أن الوثيقة تسعى جاهدة إلى محو نظام الأسرة في المجتمع ، ولكن بالتدريج ، بإحلال البدائل التي تحل محلها شيئًا فشيئًا حتى تنقرض تمامًا ، وفي هذا تمهيد واضح المعالم لتمزيق أوصال المجتمع الإنساني ، تحت مسميات :

العولمة ، النظام العالمي الجديد ، القضاء على جميع أشكال التمييز بين الرجل والمرأة في المجتمع ، والسعي لهدم الأسرة في المجتمع لم يأت عرضًا أو مقحمًا وسهوًا في بنود الوثيقة والروافد التي مهدت لها قبلها ، بل هو هدف مقصود ومرصود ، وتستحدث الوثيقة أنماطًا عابثة للأسرة وهي :

أ- أسرة الوالد الواحد «أي بدون» بحيث تعيش المرأة مع مجموعة من الأطفال أو طفل واحد سواء عرف آباؤهم أو لم يعرفوا .

ب- الأسرة المثلية : أي المتكونة من نوع واحد ، سواء من رجلين ، أو من امرأتين ، وبعض هؤلاء يتخذون لأنفسهم أولادًا إما عن طريق التبني أو السفاح .

جـ - الأسرة المتقارنة : أو المتزاوجة التي تتكون من الرجال والنساء ، وتتم بينهم الممارسات الجنسية بطريقة التبادل المتكرر بين كل اثنين ، وتتم هذه التعاملات الحيوانية ، دون أن يكون بين هؤلاء «الشواذ من النوعين» عقد أو وثيقة .

د - أسرة المعاشرة الجماعية : وهي الأسرة التي تتكون من جماعة من الشباب ومن الشابات ، ويمارسون الجنس المتبادل بين اثنين ، دون أن يكون أحد الشباب مقصورًا على إحدى الشابات ، مع الإباحة لهم أن يمارسوا الجنس بأشكال مختلفة من الشذوذ الجنسي .

وكان قد عرض بالقاهرة مؤتمرًا قبل صدور وثيقة بكين لعام ١٩٩٥ تحت اسم مؤتمر السكان الدولي ، وذلك في الفترة من ٥- ١٣ من شهر سبتمبر ١٩٩٤ ، وقد عرض لهذه الأنماط الأربعة من الزواج وغيرها من البنود التي تكرر عرضها في وثيقة بكين عام ١٩٩٥ أي بعد مؤتمر القاهرة بعام واحد ، وكان الهدف من هذه العروض ، هو فرض هذه السلوكيات على جميع شعوب العالم .

وقد سبق هذين المؤتمرين تحت إشراف الأمم المتحدة المباشرة عدة مؤتمرات مماثلة منها : مؤتمر مكسيكوسيتي عام ١٩٧٥ ومؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٨٠ ومن قبل مؤتمر بوخارست عام ١٩٧٤ وغيره كثير إذن فالأمر جاد ولا هزل ، وقد اشترطت الأمم المتحدة استبعاد الأديان في بحث هذا المجال .

وبعد أن انتهينا من عرض تلك اللمحة عن وثيقة بكين التي اقتبسناها من مجلة الأزهر ، نضيف أنه قد تم أيضًا عقد مؤتمرًا بالقاهرة في شهر ديسمبر عام ٢٠١٠ ، تحت اسم مؤتمر السكان الدولي تحت إشراف السيدة سوزان مبارك حرم الرئيس المخلوع ، والتي كانت رئيس كل الجمعيات النسائية في مصر ، وكانت أيضًا عضوًا بنادي «الروتاري» بباريس ، والذي هو أحد الأندية التابعة للماسونية العالمية ، وكانت السيدة تضع النجمة الخماسية ، وهي شعار الماسونية العالمية على صدرها ، بكل فخر واعتزاز .

وعلى كل ، فقد اكتملت الديمقراطية ، وتجسمت ببعدها الثالث ، وهو الحرية الجنسية ، ولم يبقى لها سوى البعد الرابع ، أو البعد الزمني حتى يصل الغرب إلى مدينة الأحلام أو مدينة الأوهام التي عاشت في خيالات فلاسفته وأحلامهم حوالي ألفي وخمسمائة عام ، يتناقلها جيل بعد جيل ، ويتناولها الفلاسفة والمفكرين في كل عصر بالتعديل ، ولم تحدد وثيقة بكين لعام ١٩٩٥ ، مدى هذا البعد الرابع أو الزمني الذي سوف تتحقق للإنسان فيه السعادة في المدينة الفاضلة «يوتيبيا» ، وعلى أية حال ، فكل النظريات الاجتماعية والسياسية والعلوم

الإنسانية والاجتماعية بصفة عامة ، والتي أتى به الغرب في عصرنا ، فهي عرضة للخطأ والصواب ، وربما يكتشف الغرب خطأها عما قريب ، إذ أنها لا تتمتع بعوامل الثبات ، فلم تقم على أسس رياضية ثابتة من الناحية العلمانية ، كما أن ليس لها قدسية سماوية من الناحية الإيمانية .

**مصر والديمقراطية :**

ومهما قيل عن الحزب الوطني الديموقراطي ، الذي عشنا في ظل حكمه ثلاثة عقود متوالية فلا إنكار أنه عمل جادًا مع نظام الحكم ، على نشر البعد الثالث للديموقر طية أي الحرية الجنسية ، ولا أحد يستطيع أن ينسى دور أجهزة الإعلام التي عملت بحذق وبراعة في سبيل ذلك ، فقد انتشر في البلاد خلال هذه المدة الزنا ، والشذوذ الجنسي ، واللواط والسحاق ، وانتشرت بين طبقة المثقفين بالذات ممارسة الجنس الجماعي ، حتى أنه انتشرت بين الناس طرفة أو نكتة طوال الربع قرن الماضي فحواها : أنهم قد سألوا الرئيس المخلوع عن سبب انتشار ظاهرة الشذوذ الجنسي بين الوزراء في الحكومات الديمقراطية المتعاقبة للحزب الديموقراطي ، فقال : هي تجربة ، وإذا نجحت فسوف نعممها ، ولا دخان بغير نار ، ولا عجب ولا غرابة في ذلك ، فهم أناس ديموقراطيون قد تزوجوا من ذكور على الطريقة الديموقراطية والعولمة الحديثة ، حتى ترضى عنهم آلهة الديمقراطية فوق جبال الأوليمب ، وفوق جبال روكي .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الدكتور أحمد فتحي سرور رئيس مجلس الشعب الديموقراطي السابق ، كان رئيس إتحاد البرلمانات الديموقراطية في العالم ، وهو أستاذ القانون الضليع ، والذي قرطس المجالس الديموقراطية في العالم أجمع ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الديموقراطية لدى المصريين لا تعدو عن هراء وثرثرة وكلام كثير ، موافقة ، فواضح أن الرجل رغم حذقه للكلام الديموقراطي إلا أنه لم يكن على قناعة بالديموقراطية ، ولم تكن لها قيمة في وجدانه ، موافقة ، وقد انتخب رئيسًا لاتحاد البرلمانات الديموقراطية العالمي .

## مصر تبحث عن ذاتها

وتأتي المعونات والهبات لمنظمات المجتمع المدني من أجل نشر الديموقراطية بأبعادها الثلاثة ، فلم يعد المصدر الغربي يصدرها بغير أبعادها الثلاثة ، ويشدد أكثر على بعدها الثالث ، ويراقب تطبيقه في المجتمع الملزم برفع تقرير للأمم المتحدة ، حسب ما جاء في وثيقة بكين لعام ١٩٩٥ ، وتقف مصر في مفترق الطرق تبحث عن ذاتها ، تلم شعثها ، تنظر حولها ، تستبين الطريق لتعدو ولتثب من جديد .

ولا يغيب عن بالنا أن الذين سرقوا مصر ونهبوها وباعوها ، وعاثوا فيها فسادًا هم جميعًا من طبقة المثقفين ، وهم من أهل العلم ، والكثيرين منهم من حملة الدكتوراه ، وينادي صوت من زمان ، من بعيد ، إلا أنه قريب ، قريب ، فينطلق من الوجدان قول شاعر النيل حينما تحدثت مصر عن نفسها ، وحركت قلمه فقالت :

**وارفعوا دولتي على العلم والأخـ ـلاق فالعلم وحده ليس يجدي**

فتأخذ المنظومة الفكرية التي نعيش عليها في الانضباط ، فيتبلور مفهوم المساواة في فكرنا أن أشراف المجتمع كلهم متساوون ، لا فرق بين طبيب وجامع القمامة ، طالما أنه يجمعهم الشرف ، وأن الناس صنفان ، صنف شريف ، وصنف غير شريف ، وأن المجتمع ليس في حاجة إلا للشرفاء ، وأن غير الشريف لا قيمة له ، ولا اعتبار لدرجته العلمية ووضعه الاجتماعي ، الذي يزول مع المساواة والمجتمع لا يستطيع أن يستغني عن عامل النظافة ، فهو في حاجة إليه مثل حاجته إلى الطبيب .

ونكرر ما ليس منه بد ، فإذا كنا نريد التغيير الشامل الثوري نحو الإصلاح والتصحيح ، فلابد أن نواجه الحقائق مهما كانت مرارتها ، ولنبحث في جذور الأسباب التي أدت إلى أخطائنا ، حتى يتسنى لنا الوقوف على علاجها ، والقضاء عليها ، وبدء ذي بدء لابد أن نواجه حقيقة لا مراء فيها ، فالذين يدّعون الثقافة والفكر من بيننا أو أغلبهم يرون أن السير في ركاب الغرب هو الطريق الوحيد للتطور والرقي ، ويجب نبذ كل ما هو شرقي ، حتى وإن كانت الأديان السماوية ، وهنا يعنُّ لنا سؤالًا نطرحه على كل ذي عقل : إذا كنا بمنطق التطور نأبى أن نعيش بأفكار عصور خلت ، فكيف بالمنطق نفسه نقبل أن نعيش بأفكار مستعارة ؟! أليس ثم فرق

بين التطور والتجديد ، والهدم والتبديد ؟! فالتطور في حاجة إلى ثبات يقوم عليه ، ولا يقوم التطور ولا يسمى تطورًا إلا إذا قام على ثبات ، ولا يقوم التطور على شفا جرف هار ، ومن هذا المنطلق ، أي أن التطور لابد أن يقوم على ثبات ، نتناول قضايانا ، ونبحث في حضارتنا العريقة عن جذور الثبات لكل قضية ، فنخرج بحلول قائمة على جذور حضارية ثابتة ، مع التجديد والتطوير بما يناسب العصر ، وبما يحفظ ويثبت أخلاقياتنا وقيمنا الاجتماعية ، ولا يضر بموروثنا الحضاري ، فتكون لنا شخصيتنا بين الأمم ، ونؤدي دورنا الحضاري بين الشعوب ، ونكمل ونسير في طريق الأجداد الذين حملوا رسالة النور ، والأخلاقيات والقيم السماوية السامية ، والتي تحملها رسالة الحرية والعدالة والمساواة والإخاء .

**مدينة النور والمدينة الفاضلة «يوتبيا» :**

ومثلنا والغرب ، كمثل رجلين يسيران في صحراء شاسعة ، أحدهما يبحث عن طريق للعودة إلى بيته الجميل الذي كان يأويه ويشعر فيه بالسعادة والأمن والسلام ، وأما الآخر فهو في هذه الصحراء يبحث عن بيت جميل قد رآه في أحلامه التي أخذت تطارده ، وتغزوه في منامه ، حتى ظن أنها حقيقة فخرج يبحث في هذا التيه الموحش عن بيت الأحلام ، وكان صاحب البيت المفقود من الكرم بحيث أنه حينما التقى بهذا الذي يبحث عن بيت أحلامه في هذه الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف ، عرض على الرجل أن يسير معه ، حتى إذا وصل إلى بيته المفقود ، يعيشان سويًا ، فبيته من الاتساع بحيث يمكن أن يعيش فيه أسرتين ، ويعيشان في سعادة وهناء ، وإذا عجبه ، وارتاح إليه يعود ويحمل أسرته إلى بيت السعادة ، ولكنه أبى وأصر على بحثه عن بيت أحلامه ، وأن يصحبه ذلك الرجل صاحب البيت المفقود وأن يسيرا سويًا ، وأخذ يحكي له عن بيت أحلامه ، ويمنيه بما فيه من سعادة ، ولم يكن يجمعهما في هذا التيه الموحش الغريب من تشابه غير أن لكل منهما مطية أو دابة ، تحمله وتحمل خرج كلأه وماءه ، ووسائل النار ، وأخيرًا اتفقا سويًا على حل وسط ، أن يسيرا معًا يقتفيان الأثر إلى البيت المفقود ، وإذا وجد فيه صاحب بيت الأحلام سعادته ، فليبقى فيه ، وهم شركاء من الآن في الماء والنار والكلأ ، فهل يسير الغرب معنا في طريق العودة إلى بيتنا المفقود ؟!

فكذلك نحن والغرب في طريق البحث عن مدينة السعادة ، فإن طريقنا في البحث عن مدينتنا لابد أن يختلف عن طريق الغرب في البحث عن مدينته ، فالغرب يبحث عن مدينة الأحلام أو الأوهام ، التي لم تتحقق يومًا على أرض الواقع ، أما نحن فكانت لنا مدينة النور التي فقدناها ، وكانت مدينة قائمة على أرض الواقع ، وهي مدينة النور ، التي أقامها النبي

الذي بُعث في العرب للناس كافة ، والتي تحولت في سنين قليلة إلى أمة ودولة كبيرة يعيش فيها كل في سعادة وأمان وسلام ، وتشع على من حولها من البشر النور ، وتنشر مبادئ الحرية والعدالة والمساواة والإخاء القائمة على التوحيد في شتى بقاع الأرض ، والعودة إلى مدينتنا المفقودة أمر سهل وميسور ، ولا يكون إلا باقتفاء الأثر إليها ، ولا يكون بالسير في طريق الغرب الذي يبحث عن مدينة الأحلام والأوهام التي لم تتحقق يومًا على أرض الواقع ، أما نحن فقد عاشت أمتنا ، أمة النور قرونًا طويلة ، وعرفنا الحرية وعشناها ومارسناها ، منذ أن كان الغرب يتخبط في دياجر الظلام في عصوره الوسطى ، وقد أقام العرب حضارة في ظل الإسلام ومبادئه السامية ، وهي ملك للعرب جميعًا ، وليست حكرًا على المسلمين ، فقد اشترك في إقامة هذه الحضارة كل من عاش على أرض دولة الحضارة الإنسانية كل من المسلمين والنصارى واليهود ، والآثار العلمية التي خلفتها هذه الحضارة تشهد على ذلك ، وما حوته من كتب في شتى فروع العلم ، اشترك في وضعها علماء من كل الديانات السماوية ، الذين جمعتهم أخلاقيات وقيم ومبادئ واحدة ، مصدرها واحد ، ومرجع أنبيائها واحد إلى أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، إذن فهي الأخلاق والقيم الإبراهيمية السماوية .

ولا شك أننا في حاجة إلى حركة تنوير ، ولابد أن تتخذ حركة تنويرنا الحقيقية شكلًا آخر غير الشكل والأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية التي قامت على الإلحاد ، وإنكار كل ما هو غيبي ، فقد قامت مدينتنا المفقودة على الإيمان بالغيب ، ولا يمكن العودة إليها ، واقتفاء أثرها إلا في ظل الإيمان بالغيب ، ولقد عرضنا لقضية يضيق المقام ببحثها ، ويحتاج بحثها ليس إلى كتاب مستقل ، بل ربما عدة كتب ، وهو الأرجح ، وليس بذي شرط أن تكون من عملنا ، فإنا نعتقد أن في مجتمعنا الكثيرين الأكفاء لتناول هذه القضية بكل جوانبها ، ولكننا سوف نشير فقط إلى ما نراه يخدم هذا الكتاب وأهدافه .

وإذا لم ينطلق التغيير الثوري الشامل من ذاتيتنا ، ومن أسس وثوابت جذور حضارتنا نحو الأصلح ، فهو ليس بتغيير ، إنما هو تقليد للأغيار الذين تذوب فيهم ذاتيتنا ، وتفقد هويتنا ، فمعنى العولمة والنظام العالمي الجديد التي تحاول أمريكا أن تفرضه على العالم قصرًا ، هو أن يتحول المواطن في العالم إلى مواطن أمريكي من الدرجة الثانية .

وتبقى مصر على مر الزمن بأقباطها وكنيستها خير شاهد على أن الحكم العربي الإسلامي قائم على الحرية الدينية ، وأقباط مصر هم الصنف الوحيد من مسيحي العالم الذي تعرض لغزو مسيحي أوربا ، وكنيسة روما في عصورها الوسطى ، وفي عصر نهضتها ، وجاء الإسلام

ليعلن الحرية الدينية ، وما هي إلا إشارة سريعة ، ونعود مسرعين إلى مصر ، الذي ذاب فيها الكل ، وقد ذكرنا من قبل قصة اللواء باقي زكي يوسف ، والذي انشغل بتراب وطنه المغتصب ، وأحس بمرارة الهزيمة ، فاخترع القنبلة الذرية التي حطمت خط بارليف وفتحت الطريق لعبور جند مصر البواسل القناة ، وهم يصيحون جميعًا بصيحة التوحيد : الله أكبر ، ولا تعجب إذا وجدت مسلمًا في مصر من هو عمه أو خاله قبطي أو خالته من الرضاعة ، وهل هناك دليل خير من هذا على أن هؤلاء القوم يعيشون في مدينة السعادة أو المدينة الفاضلة ، التي أقامها كل في نفسه فسعد وأسعد الآخرين ، إنها مدينة التسامح والإخاء والحب الذي افتقده الغرب في انشغاله بالمادة ، وإهماله للروح .

وإن أشراف مصر الأتقياء يعرفون طريق الخلاص ، ولن يستطيع أحد أن يثنيهم عنه ، فالإنسان الغربي يبحث عن إجابة لسؤال ما زال يحيره منذ عدة قرون ، ولم يجد له إجابة ، ومع كل الرفاهية التي يعيش فيها ، فإنه يعتقد أنه لن يهدأ له بال إلا إذا وجد إجابة لسؤاله : لماذا أعيش ؟ أما نحن فإنا نعرف إجابته التي أجابت عليه السماء ، ولسنا في حيرة أهل الغرب ، وباختصار شديد ، فإذا كنا في حاجة للعلوم المادية والتكنولوجية التي أتى بها الغرب ، فإننا لسنا في حاجة إلى علومه الإنسانية والاجتماعية التي لم تقم على المنهج التجريبي ، ولم تقم على أسس رياضية ، ولا تخضع للمنهج الرياضي ، وهو أرقى المناهج العلمية التي وصلت إليها البشرية .

فقد قامت النظريات الاجتماعية والإنسانية التي بنيت عليها تلك العلوم على افتراضات عقلانية وضعها الفلاسفة والعلماء ، وهي افتراضات عرضة للخطأ والصواب ، والمنهج العقلاني هو أضعف مناهج البحث العلمي .

وقد بدأ اتصالنا الحديث بالغرب في عصر محمد علي باشا ، وكان محدد الغاية ، وهو تعلم فنون العلم الحديث ، والصناعات القائمة عليه ، وقد أرسل على رأس البعثة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ، لكي يكون مشرفًا على البعثة من الناحية الخلقية ، حتى لا يتأثر طلاب البعثة المصريين بالأخلاقيات التي تتنافر مع أخلاقياتنا ، وحتى يقيم فيهم الصلاة ، أما حركة التنوير الغربية التي تمخضت عنها الحضارة الغربية ، فلم يكن لدينا يومًا الأسباب التي دفعت الغرب إليها ، حتى نتبع حركة تنويره ، وحتى أن مفهوم التنوير الذي وضعه الغرب لحضارته ، يتنافى مع مفهوم التنوير في حضارتنا العربية الإسلامية ، فمفهوم التنوير لدينا مشتق من النور ، والنور هو الحق ، والحق واحد لا يتعدد ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

وكل من درس الحضارة الإسلامية والعربية ، سواء كان شرقيًا أو غربيًا ، لا يستطيع أن ينكر أنها قامت على ثوابت ، ومبادئ إنسانية رفيعة وهي الحرية والعدالة والمساواة والإخاء ، وهي الثوابت التي نقيم عليها التطور ، فكما ذكرنا من قبل أن التطور لا يقوم إلا على ثبات ، وهذه المبادئ هي نفس المبادئ التي قامت عليها الثورة الفرنسية ، وإن كانت قد أخذت بثلاثة مبادئ منها فقط وهي الحرية والمساواة والإخاء ، أما التطبيق فليس بذي شرط أن يكون بالديمقراطية ، هذه الكلمة المبهمة ، الدخيلة على العربية ، والتي لا يفهم معناها أغلب المصريين ، والتي أصبح المصدر يشترط في تطبيقها الحرية الجنسية ، وفق العولمة الحديثة أو النظام العالمي الجديد .

فيمكن تطبيق هذه المبادئ التي قام عليها الحكم العربي الإسلامي ، كما سبق من قبل وكما تم مع تطوير أدوات التطبيق لتناسب العصر ، وما جد من ظروف ومتغيرات .

## الشورى والديمقراطية

كثيرًا ما نسمع أحد عملاء الفكر الغربي والمروجين له ، أو أحد الجهلاء من يقول : أن الديموقراطية هي الشورى ، والحقيقة غير ذلك ، فكما بينا من قبل أن الديموقراطية هي مصطلح غربي نتاج الحضارة الغربية ، وهو يعني حكم الشعب ، وللشعب حق الاختيار المطلق ، فإذا أراد الشعب إباحة الخمر أو الزنا أو الشذوذ الجنسي أو الربا ، فله ما يختار ، وليس من حق أحد أن يعترض ، وهي كلمة تعيش في وجدان الغرب ، أما نحن فلا تحمل هذه الكلمة للغالبية العظمى معنى سوى ما يشبه الغمام ، وخاصة بالنسبة لرجل الشارع البسيط ، أما الشورى فهي كلمة عربية أصيلة ، وحينما يسمعها أي إنسان عربي ، فإنما تحتشد في ذاكرته معناها الذي يعيش في وجدانه ، ولها مرجعية في تاريخه ، ومعناها الشامل ، أنها تشاور في حدود أخلاقيات وقيم السماء ، التي لا يحق لأي مؤمن يؤمن بالله أو جماعة الخروج عليها ، فلا يحق في الشورى إباحة الخمر أو الزنا أو الشذوذ الجنسي أو الربا ، أو أي شيء حرمته تعاليم السماء ، التي هي واحدة في الأديان السماوية التي تلتقي جميعًا في مرجعية واحدة عند أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ومبدأ الشورى هو مبدأ أساسي في نظام الحكم العربي الإسلامي ، ولم يحدد المشرع شكل الهيئة القائمة على التنفيذ ووسائل اختيارها ، بل تركها لاختيار كل عصر بما يناسب حركة التجديد التي هي سمة أساسية من سمات العقيدة السماوية .

ولا يفوتنا أن نذكر أن السبب الرئيسي لقيام حركة التنوير في الغرب والثورة على الكنيسة ، حتى تم عزلها عن الحياة العامة ، وأصبحت مقصورة على الطقوس والعبادات ، هو اضطهادها

للعلم والعلماء ، وهذا لم يحدث في تاريخ الحكم العربي الإسلامي ، وإذا كانت قد وقعت بعض تجاوزات من الحكام عبر العصور ضد أحد العلماء ، فكانت تجاوزات حكام ، ولا تشين نظام الحكم ، إنما تشين فقط الحاكم الذي ارتكبها ، فبصفة عامة كان الحكام يشجعون العلم والعلماء ، وقد انتشرت معاهد العلم عبر العصور في كل البقاع التي شملها الحكم العربي الإسلامي ، إذن فالسبب الأساسي الذي دعى الغرب لثورته ضد الدين عندهم ورجاله ، ليس لدينا ولم يكن موجودًا لدينا في أي عصر من العصور ، وليس في الإسلام ما يسمى بالدول الدينية ، إنما هي دولة أخلاقيات وقيم السماء .

والحقيقة أن الديموقراطية التي هي حكم الشعب ، لم تتحقق يومًا في الغرب ، إنما هي دومًا حكم الساسة والحكام ، وحكم الحكومة الخفية من ورائهم والذين يصورون كل قرار يتخذونه بأنه قرار الشعب وإرادته ، وأكبر شاهد على ذلك في عصرنا ، هو ما حدث في الغزو الأمريكي للعراق والذي خرجت قبله شعوب أوروبا كلها تعلن عن رفضها . وخرج الشعب الأمريكي أيضًا يرفضه ، ومع ذلك كله ، فقد تم الغزو الأمريكي للعراق باسم الديموقراطية ، وتم تدمير حضارة بابل وآشور ، وبات جليًا أن النظام العالمي الجديد يسعى لتدمير حضارة الإنسان ، وكما قال جان جاك روسو ، وهو أحد فلاسفة الثورة الفرنسية : لم توجد الديموقراطية ولن توجد ، أما الشورى فقد كانت ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أنها قامت واستمرت قرونًا طويلة .

وتستمر التغذية الأمريكية لمنظمات المجتمع المدني في مصر ، والهبات والمعونات ببذخ وسخاء ، من أجل نشر الديموقراطية ، وعما قريب سوف يبكي الأمريكان على أموالهم التي راحت هباء منثورًا ، فلن تكون في مصر ديموقراطية غير ديموقراطية الأستاذ الدكتور أحمد فتحي سرور رئيس البرلمان الديموقراطي المصري السابق ، والذي قرطس البرلمانات الديموقراطية في العالم كله ، وانتخب رئيسًا لها . موافقة .

**التجربة المصرية :**

كثيرًا ما نسمع أحد الحكماء يقول : نأخذ بالتجربة التركية ، نأخذ بالدستور الفرنسي ، والثالث يقول : لا يناسبنا إلا الدستور الألماني ، ومع احترامنا لكل التجارب التي مرت بها الشعوب ، وما أتت من دساتير ، إلا أننا مصريون ، ولسنا أتراك أو ألمان أو فرنسيون ، إنما نحن شعب له خصائصه وصفاته ، وله حضارته العريقة الممتدة في أعماق التاريخ . ولسنا شعبًا حديث العهد ، كما أننا لسنا فئران تجارب ، حتى تجرى علينا التجارب ، كما أن تجارب

الآخرين التي يتحدث عنها الحكماء ، لم تستقر إلا بعد عدة مراحل ، وعلى سبيل المثال فقد قامت التجربة التركية على الإلحاد ، ومرت بعدة مراحل حتى استقرت أخيرًا عند الاتزان أو الاعتدال ، وأخذت في تصحيح وإقامة ما هدمه الإلحاد ، فمن أي مرحلة من مراحلها يقصد ذلك الحكيم علينا أن نبدأ ، إذ أخذنا بالتجربة التركية ، ثم لماذا هذا الإنكار لذاتيتنا المصرية ، ولنا تجربتنا المصرية المتمثلة في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، بكل إيجابيتها وسلبياتها ، وكانت ثورة رائدة في عصرها ، وقد كان لها تأثيرها في المنطقة العربية كلها ، وفي القارة الإفريقية ، ولولا أنها كانت ثورة قوية وكبيرة في المنطقة لما تعرضت للصراعات والحروب التي خاضتها والمؤامرات التي كانت تدبر ضدها كل يوم في الداخل وفي الخارج من أجل إسقاط الثورة المصرية ، والقضاء على حركة التحرير التي أشعلتها الثورة في المنطقة العربية وفي أفريقيا بأثرها .

وكان أمرًا طبيعيًا أن تتعرض الثورة للترهل والانتكاسة ، وإذا كانت الثورة قد مرت بانتكاسة كبرى خلال الثلاثة عقود الماضية ونكوص عن مبادئها فهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن القوى المعادية للثورة لم تستطع أن تقضي عليها في ظل رجالها الأقوياء المخلصين الذين قادوا الثورة ، وهي في قمة نضالها ، ومواجهتها لأعداء مصر والعروبة ، وأعداء الإنسانية ، وانتهزوا رحيل الرجلين القويين جمال عبد الناصر والسادات رحمهما الله ، وانقضوا على مصر وعلى ثورتها ، وأرادوا أن يمزقوها ويحولها إلى أشلاء عن طريق أعوانهم من الخونة والذين لا خلاق لهم .

لقد خاض بنا عبد الناصر طريقًا صعبًا ، ولكنه طريق الحق ، فمتى كان طريق الحق سهلًا ميسورًا ؟!

فصعب العلا في الصعب ، والسهل في السهل ، فقد أراد بعث الأمة العربية من رقادها ، وبعث القومية العربية في مواجهة قوى الاستعمار والإمبريالية العالمية وأعداء الأمة العربية الذين يخشون بأس وحدة العرب وبعث حضارتهم من جديد ، وقد رتبوا وخططوا للقضاء على الهوية العربية ، وذوبان العرب في الحضارة الغربية الحديثة ، ومحو الشخصية العربية ، ولم يكن عبد الناصر بالرجل السهل بل كان صعبًا وقويًا وعنيدًا ، واستطاع بحق أن يوقظ العروبة كلها ، وأن تأخذ مصر دورها الريادي والقدري في الأمة العربية ، وفي إفريقيا ، وأن تتبوأ مكانتها في العالم ، وكان أمرًا طبيعيًا أن يقع في أخطاء ، فلم يكن عبد الناصر سوى بشرًا يخطئ ويصيب ، ولم يكن السادات من بعده أيضًا سوى بشرًا يخطئ ويصيب ، ولا يمكن لنا التنكر لثورة ٢٣ يوليو ودورها وآثارها في حياتنا المعاصرة ، وفي المنطقة العربية بأثرها ، وفي

القارة الإفريقية ، فالتنكر للثورة الأم ، هو إنكار لذاتنا المصرية ، فقد كان طريق الثورة طريقًا صعبًا ، وكانت انتكاسة الثورة في العقود الثلاثة الماضية انتكاسة صعبة ، بقدر صعوبة الطريق الذي خاضته الثورة الأم .

وقد رفعت ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ مبادئ صعبة المنال ، وهي الحرية والعدالة والمساواة ، وهي أسمى مبادئ يمكن أن يعيش في ظلها الإنسان ، وكانت نابعة من الوجدان المصري ، ولم تكن غامضة على أحد ، وها هي ثورة ٢٥ يناير قد قامت لترفع نفس المبادئ التي رفعت شعارها ثورة ٢٣ يوليو ، وسرعان ما التف الجيش حولها ليؤازرها ويحميها ، فصارت ثورة شعب وجيش كما كانت الثورة الأم ، وقد فرضت ثورة ٢٥ يناير المبدأ العزيز الذي لم تستطع ثورة ٢٣ يوليو تحقيقه وهو مبدأ الحرية ، وقدمت من دماء شباب مصر الغالي وأرواحهم ثمنًا لحرية المصري ، وحققت ما عز على ثورة ٢٣ يوليو تحقيقه ، وتستمر مسيرة مصر الثورة في تصحيح ما وقعت فيه الثورة الأم ، والتي كان من أهدافها التي أعلنت عنها حين قيامها ، إقامة حياة نيابية سليمة ، ولم تقل حياة ديموقراطية ، فقد كانت صادقة في هدفها معبرة عن إرادة الشعب ، وإن لم تستطع أن تحقق هذا الهدف ، والحياة النيابية السليمة ، هي التي تعبر بصدق عن إرادة الشعب ، وتقوم على احترام أخلاقياته وقيمه وموروثه الحضاري ، وهكذا يجب أن يكون التغيير الثوري الشامل نحو الأصلح نابعًا من ذاتيتنا المصرية ، ويكون التطور قائمًا على جذور ثابتة في وجداننا وفي تاريخنا .

**وزارة للتربية الوطنية :**

وينطلق التغيير والتصحيح من ذاتيتنا ، فنصحح ما وقعت فيه ثورة يوليو من أخطاء ، ونُقيم ما غاب عنها أن تقيمه في خضم الأحداث والصراعات والحروب التي خاضتها الثورة ، فنقيم وزارة للتربية الوطنية تربي النشئ على مبادئ الثورة ، وتبث فيهم روحها ، فتنشأ أجيال ثورية تلو أجيال ، وتستمر مسيرة الثورة ، وتستمر مسيرة النضال المتواصل للشعب العربي في مصر ، أجيال تحمي ثورتها من أي انتكاسة أخرى قد تتعرض لها المسيرة الثورية عبر الزمن ، وزارة للتربية الوطنية تقوم وفق منهاج علمي وتربوي مدروس متكامل ، وزارة للتربية الوطنية تكون مسئولة مسئولية تامة عن تنشئة الأجيال وتربيتها تربية ثورية وطنية ، ولقد أنجبت مصر من أبنائها المفكرين الثوريين ما يكفل لها أن تضع منهاجًا علميًا تربويًا ثوريًا ، نريد أجيالًا أصلب منا إرادة ، وأقوى منا عزيمة ، وأسمى منا خلقًا وفكرًا وعقيدة .

نريد أجيالًا لا تعرف الكذب والغش ، تقنع بالحلال ، وترفض الرشوة والاختلاس ، تذوب أنانيتهم جميعًا في ذات مصر ، ليس بينهم لصًا أو متسولًا ، كلهم متوفر له العيش

الحر الكريم ، كلهم يحترم واجباته ، بل يقدسها ويعرف حقوقه ، ولا يتهاون فيها ، وزارة للتربية الوطنية تكون وقفًا على شباب التحرير الذين فجروا ثورة ٢٥ يناير التي رفعت رأس المصري ، وألا يزيد سن وزيرها عن أربعين سنة ، وهؤلاء الشباب هم أحق الناس في المجتمع بريادة وتصدر المسيرة الثورية ما بقي ميدان التحرير المجلس الأعلى للثورة ، وصاحب القرار الشعبي الأعلى في مصر .

وزارة للتربية الوطنية تتعهد النشء والشباب في المدرسة والحقل والمصنع بالتربية على احترام أخلاقيات وقيم المجتمع وموروثه الحضاري ، وتقديس مقدساتنا والحفاظ عليها وعلى حضارتنا ، والتعرف على آثار مصر الحضارة من النوبة حتى الإسكندرية ، ومن السلوم حتى رفح ، فمصر هي الحضارة ، حقيقة ، وليست دولة أوهام وأحلام ، ولنعيد النظر في المنظومة الفكرية التي نعيش بها ، ونضبط الحركة الحياتية للمجتمع ، فننقيها مما أصابها من لوثة وهوس نتيجة احتلال دام سبعين سنة ، وبرغم من جلائه ، فما زالت آثاره باقية في فكرنا تتوارثها الأجيال ، ونتيجة الغزو الفكري الذي تتعرض له المنطقة العربية منذ قرنين من الزمان ، حتى كدنا أن نفقد شخصيتنا بين الأمم ، فليس كل ما أتى به الغرب صحيحًا وواجبًا إتباعه ، فما نراه صحيحًا فلنأخذه ونشكرهم عليه ، وأما ما يتعارض مع حضارتنا وأخلاقياتنا وقيمنا الاجتماعية ، فلنرفضه بحزم وصرامة .

ومما يساعد على تنقية المنظومة الفكرية التي نعيش بها ، الأخذ في الاعتبار دور التنظيمات السرية العالمية ، وتأثيرها على السياسة الدولية ، وعلى اتجاهات الفكر الإنساني بصفة عامة ، مع كل اختلافاته وتنوعه . وعلى رأس تلك التنظيمات السرية العالمية ، التنظيم الماسوني العالمي . ولا يظن أحد أن الماسونية العالمية تنفصل عن الصهيونية العالمية ، وإنما هي في خدمة الصهيونية العالمية ، وهي أقدم تاريخيًا في نشئتها عن الصهيونية ، وهي في الحقيقة أساس الصهيونية العالمية ، ومنها نشأت . وإذا كان العرب هم الأمة الوحيدة في العالم الذين رفضوا فكرهم ، ورفضوا إقامة محفلًا ما سوني في أي بلد عربي عبر التاريخ ، فإن لهم اليوم ستة آلاف محفلًا منتشرين في سائر أنحاء العالم ، تخضع جميعها للمحفل الماسوني الأعظم بانجلترا ، وهذا لا يمنع أيضًا من وجود جماعات ما سونية سرية منتشرة في الوطن العربي ، تعمل بمثابة حكومة خفية في كل دولة وتتلقى الأوامر والتعليمات من الحكومة الخفية العالمية .

وفي عجالة عن نشأة الماسونية العالمية وفكرها ، وأهدافها وأساليبها ، وحكومتها الخفية العالمية ، ولا نعتقد أنها سوف ترضي نهم القارئ الكريم المهتم بشئون وطنه ومستقبله ومصيره !

فتعتبر الماسونية العالمية أقدم منظمة سرية يهودية ، فقد أسسها اليهود في سنة ٤٣م بانجلترا وأطلقوا عليها (القوة الخفية) . وقد هاجمت المسيح عليه السلام منذ قيامها . وادعت أنه ليس المسيح المنتظر اليهودي الذي يحتفظ اليهود بعلامات لمجيئه وردت في التوراة كما يدعون .

وعملت الماسونية على هدم المسيحية في أوروبا ، أو ساهمت بدور كبير وخاصة في عصر الاستنارة الغربي عن طريق نشر أفكار أشبه بالدين الطبيعي الذي يحاول أن يصل إلى فكر الألوهية والخلود من خلال التأمل الفردي دونما حاجة إلى وحي إلهي أو رسول أو كتب مقدسة ، وكان ذلك هو حلم مفكري عصر الاستنارة الغربي أمثال فولتيرورسو . وفي هذا الدين الطبيعي يدعون إلى الإباحية الجنسية ، وأنه من الظلم للمرأة أن ندعو الإله بصيغة المذكر ، فعلينا أن ندعوه أيضًا بصيغة المؤنث . وفي هذا الدين الطبيعي يدعون إلى كثير من الأفكار الشيطانية الغريبة . وقد اعترفت اليهودية صراحة بصبغ الماسونية بالروح اليهودية .

ورأى اليهود أن يجعلوا مركز الماسونية الأعلى في الولايات المتحدة الأمريكية فسيطرت على سياستها الداخلية والخارجية ، وصار رؤساء الولايات المتحدة وأكبر رجالات السياسة والحرب خاضعين لنفوذ الماسونيين ، ومن سولت له نفسه أن يشذ فمصيره تشويه السمعة أو القتل . وهذا الأسلوب الخفي في الحكم والقوة الخفية ، لا يتبعونه في الولايات المتحدة الامريكية وحدها ، إنما يحاولون أن يتبعونه في كل دول العالم .

## إرهاصات الثورة

برغم من ابتعادي عن السياسة زمنًا طويلًا لخلوها من الشرف ، وربما كانت تمر عليَّ الشهور دون أن أقرأ صحيفة ، أو أشاهد تليفزيون ، لفقدان الثقة في أجهزة الإعلام منذ أمد بعيد ، إلا أنه كان يعتمل داخلي صراعات ، كنت أوجهها دومًا للبحث عن الحقيقة ، فتارة أنظر داخلي أبحث عنها ، وتارة أخرى أنطلق بفكري إلى عالم محدود ، فيشدني إلى عالم كبير ، ثم أنطلق إلى اللامحدود ، فأحير ، وتزداد حيرتي ، فأعود إلى نفسي وأنظر في اعوجاجها .

وازداد اهتمام الناس في السنوات الأخيرة بالسياسة ، وكثر الحديث فيها لما آلت إليه أحوال البلاد والعباد من فساد وظلم واستبداد ، وطغيان ، وانتشرت واشتدت الروائح الكريهة لنظام الحكم ، وكنت كثيرًا ما أضطر لمشاركة الناس في أحاديثهم ، واهتماماتهم ، وحقيقة فلم يكن يشغلني نظام الحكم ، فهو زائل وساقط ، وإلى نهاية لا محالة ، إنما الذي كان يشغلني دومًا هو الإنسان المصري ، وثوابتنا الحضارية الموروثة التي كاد أن يقضي عليها ، والشخصية المصرية التي كادت أن تفقد ملامحها بين أفكار مستوردة ، وسلوكيات متضاربة ، وقد كثر في الآونة الأخيرة الكلام عن مفهوم المواطنة ، والوطنية ، والتي أصبح أمرها لا يزيد في أغلب الأحيان عن التباري بكلام طيب في حب الوطن ، والحديث عما فعلته الدول المتقدمة ، والتي يجب الاقتداء بها ، وكثيرًا ما نجد من يجلس بين الكتب ممن يسمون بالمثقفين ، وربما يكون صحفيًّا أو شاعرًا ، أو إعلاميًّا بارعًا في حواره السياسي ، وحديثه عن الشرف ، ويتطرق الحديث إلى عبد الناصر أو السادات ، رحمهما الله ، فيتطاول على أحد الرجلين أو كلاهما بالسب ، وهذا ما يغضبني جدًا ، وخاصة بعد رحيل الرجلين ، ولو كان تناوله نقدًا نزيهًا ، والتزم في حديثه بالأدب ، لما كان في ذلك ضير ، فما كان كلاهما إلا بشرًا يخطئ ويصيب ، والحقيقة التي لا مراء فيها أنهم كانوا رجالًا ، ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال ، ولو بحثت عن حقيقة ذلك المثقف الذي يكثر الكلام عن الشرف ، لوجدته كذابًا وغشاشًا ونصابًا ، أو سكيرًا وزير نساء ، وعلى كل فالسكير كذاب وغشاش ، ولا يؤتمن كما جاء بالتوراة ، فكتبت

هذه القصة في شهر نوفمبر ٢٠١٠ ، أي قبل قيام ثورة ٢٥ يناير بحوالي شهرين ، ثم أعدت كتابتها وتنقيحها ، وتصحيح ما جاء بها من أخطاء .

# هُلاميــة

نزلت من مترو الأنفاق ظهر يوم في محطة التحرير أو السادات ، وصعدت السلم الغربي ، أي في جهة فندق هيلتون النيل والجامعة العربية ، ومن عادتي بمجرد أن أصعد السلم وأرتقي السطح أشعل سيجارة على الفور ، وأقف هنيهة أنفث دخانها في الهواء الطلق ، وأجيل النظر حولي في معالم هذا الميدان الحبيب ، وأتأمل ما جد عليه من عمل الإنسان وما طرأ من فعل الزمن ، وربما تطول الوقفة مع استرجاع شريط الذكريات ، وعلى أي حال ، لا أبدأ المسير ، وأتجه إلى حيث أقصد إلا بعد أن آتي على أنفاس سيجارتي حتى آخرها ، ولكن هذه المرة ، وقبل أن تتحرك يدي إلى علبة سجائري ، شد انتباهي صوت جلبة وضوضاء شديدة ، وخلقًا كثيرًا يجرون ويسرعون نحو المتحف العتيق الذي ازدحم الناس أمامه حتى حجبوه عن الأبصار ، فنسيت سيجارتي ، وعلى الفور ، وبلا تفكير ، وجدتني أسرع الخطا مع المسرعين نحو المتحف المصري ، ويبدو أن البعض قد استطلع الخبر ، ولعجالة من أمره ، أو لأمر ما ، قد عاد القهقرى ، وانصرف إلى حال سبيله ، وطرق سمعي بعض تعليقات وكلمات صدرت ممن رأوا ذلك المشهد وأعطوه ظهورهم ، وانصرفوا إلى مشاغلهم ، فهذا شاب يضحك وهو يسير بمفرده ، وينظر إلى من حوله ، وبصوت مسموع يخاطبهم معلقًا على ما رأى : حتى الأموات ضجوا وفاض بهم ، وذاك شيخ قد أخذ يهمهم إلى رفيقه : ده كل واحد فيهم لابس كفنه ، بس الكفن جديد ، لا ، الناس دول لسه ما مامتوش ، بينما كان يداعب حبات سبحته ، وهو يردد : الطف بنا يا رب ، وكان يسير وراءهم عجوز آخر ، وكأنه قد سمع حوارهم ، فأخذ يقلب كفيه ، وهو يقول : إحنا عارفين إذا كنا عايشين ولا ميتين .

وكلما اقتربت من الزحام ، كان يزداد اكتظاظًا ، وتزداد حلقاته ، وقد حاولت كثيرًا ألا أرتطم بأحد ، أو يخبطني أحد ، ولكن دون جدوى ، فكلما اقتربت من الزحام ، كان يزداد التدافع ويعلو الضجيج ، وظللت أكافح وأعاني حتى دخلت الحومة ، واتجهت ببصري إلى حيث تتجه أبصار الناس ، فأبصرت عن بعد لافتة كبيرة خضراء قد كتب عليها باللون الأبيض عبارة بالعربية ، وترجمتها بالإنجليزية أسفل منها ، بخط كبير تقول : لا ... الحرية ، ولو بالدم ، وما أن قرأت هذه العبارة حتى أحسست بشيء يدفعني إلى الأمام ، فأخذت أقترب

من بوابة المتحف برغم التدافع وشدة الزحام ، التي كانت في تزايد مستمر ، حتى ظهرت أخيرًا بوابة المتحف ، وقد وقف أمامها رجل عجوز يبدو من مظهره أنه قد ناهز الثمانين ، وقد ارتدى كفنًا ، واحتفظ بنظارة طبية على عينيه ، وقد أمسك بيمناه عمادًا ارتكز على الأرض ، وارتفع عليه علم مصر الأخضر القديم ذي الهلال والثلاثة نجوم ، والذي أخذ يرفرف في الهواء ، ووقف الرجل ، برغم سنه ، زنهارًا ، ورفع رأسه في عزة وشمم ، وقد ارتدى كفنه ، وتدلت من كتفه الأيسر بندقية خشبية ، يبدو من مظهرها أنها صناعة مصرية وكان الرجل نحيفًا للغاية ، حتى بدا وكأنه هيكل عظمي خالي من الشحم واللحم ، وهو في نحافته ، ونحولة جسمه أشبه بزعيم الهند العظيم المهاتما غاندي ، وقد وقف خلفه اثنان من الرجال في مثل سنه تقريبًا ، وقد ارتدى أحدهما كفنًا ، وقد أمسك بيمناه قائم اللافتة الخضراء ، وتدلت من كتفه الأيسر أيضًا بندقية خشبية .

وقد وقف مشدود القوام مرفوع الهامة ، وقد اختفى سنه ، وبدا في فتوة وشباب ، وكأنه في تحد مع الزمن ، وأما القائم الآخر للافتة الخضراء ، فقد أمسك به رجل يبدو أنه في مثل عمر رفيقيه ، يرتدي بدلة جديدة لونها كحلي ، ويبدو من زهوتها أنه يرتديها لأول مرة ، وقد ربط عنقه بكرافتة سوداء تدلت فوق قميص أبيض ، وزان صدره صليب أبيض من سعف النخيل الأخضر ، وأمسك قائم اللافتة بيسراه وضمه إلى قلبه ، وبدا مبتسمًا ، رافعًا الرأس ، يعلو وجهه البشر والحبور ، وكأنه في يوم عرسه ، وبدا ثلاثتهم وكأنهم عمالقة ، حتى اضطررت أن أرفع رأسي حتى أراهم .

وبمجرد أن وقع بصري على هذا الشعار الذي رفعته اللافتة الخضراء : الحرية ولو بالدم ، أحسست بشيء محبوس في صدري يريد أن يخرج وينطلق ، وأخذت أشعر به وهو يتحرك إلى أعلى ، وحاولت أن أكتمه ، حتى اغرورقت عيناي بالدموع ، وشعرت بالتهاب وجهي ، ويبدو أن هذا لم يكن شعوري وحدي ، فبدون ترتيب أو اتفاق أو إشعار ، انطلقت من الحناجر كلها صيحة واحدة تنادي : الحرية ولو بالدم ، وأخذت تتكرر ، وكلما تكررت ازددت نشوة وسعادة ، وأخذت الصيحة تعلو ، وتزداد قوة وحماسًا ، واستمر الناس في التزايد حتى امتلأ الميدان عن آخره ، وضاق بالناس وكأن مصر قد خرجت عن بكرة أبيها ، وتجمعت في ميدان التحرير تنادي : الحرية ولو بالدم ، وقد شق صوتها صدر الفضاء ، وأخذ يعلو ويرتفع حتى عانق عنان السماء .

وبرغم أني كنت متخفيًا في لحية وجلباب قصير ارتديت أسفله لباسًا أبيضًا قصيرًا لا يصل إلى الكعبين ، وأضع عمامة فوق رأسي ، إلا أنني خشيت أن يتعرف عليَّ أحد ، فصراحة إني أعرف الثلاثة الذين هم في الأكفان ، ولم تدم خشيتي طويلًا ، فبمجرد ما علا نداء مصر : الحرية ولو بالدم ، أعطيت ظهري للأموات ، ونسيت ذاتي ، فقد ذبت في الكل ، ولم أعد أخشى شيئًا ، واستمر نداء مصر إنس وجن وملائكة وشجر وطير ، وجماد أيضًا ينادي : الحرية ولو بالدم .

وفجأة ، انتشر بين الناس كلاب سوداء ، كأنهم شياطين ، يمسكون في أيديهم هراوة وبنادق ، ومصدات من حديد يحتمون وراءها ، وأخذوا ينفثون غازات خانقة ، انتشرت في الأجواء ، فسالت الدموع ، والتهبت الأنوف ، واختنقت الصدور ، وأخذ الناس يجرون ويرتطمون ببعض ، وكأنه يوم الهول العظيم ، ولكن صيحة الحرية لم تتوقف ، بل تحولت إلى زئير تهتز له أعتى عروش الطغيان وتميد ، وثارت ثائرة الجبناء فأطلقوا الرصاص ، وارتوت أرض التحرير بدماء الشهداء ، وظن الأغبياء أن الأسد سوف يخور ، ولكن هيهات هيهات ، فأسد التاريخ لا يخور ، بل ازداد زئير الشعب المصري ، وازدادت قوته وحدته ، وكلما سقط شهيد ، أنبتت الأرض الطيبة عشرًا ، وهبطت ملائكة الحرية إلى أرض التحرير ، وحملت فوق أجنحتها أرواح الشهداء ، وصعدت إلى السماء ، إلى أعلى عليين ، حيث مستقر الشهداء ، وسقطت لحيتي ولم أبالي ، وضاعت عمامتي وسط هذا الخضم ، ولم أهتم ، فلم أعد أخشى شيئًا فلم يعد بي حاجة للتخفي ، وخشيت على سبحتي فوضعتها في جلبابي .

ولا أخفي أنني كنت في زيارة منذ حوالي شهر لكبير أولئك الثلاثة الذين ارتدوا الأكفان ، ذلك الرجل العجوز الذي وقف في المقدمة أمام المتحف المصري ، كالطود العتيد ممسكًا بعلم مصر الأخضر ذي الهلال والثلاثة نجوم .

فهو صديق عجوز ، وكم وقع بيننا من خلافات ومشادات عبر السنين حول السياسة والوطنية ، وهي خلافات جوهرية ، ولا يمكن التهاون فيها ، فهو يرى كما ترى الأغلبية أن الوطنية لا تزيد عن قراءة الصحف ومتابعة الأخبار عبر التلفزيون أو غيره ، وتبادل الأخبار والتعليق عليها ، وسب الحكام كلما تيسر سواء كانوا أحياء أو أمواتًا ، وتذكر أيام زمان ، وبكاء الأطلال ، ونحيب العواجز ، وعويل الثكلى ، أو التصعب مع مصمصة الشفتين ، وترديد قول : يا حبيبتي يا مصر ، وكل تأخذه العصبية لرأيه ، ولا يزيد الأمر عن هذا الذي يتم في الحجرات المغلقة ، وكأنه مجرد أمر للتسلية ، كما هو الحال بين الكروبين ، أو المهتمين

بالشئون الكروية ، ومنتهى الوطنية ، أن يستلقي أحدهم على قفاه إلى المخدة فوق السرير ، ويكتب كلمتين في حب مصر ، وحينما يأتي إليه أحد أصحابه يقرأها له ، وينتهي الأمر ، ولكني هذه المرة قد نجحت في إقناعه أنه رغم سنه وحالته الصحية ، إلا أنه يستطيع هو وأقرانه من العواجيز أن يفعلوا الكثير ، وما لم يستطع الشباب أن يفعلوه .

وصراحة ، لا أتذكر بالضبط متى وقعت هذه الواقعة ، والتي اشتهرت في التاريخ بثورة الأموات ، ولكني أتذكر جيدًا أني أخط هذه السطور من أكبر دار عالمية للأمراض العقلية والنفسية والعصبية والهُلامية من القاهرة .

# خاتمـــة

ونعود فنذكر ما كررناه مرارًا في كتابنا هذا ، فإذا كنا نريد التغيير الثوري الشامل ، والإصلاح والتصحيح ، فلابد أن نواجه أنفسنا بالحقائق ، مهما كانت مرارتها ، وأن نصحح الأخطاء ، ونقوم الاعوجاج ، ونقضي على السلبيات حتى تستقيم مسيرة الثورة ، ويستمر الإصلاح ، فما تم من تخريب للحياة برمتها على أرض مصر ، ما كان ليتم إلا من خلال تخريب للإنسان المصري ذاته ، إلا من شاء الله أن ينجوا من هذا الإفساد ، وقليل ما هم ، ولا يخفي على أحد أن الفساد لم يكن محصورًا في عدد من الرؤوس الكبيرة الذين تم القبض عليهم ، وإحالتهم للمحاكم ، إنما لابد أن نضع في اعتبارنا أن كل رأس من تلك الرؤوس الكبيرة كان يحيط به دائرة من الرؤوس الأصغر منه أصابها ، الفساد أيضًا وحتى تستطيع أن تتعاون معه ، وتعينه على الفساد وقد أحاط بكل رأس فاسدة أيضًا من دائرة الفساد من الدرجة الثانية ، حلقة من المفسدين من الدرجة الثالثة ، وهكذا ، حتى عم الفساد كل مؤسسات الدولة ، وحتى عم المجتمع بأثره ، وأصاب الإنسان المصري في ذاته ، وانتشر الكذب والغش في المجتمع بصورة وبائية ، حتى لو أراد منصف أن يصف مجتمعنا الحبيب خلال الثلاثة عقود الماضية ، لما وصفه بغير سمته العامة التي انتهى إليها بأنه مجتمع الكذب والغش ، ولا تقوم نهضة وتقدم على قدمي الكذب والغش ، بل هذه الرذائل إذا انتشرت في مجتمع ناهض ، فهي كفيلة أن تقضي على نهضته ، ولا نعرف حضارة قامت في التاريخ على قدمي الكذب والغش .

وعلى سبيل المثال ، فكثيرًا ما نسمع تعبير العملية التعليمية ، والحقيقة أن هذه العملية ليست لدينا ، إنما لدينا هو عملية كذب وغش ، فأول ما يتعلمه التلميذ في مدارسنا هو الكذب وفنون الغش في الامتحانات ، وأحدث وسائله وتقنياته ، وما الغش إلا تطبيق للكذب ، وقد تربت أجيال تلو أجيال على الكذب والغش ، وتخرجوا ، وأصبحوا قيادات في الأمة في كل مناحي الحياة ، ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر أن من بين تلك الأجيال من نجا ، وتمسك بكل عرى الشرف ، إلا أن سُنة المجتمع التي أصبحت سُنة الكذب والغش والمداهنة والنفاق كانت تحرم الأشراف من الظهور ، ومن هنا فإن الثورة تجد نفسها أمام إشكالية كبيرة ، إذا أرادت أن تربي أجيالًا تقوم على حراسة الثورة ومبادئها والمكاسب الشعبية التي حققتها .

ولا شك أن الدستور مطلب غالي وعزيز ، إلا أن الأغلى والأعز هو الإنسان الذي سوف يحمل الدستور ويحميه ، ويحترمه ، ويرعى تطبيقه ، وكيف يتأتى ذلك لإنسان قد صار لا يحترم أقدس مقدساته ، وأكبر شاهد على ذلك ما يحدث في الجامعات ، وخاصة في جامعة الأزهر ، والتي انتشرت فيها ظاهرة تدنيس القرآن الكريم ، والذي صار التعامل معه مثل أي مادة علمية يقومون بتأدية الامتحانات التحريرية فيها ، مستعينين بالبرشام ، فيمزقون أوراق المصاحف الصغيرة ، ويجعلونها برشامًا يضعونه في أيديهم ، ثم يلقونه تحت أحذيتهم بعد انتهاء الحاجة إليه ، أو حينما يخشون المراقب ، وهو أمر قد انتشر بين طلاب جامعة الأزهر التي أقامتها المؤسسة الدينية وتشرف عليها ، وقد بدأت هذه الظاهرة – أي ظاهرة غش القرآن أثناء الامتحانات التحريرية – بالغش من المصاحف الصغيرة ، ثم أقلعوا عنها بعدما وصل أمر الغش إلى الانحطاط الذي قدمناه .

إلا أن هذه الطريقة البدائية في الغش لم تنته ، فقد تلقفها عنهم طلبة المعاهد الأزهرية التي يتخرج منها الدعاة والوعاظ ، الذين يعتلون المنابر لكي يوعظوا الناس ، ويعلموهم بدينهم ، ويرددون حديث رسول الله ﷺ : «**من غشنا فليس منا**» ، وهنا تواجهنا حقيقة لا مراء فيها ، فمن لا يحترم مقدساته ، ويحافظ عليها ويقدسها ، فكيف يحترم مقدسات الآخرين ؟! ومن يخشى الاعتداء على مقدساته ، لابد أن يحترم مقدسات الآخرين ، ولا يعتدي عليها ، فالمسجد والكنيسة هما مصدر أخلاقيات السماء وقيمها السماوية ، وهما رباط مجتمعنا الوثيق ، وكيف لمثل هذا الإنسان أن يحترم دستورًا من صنع بشر ويحميه ويحافظ عليه ، وهو لم يعد يقدس مقدساته ؟!

وبرغم ما قدمنا ، فإن مصر لا تعرف اليأس ، وكم مرت بها من محن وخطوب خلال مسيرتها الحضارية عبر آلاف السنين ، وكم من انتكاسات قد ألمت بها عبر مشوارها الحضاري ، وتخطتها ، وقامت لتعدو ، ولتثب من جديد ، وها هو الجيل الثاني من أجيال ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ ، قد جاء في موعده مع القدر ، ليقضي على الانتكاسة الكبرى التي ألمت بالثورة بعد رحيل الجيل الأول باستشهاد الرئيس السادات ، والتي استمرت ثلاثة عقود من الزمن ، كادت مصر خلالها أن تفقد شخصيتها بين الأمم ، وكاد المصري أن يفقد هويته ، فقد جاء الجيل الثاني من أجيال ثورة يوليو ليعلن عن بدء مرحلة جديدة من مراحل النضال المتواصل للشعب العربي في مصر ، مرحلة تغيير شامل لمنظومة الفكر والتطبيق للإنسان المصري ، وتنقيتها ، والعودة الحقيقية إلى الشخصية المصرية ، صانعة التاريخ .

وما أجمل الورود التي تنمو في الأوحال ، فقد أفرزت الأوحال التي عاشتها مصر خلال الثلاثة عقود الماضية خيرة من شبابها ورجالها ، سوف تفخر بهم على مر الزمن ، فدولة لها جيش مثل جيش مصر الذي وقف من الثورة ، موقف الحارس الأمين الحكيم ، لا تحزن ولا تيأس .

وبين أوحال الصحافة والإعلام والفكر والأدب الذي انتشر في مصر خلال الخمسة عقود الماضية ، والتي أسهمت بالدور الأكبر في نشر الكذب والغش والقضاء على الأخلاقيات وقيم المجتمع الرفيعة وموروثه الحضاري ، كانت تنمو الورود في تلك الأوحال من آنٍ لآخر ، فقد قامت مدرسة كبرى في مصر للصحافة أقامها أحد شيوخها الكبار المشهورين على الكذب ، وقد سئل شيخ الصحافيين ذلك ذات مرة عن تعريف للصحافة في أحد المؤتمرات ، فقال : هي فن الكذب الرفيع ، وقد تخرجت أجيال وأجيال من مدرسة صحافة الكذب ، وعملوا جاهدين على نشر الكذب والغش ، ومع ذلك ، فقد كان يخرج عن هذه المدرسة صحافيون أحرار يرفضون هذه المدرسة ، وقد أقاموا مدرسة للصدق والشجاعة والحرية ، وقد أخذ ذلك يظهر بوضوح قبل ثورة ٢٥ يناير ، وقد ساعد هؤلاء الأحرار ، وساهموا في الصحوة التي سبقت الثورة ، وقد دفع الكثيرون منهم ضريبة الشجاعة والحرية والصدق في المعتقلات والسجون ، وحوربوا في أرزاقهم ، وما زادتهم الخطوب إلا صلابة وإصرارًا .

## دستور أخلاقيات المجتمع :

لا شك أن الدستور التقليدي ، أو المتعارف عليه ، والذي ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، وطريقة اختيار الحاكم وحدود اختصاصاته ومسؤولياته ، وحدود اختصاصات مؤسسات الدولة المختلفة ، هو مطلب غالي وعزيز إلا أن قيمته وفاعليته تتوقف على الإنسان الذي يحمله ويفعله ، ومهما كان أمره وأهميته ، فلا قيمة له إلا إذا حمله من يحترمه ، ويصونه ويحميه ، أما وقد صار الإنسان لا يحترم مقدساته ، فكيف يحترم الدستور ؟!

إذن فأمر الدستور المتعارف عليه في حاجة لدستور أخلاقي للإنسان الذي سوف يتعهد الدستور ، وكما أن الدستور التقليدي هو عقد بين الحاكم والمحكوم ، فإن الدستور الأخلاقي هو عقد بين المواطن والوطن ، أو بين الإنسان والمجتمع ، والذي يتمخض عنه مبدأ المواطنة ، والتي هي حق لكل من يحمل الجنسية المصرية ويلتزم بدستور أخلاقيات المجتمع .

وما كانت مصر إلا بالأخلاق والقيم الإنسانية الرفيعة ، والتاريخ خير شاهد ، فقد عاش أخوة الوطن في محبة وأخوة ، وسلام وأمان ، خلال ألف وأربعمائة عام ، هي عمر

فتح الإسلام مصر ، الذي حرر أهلها القبط من بطش واضطهاد وطغيان مسيحي أوروبا في عصر الدولة الرومانية المسيحية التي سامت قبط مصر شتى صنوف العذاب ، وحينما فتحت مصر عاش كل أبنائها في ظل دولة الحرية والعدالة والمساواة ، في أمن وسلام سواء منهم من أسلم ، أو من بقي على دينه ، وكم اختلطت الدماء الزكية لأبناء مصر دفاعًا عن الوطن ، وعزته وكرامته ، وما حرب العبور عنا ببعيد ، والتي اختلطت فيها دماء أبناء مصر ، وما كان أحد يستطيع أن يميز بين دم ودم ، وكان أحد أسباب تحطيم خط بارليف الرئيسية ، بل السبب الرئيسي في هذا العبور العظيم الذي يبقى مفخرة لمصر عبر الزمن ، هو اختراع أو تكتيك اللواء باقي زكي يوسف ، الذي تحدثنا عنه من قبل .

وأخيرًا ، فها هي حركة ٢٤ يناير الطلابية التي تفجرت بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ تلتقي بثورة ٢٥ يناير بعد أكثر من أربعين عام وتذوب فيها لتعلن عن حقيقة النضال المتواصل للشعب العربي في مصر ، ولتعلن عن استمرار مسيرة الثورة الأم التي قامت في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، والتي كانت ثورة جيش وشعب ، والتي هي الآن ثورة شعب وجيش ، لا ينفصلان .

ولتعلن عن القضاء على انتكاسة الثورة التي استمرت ثلاثة عقود ، وتكرر مصر نداءها للتذكرة ، وتعيد وتزيد :

وارفعوا دولتي على العلم والأخـ ـلاق فالعلم وحده ليس يجدي

# الفهرس


| الموضـــــوع | الصفحة |
|---|---|
| إهـداء | ٥ |
| مقدمة | ٧ |
| مقدمة الطبعة الممنوعة | ٩ |
| تمهيـــد | ١١ |
| **الفصل الأول : مقدمات الهزيمة** | ١٣ |
| في قاعة المحاضرات | ١٣ |
| أغاني وطنية وأناشيد حماسية | ١٦ |
| وجاء يوم العار | ١٩ |
| حول التنحي والعودة : | ٢١ |
| مع أشقاء من ليبيا : | ٢٢ |
| الليبيون والقاعدة الأمريكية : | ٢٤ |
| **الفصل الثاني :حركة ٢٤ يناير** | ٢٧ |
| أحداث بعد الهزيمة | ٢٩ |
| حقائق عن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ | ٣٠ |
| كبش الفداء ، ولغز الهزيمة | ٣٢ |
| مؤتمر القمة العربي بالخرطوم | ٣٤ |
| فكر الصفوة ومواجهة الهزيمة | ٣٦ |
| عودة إلى الدراسة | ٣٧ |

الموضـــــوع الصفحة

في يوم ٢٤ يناير ١٩٦٨ ........ ٣٩

المصيدة ........ ٤٢

نداء الحرية ........ ٤٤

مطالب حركة ٢٤ يناير وعبد الناصر ........ ٤٥

نتائج حركة ٢٤ يناير الطلابية ........ ٤٨

بعث الحركة الفكرية ........ ٥١

**الفصل الثالث : استمرارية حركة ٢٤ يناير** ........ ٥٥

نداء الحرية والعزة والكرامة ........ ٥٧

جماعة العلم الأخضر ........ ٦٤

ثورة في ليبيا ........ ٦٩

يوم الشهيد ........ ٧٠

أيلول الأسود ........ ٧٥

في ذمة الله ........ ٧٧

التحول الثوري ........ ٨٠

الطريق الناصري ........ ٨٢

تداعيات الأمل ........ ٨٤

**الفصل الرابع :السادات والحكم** ........ ٨٧

السادات والاتحاد الاشتراكي العربي ........ ٩٠

ثورة التصحيح ١٥ مايو عام ١٩٧١ ........ ٩٣

ظهور العلم الأخضر ........ ٩٤

السادات والتصحيح والإصلاح ........ ٩٧

| الموضـــــوع | الصفحة |
|---|---|
| انقسام الحركة الطلابية | ١٠١ |
| جماعة ناصر | ١٠٣ |
| الكاهن الأعظم والناصرية | ١٠٥ |
| جلاء الخبراء السوفيت | ١٠٦ |
| العقيد الليبي والكاهن الأعظم وقلائل | ١٠٨ |
| المسيرة الخضراء | ١٠٩ |
| **مقالات آخر المطاف** | ١١١ |
| رسالة من الثوار | ١١١ |
| رسالة من الأهرام | ١١٣ |
| المظاهرة الأخيرة | ١١٥ |
| اليوم العظيم | ١١٧ |
| **الفصل الخامس :إضافة : بعد الستين** | ١٢١ |
| طريق ناصر ، السادات | ١٢٥ |
| وأشرقت شمس الحرية | ١٢٩ |
| مبادئ الثورة | ١٣١ |
| الثورة والتغيير | ١٣٢ |
| قضية القضايا | ١٣٣ |
| الغرب يبحث عن ذاته | ١٣٧ |
| الديمقراطية وبُعدها الثالث | ١٣٨ |
| وثيقة بكين لعام ١٩٩٥ إحدى مشروعات الأمم المتحدة | ١٤١ |
| تأنيث الفقر | ١٤٢ |

| الموضـــــوع | الصفحة |
| --- | --- |
| الحرية الجنسية والعولمة | ١٤٤ |
| مصر والديمقراطية | ١٤٦ |
| مصر تبحث عن ذاتها | ١٤٧ |
| مدينة النور والمدنية الفاضلة «يوتيبيا» | ١٤٨ |
| الشورى والديمقراطية | ١٥١ |
| التجربة المصرية | ١٥٢ |
| وزارة للتربية الوطنية | ١٥٤ |
| إرهاصات الثورة | ١٥٧ |
| هُلاميـــة | ١٥٩ |
| خاتمة | ١٦٣ |
| دستور أخلاقيات المجتمع | ١٦٥ |
| الفهرس | ١٦٧ |

رقـــم الايـــــداع
٢٠١٢ / ٤٢٣٧

الترقيم الدولي I.S.B.N 977-209-214-X